

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : ناصر محمد حامد الغريبي كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الكتاب والسنة
الأطروحة مقدمة لئيل درجة : الماجستير في تخصص : الكتاب والسنة
عنوان الأطروحة : ((كيد الأعداء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

بناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٧/١١/١٤١٧هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، بحيث قد تم عمل اللازم؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

الناطق الخارجي

الناطق الداخلي

المشرف

الاسم : عبدستاق فتح الله

الاسم : جبار محمد بن محمد المنصاري

الاسم : د. محمد بن محمد بن عبد الله

التوقيع : [موقعه]

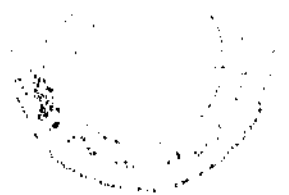
التوقيع : [موقعه]

التوقيع : [موقعه]

يعتمد

رئيس قسم

الاسم : [موقعه]
التوقيع : [موقعه]



• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
الدراسات العليا

كيد الأعداء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

(في ضوء الكتاب والسنة)

دراسة موضوعية وحديثة -

رسالة ماجستير

إعداد الطالب

ناصر بن محمد بن حامد الغريبي

إشراف الدكتور

سليمان الصادق البيرة

فرع الكتاب والسنة

الجزء الأول

١٤١٤ - ١٤١٥ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم
ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد:

اشتملت هذه الرسالة وهي بعنوان «كيد الأعداء في حياة الرسول ﷺ» على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة.

أما المقدمة: فقد اشتملت على تعريف الكيد، وظهوره، وأساليبه، وآثاره.

وأما الفصل الأول: فكان عن حديث القرآن عن الكيد، واشتمل على جمع الآيات التي ورد فيها لفظ الكيد ومرادفه وهو (المكر، والخداع، والخيانة).

وقد صنفت هذه المواضيع تصنيفاً موضوعياً مستوعباً في جميع الآيات القرآنية المتصلة بالموضوع، ثم أتبع ذلك بدراسة لبعض هذه الآيات دراسة موضوعية تفسيرية ثم قسمت تلك الآيات إلى أساليبه اللفظية، تناولت أساليب الكيد اللفظية ومرادفه.

وأما الفصل الثاني: فجاء فيه حديث السنة عن الكيد بالرسول ﷺ واشتمل على جمع الأحاديث في لفظ الكيد ومرادفه وهو (المكر، والخداع، والخيانة، والغدر) وقد جمع فيه بين الأشباه والنظائر مع مراعاة الأساليب الموضوعية للأحاديث ودراستها دراسة موضوعية.

وأما الفصل الثالث: فقد جاء الحديث فيه عن كيد المشركين بالرسول ﷺ وقد اشتمل هذا الفصل على الجوانب العقدية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية عند العرب كما تناول الحديث كيد المشركين بشخص الرسول ﷺ ثم كيدهم بأهله، وأصحابه ﷺ، وكان آخر هذا الفصل عرض أنماط من كيد المشركين في الحياة العامة.

أما الفصل الرابع: فقد تناول البحث فيه كيد المنافقين بالرسول ﷺ، وأهله، وأصحابه، وختم بأنماط من كيد المنافقين في الحياة العامة.

وأما الفصل الخامس: كان البحث فيه عن كيد اليهود بالرسول ﷺ وأصحابه، وكيدهم بالمرأة المسلمة، واستدعى ذلك الحديث عن تاريخ اليهود، ومواقفهم مع أنبياء الله عليهم السلام، وختم هذا الفصل بعرض أنماط من كيد اليهود في الحياة العامة.

وأما الفصل السابع: وكان الحديث فيه عن كيد النصارى، والمجوس، والشيطان بالرسول ﷺ كما تناول الحديث بيان عقائدهم، ومواقفهم من الإسلام وأهله، وأصحابه.

وأما الفصل السابع: فقد تناول البحث فيه العبر والعظات المستفادة من مجموع الفصول السابقة وجاء في خمسة مباحث.

وأما الخاتمة: فقد اشتملت على النتائج، والتوصيات التي كانت نتيجة البحث في هذا الموضوع، والله الموفق.

العميد
محمد سعيد محمد حسن

المشرف

د. سليمان الصادق البيهري

الطالب

ناصر محمد الغريبي

د. محمد سعيد محمد حسن

قال الله تعالى:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكَرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (١)

وقال تعالى:

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٢)

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.

كلمة شكر

أحمد الله حق حمده، ومنتهى رضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته وأصلي وأسلم على خير خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.
أما بعد:

فلقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١) وورد أيضاً عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال ﷺ: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم كافتموه»^(٢).

لذا فإني أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ الدكتور/ سليمان الصادق البيرة المشرف على هذه الرسالة والذي لم يأل جهداً في إعانتني وإقالة عثرتي وإبداء ملاحظاته الحسنة، وإعطائي كثيراً من جهده ووقته، وإنني إذ أشكره في هذه العجالة، لأعترف بتقصيري في حقه، ولا أملك سوى الدعاء له بالسداد والرشاد والتوفيق. وأن يجزيه الله عني خير الجزاء.

كما أشكر جامعتنا الحبيبة جامعة أم القرى ممثلة في مديرها

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب (باب في شكر المعروف) (٢٥٥/٤)، وفي سنن الترمذي واللفظ له، في كتاب البر والصلة (باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك) (٨٧/٦) قال الترمذي: «هذا حديث صحيح». وهو في مسند أحمد. بهامشه منتخب كثر العمال (٢٨٥/٢) ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٨٠/٨)، قال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٢) أورده أبو داود بسنده قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير، عن أعمش عن مجاهد، سنن أبي داود كتاب الزكاة (باب عطية من سأل بالله) ٥٢٤/١ رقم ١٦٧٢.

وجرير: هو ابن عبد الحميد، والأعمش: هو سليمان بن مهران، ومجاهد: هو ابن جبر، وهذا السند كل رجاله من رجال الشيخين أخرج لهم الجماعة، فهو صحيح الإسناد، ورواه النسائي في كتاب الزكاة، باب من سأل بالله عز وجل ٨٢/٥ والإمام أحمد في المسند ٩٩/٢.

معالي د/ راشد الراجح والمعاونين له في هذه الجامعة على ما يسرّوه لنا من وسائل لمواصلة الدراسة فجزاهم الله خيراً.

كما أشكر عمادة كلية الدعوة وأصول الدين ممثلة في عميدها السابق سعادة د/ علي العلياني.

الذي عاصر بدايات هذا البحث كما عاصر بداية عملي معيداً بالكلية، وعميدها الحالي سعادة د/ عبدالله الدميحي.

وسعادة رئيس قسم الكتاب والسنة وأعضائه الموقرين من أساتذتي ومشايخي الذين تلقيت على أيديهم العلم سواء في المرحلة الجامعية أو مرحلة الماجستير فجزى الله الجميع خيراً على بذلهم ومواقفهم.

كما أشكر زملائي وأصدقائي وأهل بيتي الذين ساعدوني في القيام بإنجاز هذا البحث بأفكارهم وكتبهم وأوقاتهم، سائلاً المولى تعالى أن يجزي الجميع عني خيراً وأن يجزل لهم المثوبة، إنه سميع مجيب، وبالإجابة جدير.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وصفيه من خلقه، وخليه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وأقام الملة وجاهد في الله حق الجهاد حتى أتاه اليقين، فتركنا على المحجة البيضاء ليلها ونهارها سواء، ما ضلَّ ويضلُّ عنها إلا زائغٌ هالكٌ. اللهم صلي وسلم وبارك على هذا النبي الأمي وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣).

أما بعد:

فإن أول ما يجب على المسلم: العلم، ثم العمل، ثم الدعوة إلى ذلك، ثم الصبر على الأذى فيه. قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيات: ٧٠-٧١.

(٤) سورة محمد، الآية: ١٩.

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٦﴾ (١).

لذا كان لزاماً على طلاب العلم أن يبينوا للناس ما خفي عليهم من كتاب ربهم ومن سنة نبيهم ﷺ، كلٌّ في مجاله.

فباحثٌ يبينُ للمسلمينَ مسائلَ الاعتقادِ، وآخرٌ يبين لهم صحيحَ السنةِ، وثالثٌ يبينُ لهم أحكامَ الفقه، ورابعٌ يبينُ القواعدَ الفقهيةَ والأصوليةَ وخامسٌ يكتبُ في المغازي والسيرِ والتاريخِ، وكل منهم يكملُ الآخرَ. ليكونَ نتاجُ ذلك أن يتبصرَ أهل الإسلامِ في دينهم، ويسيروا على نهجِ نبيهم دون إفراطٍ أو تفريطٍ.

ولقد كان لي شرفُ الانضمام إلى قافلة طلاب العلم، فأحببتُ أن أضربَ بسهم مع هؤلاء الأفاضلِ بغيةَ السيرِ معهم، وألطمع فيما أعدهُ الله لهم من الأجرِ والمثوبةِ.

وكنتُ أثناءَ دراستي في المراحلِ الأولى أدونُ آراءِ أساتذتي في كثيرٍ من فروع العلم، وكان من ضمن ذلك ما طرحهُ شَيْخُنَا الفاضلُ سُليمانُ الصادقُ البيرة في إحدى محاضراته، أن كيد الكافرين بالرسول ﷺ حريٌّ بأن يُبحث فيه، فخطر لي أن أكتب في ذلك وقد كان والله الحمدُ والمنه.

ولقد كان البحثُ في بداية الأمرِ غيرَ معروفٍ جوانبه، وبعد التقصي والجمع وجدتُ أن كل مبحثٍ من مباحث هذا البحث حريٌّ برسالةٍ منفردةٍ، لكن حسبي في ذلك أن أشيرَ، وأثيرَ نقاطاً مهمةً لأصحاب الهمم العالية ليهتموا بها ويتعمقوا في البحث فيها. لاسيما وأن كثيراً من أبناء المسلمين اليوم لا يتسنى له معرفةٌ كثيرٌ من المسائلِ المتناثرة في بطون الكتب.

(١) سورة العصر.

فحاولتُ جاهداً جمع النصوصِ قدرَ الإمكانِ، ليكونَ ذلك في متناول كلِّ مسلمٍ، ليتنبَّهَ لعدوِّه قد عرفَ عنا الكثيرَ، ونحن نجعلُ عنه ما هو مبيِّنٌ لنا عنَّه في كتاب ربنا وسنة نبيه ﷺ.

فأسألُ الله - عز وجل - أن يكونَ هذا البحثُ دافعاً لي وللمسلمين ليتعرفوا على عدوهم قبل الوقوع في حباله ومعرفة العلاج الناجع لردِّ ذلك الكيدِ بالطرقِ المشروعةِ والصحيحةِ التي رسمها لنا نبي الرحمة محمدٌ ﷺ في مواجهته لهذا الكيدِ.

وهناك أسبابٌ أخرى دعنتني إلى الكتابةِ في هذا الموضوع

منها:

١- انخداعُ كثيرٍ من أبناء المسلمين بأعدائهم، والسعيُّ والترويجُ لكثيرٍ من رسائلهم التي تبدو لمن لا علمَ له بهم في بداية الأمرِ أنها حسنةٌ.

٢- تكالبُ الأعداءِ على المسلمين من كل جانب، وفي كل ميدان، مما جعل كثيراً من الناس يتساءلُ ما المخرجُ؟ وما العلاجُ؟ بل إن البعضَ منهم شرع في القيام بعملِ أشياء لمواجهته ذلك الكيدِ مخالفةً للمنهج الصحيح.

٣- محاولة ربط المسلمين بالكتابِ والسنةِ الصحيحةِ لأنهما المخرجُ من ظلماتِ الفتنِ، سيما وأنها قد أطلت بقوة في هذا الزمان، وتزينتُ لكثير من الجهال.

هذا وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة، وتمهيد، وسبعة فصول، وتحت هذه الفصول عدة مباحث ومطالب.

أما المقدمة:

فقد تضمنت التنويهَ بأهمية الموضوعِ والباعثَ لي على اختياره

وعرضاً لخطة الرسالة، والمصاعب التي حفت بالرسالة أثناء إعدادها.

وأما التمهيدُ: (الكيد وأساليبه وآثاره)

فقد قسمته إلى أربع نقاطٍ:

أ - تعريفُ الكيد.

ب - ظهورُ الكيد.

ج - أساليبُ الكيد.

د - آثارُ الكيد.

وأما الفصلُ الأولُ: (حديثُ القرآن عن الكيد)

فقد قسمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الواردة في ذلك وتصنيفها تصنيفاً موضوعياً.

المبحث الثاني: دراسة الآيات دراسةً موضوعيةً ودراسةً آراء المفسرين.

المبحث الثالث: أساليبُ القرآن في حديثه عن الكيد وخصائصها.

وأما الفصلُ الثاني: (حديثُ السنة عن الكيد)

فقد قسمته إلى مبحثين:

المبحث الأول: دراسة الأحاديث دراسةً موضوعيةً وحديثيةً.

المبحث الثاني: أساليبُ السنة في الحديث عن الكيد.

وأما الفصلُ الثالثُ: (كيدُ المشركين)

فقد قسمته إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: كيدُ المشركين بشخصِ الرسول ﷺ.

المبحث الثاني: كيدُ المشركين بأهلِ الرسول ﷺ.

المبحث الثالث: كيدُ المشركين بأصحابِ الرسول ﷺ.

المبحث الرابع: أنماط من كيد المشركين للدعوة في شئون الحياة:
وفيه المطالبُ التاليةُ:

- المطلب الأول: كيدُ المشركين السياسي.
- المطلب الثاني: كيدُ المشركين الاقتصادي.
- المطلب الثالث: كيدُ المشركين الإعلامي.

وأما الفصل الرابع: (كيد المنافقين)

فقد قسمته إلى أربعة مباحث:

- المبحث الأول: كيدُ المنافقين بشخص الرسول ﷺ.
- المبحث الثاني: كيدُ المنافقين بأهل الرسول ﷺ.
- المبحث الثالث: كيدُ المنافقين بأصحاب الرسول ﷺ.
- المبحث الرابع: أنماطُ من كيد المنافقين للدعوة في شئون الحياة
وفيه المطالبُ التاليةُ:

- المطلبُ الأول: كيدُ المنافقين السياسي.
- المطلبُ الثاني: كيدُ المنافقين الاقتصادي.
- المطلبُ الثالث: كيدُ المنافقين الإعلامي.

وأما الفصلُ الخامسُ: (كيد اليهود)

فقد قسمته إلى خمسة مباحث:

- المبحث الأول: (تاريخ اليهود).
- المبحث الثاني: كيدُ اليهود بشخص رسول الله ﷺ.
- المبحث الثالث: كيدُ اليهودِ بأصحاب النبي ﷺ.
- المبحث الرابع: كيدُ اليهودِ بالمرأة المسلمة.
- المبحث الخامس: أنماطُ من كيدِ اليهودِ للدعوة في شئون الحياة.
وفيه المطالبُ التاليةُ:

- المطلبُ الأول: كيدُ اليهود السياسي.

المطلبُ الثاني: كيدُ اليهودِ الاقتصادي.

المطلبُ الثالث: كيدُ اليهودِ الإعلامي.

وأما الفصل السادس: (كيدُ النصارى والمجوسِ والشيطان)
فقد قسمته إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: كيدُ النصارى واشتمل على تمهيد وأربعة مطالب:
أما التمهيد فقد قسمته إلى ثلاثِ نقاطٍ:

أ - موقفهم من الله تعالى.

ب - موقفهم من عيسى عليه السلام.

ج - موقفهم من الإنجيل.

أما المطالبُ فهي كما يلي:

المطلب الأول: كيدُ النصارى بشخص رسول الله ﷺ

المطلبُ الثاني: كيدُ النصارى بأصحاب الرسول ﷺ

المطلبُ الثالث: ملوكُ النصارى وقساوستهم

يعترفون بالدين الإسلامي الحنيف.

المطلبُ الرابع: كيدُ النصارى السياسي والحربي.

المبحث الثاني: كيدُ المجوسِ واشتمل على المطالب التالية:

المطلبُ الأول: مذاهبُ المجوسِ واختلافاتهم.

المطلبُ الثاني: كيدُ المجوسِ بالرسول ﷺ.

المبحث الثالث: كيدُ الشيطانِ واشتمل على ما يلي:

تمهيدٌ وأربعة مطالب.

أما التمهيد:

فاشتمل على شرح موجز عن أصنافِ الجنِّ ووجوبِ

الإيمان بهم. وأما المطالبُ فهي كما يلي:

المطلبُ الأول: كيدُ الشيطانِ بالرسول ﷺ.

المطلب الثاني: كيدُ الشيطانِ بأهل الرسول ﷺ.

المطلب الثالث: كيدُ الشيطانِ بأصحاب الرسول ﷺ.

المطلب الرابع: كيدُ الشيطانِ السياسي.

وأما الفصلُ السابعُ: (العبر والعظات من كيد الأعداء)

فقد أوردتُ فيه العبرَ والعظاتِ المستفادة من هذه الدراسة ثم ذكرتُ الخاتمة.

هذا وقد حفَّتْ بهذه الدراسة عدة مصاعبٍ أُشيرَ إلى شيءٍ منها فيما يلي:

أولاً: اتساع الموضوع، وتناثر أجزائه في بطون الكتبِ والمؤلفاتِ الحديثية مما جعلني أتكد كثيراً من الأوقات في جمعها، وقراءتها واستخراج ما فيها.

ثانياً: الموضوعُ له صلةٌ بكتبِ التاريخِ والسيرِ، ولا يخفى على أهل العلم ما في بعض أسانيدِها من انقطاع أو ضعفٍ أو إبهامٍ، احتجتُ فيها إلى أوقاتٍ ليست قليلةً لكي أنقبَ عما يغني عن بعضها في كتبِ السُّنة.

ثالثاً: البحثُ اشتمل على دراسةٍ تحليليةٍ تحتاج إلى إعمالِ فكرٍ ونظيرٍ وتنسيقٍ بين ما يجمعُ. واشتمل أيضاً على دراسةٍ حديثةٍ تحتاج إلى دراسةٍ الأسانيدِ والحكمِ عليها فصار الجهدُ منقسماً بين دراسةِ التفاسيرِ، وكتبِ الحديثِ، وكتبِ اللغة، وبين كتبِ الحديثِ والرجالِ.

رابعاً: الأعباءُ التدريسيةُ التي أقوم بها في قسمِ الدعوةِ كبيرةٌ سيما وأن هذا القسمَ يعطي مادةَ الثقافةِ إلى طلابِ الجامعةِ عموماً، وهذا يحتاج إلى وقتٍ في التحضيرِ والتدريسِ والتصحيحِ والإرشادِ،

مما يسبب لي الانقطاع في بعض الأحيان عن الاتصال بهذه الرسالة مما كلفني عند الرجوع مرة أخرى لذلك أوقاتاً كبيرة لكي تنتظم الأفكار، وتكتمل المعاني.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر لصاحبي الفضيلة الأستاذ الدكتور/ عبدالستار فتح الله سعيد، والأستاذ الدكتور/ محمد محمد الأمين الأنصاري، الأستاذين بكلية الدعوة على قبولهما مناقشة هذه الرسالة وتجشمهما برغم أعبائهما العلمية وارتباطاتهما الكثيرة. فأسأل الله تعالى أن يجزيهما عني خير الجزاء وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهما إنه سميع مجيب.

كما أشكر سعادة المشرف الدكتور/ سليمان الصادق البيرة على الإشراف على هذا البحث الذي أسأل الله تعالى له الخير وحسن المثوبة في الدنيا والآخرة، وأشكر كل من مد يد العون لإتمام هذا البحث فجزى الله الجميع عني خيراً.

وختاماً أرجو الله العليّ القدير أن ينفع ببחי هذا وأن يفتح أبواباً لمن بعدي بالتوسع والتعمق في هذا المجال، فحسبي في ذلك الإشارة وأسأل الله أن يتجاوز عني فيما كان مني من خطأ أو تقصير أو نقصان.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (١)

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٢)

اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه،
اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨.

وعيني من الخيانة، إنك تعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تخفي الصدور،
وحسبي اللهُ ونعمَ الوكيلُ عليه توكلتُ وإليه أنيبُ، وصلى الله وسلم
على نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم
الدين.

منهجي في الرسالة:

فقد سلكت فيه الخطوات التالية:

أولاً: التعريفُ بمعنى الكيد، من الكتبِ المعتمدة.

ثانياً: أذكر لكل فصل تمهيداً يبين أهميته وفائدته.

ثالثاً: جمعُ الآيات التي ورد لفظ الكيد فيها وما يشابهه فيها (كالمكر، الخداع، الخيانة) وترتيبها مكية ومدنية، مع ذكر ما يتصل بها في السياق من آيات في كتاب الله عز وجل، وأشير إلى اسم السورة، ورقم الآية.

رابعاً: تحليلُ الآياتِ تحليلاً موضوعياً، وذكرُ أقوالِ أهلِ التفسير فيها.

خامساً: ذكرُ بعضِ الأساليبِ التي وردت في هذه الآيات.

سادساً: جمعُ الأحاديثِ التي ورد فيها لفظ الكيد وما يشابهه فيها (كالمكر، الخداع، الخيانة، الغدر) والحكمُ عليها.

سابعاً: تحليلُ الأحاديثِ تحليلاً موضوعياً، مع ذكر أقوالِ أهلِ الحديث فيها.

ثامناً: عزوُ الأحاديثِ إلى مصادرها الأصلية من الصحاح والسنن والمسانيد.

فإذا كان الحديث موجوداً في الصحيحين أو أحدهما فإني أكتفي بعزوي إليهما أو أحدهما، وإذا كان الحديث في غير الصحيحين فإني أذكر مُخْرَجَهُ وحكم أهل الحديث عليه فإن لم أجد أحكم على الحديث بعد دراسة رواته.

تاسعاً: الرجوعُ في بيان معنى الأحاديثِ إلى كتبِ شروح الحديثِ المعتمدة.

عاشراً: تخريجُ الأشعار والأمثالِ من مصادرها الأصلية

والتعريفُ بالبلدانِ والأماكنِ .

الحادي عشر: بيان غريبِ الألفاظِ وإيضاحها من الكتبِ المعتمدةِ .

الثاني عشر: رتبُ المراجعِ والمصادرِ التي استخدمتها في البحثِ ترتيباً هجائياً باسمِ الكتابِ مراعيماً ما يلي :

أ - اعتمادُ الاسمِ الأولِ من الكتابِ .

ب - إغفالُ أداةِ التعريفِ (أل) من الترتيبِ إلا إذا كانت جزءاً من اسمِ يصعبُ إغفاله .

ج - أفردتُ كلَّ الكتبِ التي وردت في علمٍ معينٍ على حدةٍ مرتبةً كما يلي :

* كتبُ التفسيرِ .

* كتبُ عامة .

* كتبُ الحديثِ .

* كتبُ الفهارسِ والمعاجمِ .

* كتبُ التاريخِ والسيرِ .

الثالث عشر: قمت بوضع الفهارسِ العلميةِ ورتبتها على النحو

التالي :

١- فهرسُ الآياتِ القرآنيةِ .

٢- فهرسُ الأحاديثِ النبويةِ والأثارِ .

٣- فهرسُ الأمثالِ .

٤- فهرسُ الأشعارِ .

٥- فهرسُ الأماكنِ والبلدانِ .

٦- فهرسُ المفرداتِ اللغويةِ .

٧- فهرسُ الأعلامِ .

٨- فهرسُ المصادرِ والمراجعِ .

٩- فهرسُ الموضوعاتِ .

التمهيد «الكيد وأساليبه وآثاره»

ويشتمل على:

أ - تعريف الكيد.

ب - ظهور الكيد.

ج - أساليب الكيد.

د - آثار الكيد.

أ - تعريف الكيد

قال ابن منظور: «الكيد: من المكيدة وقد كاد مكيدة، والكيد الخبث والمكر كاد يكيده كيداً ومكيدة، وكذلك المكيدة، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده، يقال كدت الرجل أكيدته.

والكيد: الاحتيال والاجتهاد، وبه سميت الحرب كيداً، وهو يكيده بنفسه يحود بها، ويسوق سوقاً... ويكيده بنفسه: يراد به النزاع والكيد السوق، وكادت المرأة حاضت: يقال كادت تكيد كيداً: إذا حاضت، وكاد الرجل: قاء والكيد القيء... والكيد صياح الغراب بجهد ويسمى إجهاد الغراب في صياحه كيداً، والكيد إخراج الزند النار.

والكيد التدبير بباطل أو حق... والكيد الحرب يقال غزا فلان فلم يلق كيداً... ويقال: فلان يكيده أمراً ما أدري ما هو إذا يزيغه ويحتال له ويسعى له ويجتله. وقال: بلغ الأمر الذي كادوا... يريد: طلبوا أو أرادوا... وكيد الله تعالى للكفار استدراجهم من حيث لا يعلمون...»^(١).

ومنه: نزع الروح، كما ورد فيه أن الرسول ﷺ دخل على سعد^(٢) وهو يكيده بنفسه. أي: يجود بها، يريد النزاع.

(١) لسان العرب/ للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (٣٨٣/٣) مطبعة دار بيروت، الناشر جماعة من العلماء. له ترجمة في الوافي في الوفيات (٣٩/٤). والدرر الكامنة (٤/٢٦٢). وحسن المحاضرة (١/٣٨٨). والأعلام (٧/١٠٨). وانظر تاج العروس (٢/٤٨٨).

(٢) هو: سعد بن معاذ. رواه ابن سعد في الطبقات (٣/٤٢٩) ورجاله ثقات لكنه مرسل، وهو في مسند أبي داود الطيالسي. وأصل قصة مرض سعد وعبادة النبي ﷺ له رواها مسلم وغيره (صحيح مسلم كتاب الفضائل) (١٦/٢٢).

وفي حديث عمر: «أن رسول الله ﷺ غزا غزوة كذا، فرجع ولم يلق كيداً» أي^(١): حرباً.

وفي حديث صلح نجران: «إن عليهم عارية السلاح إن كان باليمن كيد أو غدرة» أي حرب ولذلك أنتها^(٢).

الكيد: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وقد يكون ممدوحاً، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر ويكون بعض ذلك محموداً، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ...﴾^(٣) وقوله: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ...﴾^(٤) قال بعضهم: أراد بالكيد: العذاب. والصحيح أنه الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا...﴾^(٥) وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ...﴾^(٦) فخص الخائنين تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد ممدوح لم يقصد بكيده خيانة ككيد يوسف بأخيه.

((والكيد لا يكون إلا بعد تدبير وفكر ونظر، ولهذا قال أهل العربية: «الكيد التدبير على العدو وإرادة إهلاكه»، وسميت الحيل

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي (٢١٦/٤) دار الباز. وأصل قصة أهل نجران أخرجها البخاري في المغازي باب (قصة أهل نجران ٦٩٥/٧) فتح الباري.

(٢) رواه أبو داود بسنده عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي - وهو المعروف بالسدي - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في سننه في كتاب الخراج (باب في أخذ الجزية) ١٨٣/٢ رقم ٣٠٤١.

قال المنذري: «في سماع السدي من ابن عباس نظر وإنما قيل: إنه رآه ورأى ابن عمر وسمع من أنس - رضي الله عنهم - مختصر المنذري على أبي داود ج ٢٥١/٤ مع معالم السنن - تحقيق حامد الفقي طبعة مكتبة السنة المحمدية وضعفه الألباني في ضعيف السنن رقم (٦٥٨).

(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤٥.

(٥) سورة آل عمران: الآية: ١٧٨.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

التي يفعلها أصحاب الحروب بقصد إهلاك أعدائهم: مكاييد؛ لأنها تكون بعد تدبير ونظر.

ويجوز أن يقال: الكيد: الحيلة التي تقرب وقوع المقصود به من المكروه وهو من قولهم: كاد يفعل كذا أي قرب. إلا أنه قال في هذا: يكاد. وفي الأولى: يكيد للتصرف في الكلام والتفريق بين المعنيين. وقال بعض أهل العلم: «الكيد الوسيلة التي يتذرع بها الكائد للوصول إلى غرضه؛ وهو إلحاق الضرر بعدوه».

وكيد الله له أربعة معاني هي:

- ١- إحباط كيد الكائد وإفساده.
- ٢- تأييد من يكائد لهم ونصرهم على أعدائهم.
- ٣- تدبير أمور الصالحين من عباده.
- ٤- استدراج الله تعالى للمذنب ومولاة الإنعام عليه حتى إذا ما طغى وتمادى في ضلاله أخذه أخذ عزيز مقتدر^(١).

ومما يتصل بالحديث عن الكيد الحديث عن الخداع والمكر، وما جاء مبسوطاً في المعاجم اللغوية عن ذلك. ومما له صلة بذلك أنه يجوز أن يقال: إن الفرق بين الخداع والكيد، أن الكيد اسم لفعل المكروه بالغير قهراً؛ تقول: كادني فلان. أي: ضرتني قهراً.

والخدعة اسم لفعل المكروه بالغير من غير قهر^(٢).

والخداع: هو أن يستر عنه وجه الصواب، فيوقعه في مكروه^(٣).

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر الطبعة الثانية (٢/٥٤٩).
 (٢) الفروق اللغوية. للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري. حققه حسان الدين القمي ص ٢١٤، دار الباز.
 (٣) الفروق اللغوية، ص ٢١٤.

قال الراغب: «المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة»^(١).

والمكر: مثل الكيد في أن لا يكون إلا مع تدبر وفكر، إلا أن الكيد أقوى من المكر. والشاهد أنه يتعدى بنفسه والمكر يتعدى بحرف، فيقال: كاده، يكيده، ومكر به، ولا يقال: مكره، والذي يتعدى بنفسه أقوى^(٢).

وأصل المكر: الخداع^(٣).

والمكر ضربان: محمود وهو: ما يتحرى به أمر جميل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَّكْرٌ لِلَّهِ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾^(٤).

ومذموم هو: ما يتحرى به فعل ذميم، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٥).

قالوا: من مكر الله تعالى بالعبد إمهاله وتمكينه من أعراض الدنيا.

والخداع: إظهار خلاف ما تخفيه.

تقول: خدعه، يخدعه، خداعاً. أي: أراد به المكروه. وختله من حيث لا يعلم^(٦).

قال الراغب: «الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يديه على خلاف ما يخفيه،... وقيل خدع الضب أي استتر في جحره... وطريق خادع وخديع مضل، كأنه يخدع

(١) مفردات غريب القرآن ص ٧١٥.

(٢) الفروق اللغوية: ص ٢١٥.

(٣) النهاية: ٣٤٩/٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٦) لسان العرب (٦٤/٨).

سالكه...» (١).

قال الفيروزآبادي (٢): يصيره في الخداع: وهو إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبيده على خلاف ما يخفيه.

والخداع ورد في القرآن على أربعة أوجه:

الأول: خداع الكفار رسول الله ﷺ بأن يعقدوا معه عهداً في الظاهر، وينقضوه في الباطن: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ (٣).

الثاني: خداع اليهود مع أهل الإيمان، يصلحونهم في الظاهر، ويتهيئون لحربهم في الباطن: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤).

الثالث: خداع المنافقين مع المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (٥).

الرابع: خداع الله الكفار بإسباغ النعمة عليهم في الدنيا وادخار أنواع العقوبة لهم في العقبى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (٦).

وقيل في قوله: يخادعون الله. أي: يخادعون رسول الله وأوليائه، ونسب ذلك إلى الله من حيث أن معاملة الرسول ﷺ

(١) مفردات القرآن للراغب ص ٢٠٦.

(٢) الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي صاحب القاموس، أخذ اللغة والأدب عن والده. جال في البلاد، ولقي بها الملوك والأكابر، ونال وجاهة ورفعة، وصنف الكثير توفي سنة ٨١٧هـ. وقد ناهز التسعين. طبقات المفسرين للداودي (٢/٢٧٥) والأعلام (١٦٤/٥).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

كمعاملته .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وجعل ذلك خداعاً تفضيحاً لفعالهم، وتنبهاً على عظم قدر الرسول ﷺ وعظم قدر أوليائه (٢) .

والخيانة: مأخوذة من خون. كما ورد في الحديث: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» (٣) . أي: يضمّر في نفسه غير ما يظهره، إذا كف لسانه وأوماً بعينه فقد خان، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين. ومنه قوله تعالى: ﴿ يَعْلمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٤) أي: ما يخونون فيه من مسارقة النظر إلى ما لا يحل .

والخائنة: بمعنى الخيانة، والمخانة: مصدر من الخيانة .
والتخون: التنقص (٥) .

قال ابن سلام (٦): وتفسير الخيانة على خمسة وجوه:

- (١) سورة الفتح، الآية: ١٠ .
- (٢) بصائر ذوي التمييز (٥٢٩/٤) .
- (٣) رواه أبو داود في السنن كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد رقم (٤٣٥٩) والنسائي كتاب تحريم الدم. الحكم في المرتد (١٠٦/٧)، والحاكم (٤٥/٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. وواقفه الذهبي، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣٠٠/٤) .
- (٤) سورة غافر، الآية: ١٩ .
- (٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٨٩/٢)، لسان العرب (١٤٤/١٣) .
- (٦) ابن سلام هو: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة. التميمي بالولادة. البصري ثم الإفريقي، مفسر، فقيه، عالم بالحديث واللغة، قال ابن الجزري: كان ثقة ثباتاً ذا علم بالكتاب والسنة ومعرفة باللغة، ضعفه الدارقطني، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: وربما أخطأ. (الأعلام ١٤٨/٨)، (تراجم الوفيات ١٠٩/١) توفي سنة ٩٠٠ هـ .

الوجه الأول: الخيانة يعني الذنب في الإسلام، وذلك كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١).
يعني: الذنب في الإسلام، وذلك أن رجلاً من المسلمين، يقال: إنه عمر بن الخطاب، واقع امرأته في شهر رمضان^(٢).

وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾^(٣). يعني المعصية في الإسلام، وذلك أن أباالبابة^(٤) صاحب النبي ﷺ أشار إلى يهود بني قريظة بيده أن لا ينزلوا على الحكم، فكانت هذه منه خيانةً وذنباً. وقوله في المؤمن: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾^(٥) يعني النظرة في المعصية، وهو الذي يسارق النظر.

الوجه الثاني: خيانة الذي تكون عنده أمانة فيخونها، وذلك قوله في سورة النساء: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^(٦). وهو الذي يخون أمانته. نزلت في طعمة بن أبيرق^(٧) خان درعاً من حديد كانت عنده وديعةً.

الوجه الثالث: الخيانة نقض العهد، وذلك قوله في سورة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) قال ابن كثير: فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك. فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، ونسخ هذا الحكم ورخص لهم في ذلك الليل كله. (تفسير القرآن العظيم ١/٣٢٩).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

(٤) أبوالبابة بن عبدالمنذر الأنصاري: أذنب وتاب، وقيل الله توبته، وأنزل فيه ﴿وَمَا آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ...﴾ التوبة الآية (١٠٢). صحابي توفي في خلافة علي - رضي الله عنه - (الاستيعاب ١٢/١٠٧)، (الإصابة ١١/٣٢٢).

(٥) سورة غافر، الآية: ١٩.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٧) طعمة بن أبيرق: أحد بني ظفر بن الحارث، وقد كان من المنافقين.

الأنفال: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾^(١) يعني: نقض العهد، نزلت في اليهود، ومثلها في سورة المائدة: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ...﴾^(٢) يعني: اليهود. ذكره مجاهد فقال: نقضوا العهد، وهموا بقتل النبي ﷺ ومن معه، وكانوا ثلاثة نفر: أبوبكر، وعمر، وعلي رضي الله عنهم.

الوجه الرابع: الخيانة يعني الخلاف في الدين وذلك قوله في سورة التحريم: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾^(٣) يعني: مخالفتهما في الدين كانتا كافرتين. وقال في سورة الأنفال الآية (٧١): ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ...﴾ - يعني الذين أسروا يوم بدر - ويريدون خلافاً في الدين. أي: الكفر بك، فقد خانوا الله من قبل.

وقال في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا﴾^(٤) يعني في دينه. نزلت في طعمة بن أبيرق وكان منافقاً.

الوجه الخامس: الخيانة يعني الزنا، وذلك قوله في سورة يوسف: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^(٥) يعني: لا يصلح عمل الزنا^(٦).

وفي حديث الحديبية: قال عروة بن مسعود للمغيرة: «أغدر هل غسلت سواك إلا بالأمس»^(٧).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٧.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٦) التصاريف - تفسير القرآن مما اشبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، يحيى بن سلام - قدم له وحققه هند شلبي، طبعة الشركة التونسية للتوزيع (١٧٧).

(٧) رواه البخاري في (الشروط) بلفظ: «أي غدر، ألت أسعى في غدرتك» الشروط باب ١٥ رقم ٢٧٣١: وأحمد في المسند (٣٢٤/٤) واللفظ له.

غدر: معدول عن غادر للمبالغة. يقال للذكر: غدر، وللأنثى: غدار كقطام، وهما مختصان بالنداء في الغالب.

ومنه حديث عائشة قالت للقاسم: «اجلس غدر»^(١) أي: يا غدر. فحذفت حرف النداء.

وقال ابن الأثير: إن هناك أرضاً يقال لها غُدْرَة «فسمّاها خَصْرَة» كأنها كانت لا تسمع بالنبات، أو تنبت ثم تسرع الآفة، فشبهت بالغادر لأنه لا يفى»^(٢).

قال ابن سيده:^(٣) والغدر ضد الوفاء بالعهد. وقال غيره: الغدر ترك الوفاء. تقول: غدر إذا نقض العهد^(٤).

قال الفيروزآبادي: «والغدر الإقلال بالشيء وتركه»^(٥).

قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله -: «الكيد ضربٌ من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وممدوحاً، وإن كان استعماله في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر، وقد يكون بعض ذلك محموداً قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأُمِّي لَهُمْ إِيَّتْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب. والصحيح أنه الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^(٦) فخص الخائنين تنبيهاً قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة؛ ككيد

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم (٥٦٠) (٦٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٣٤٥).

(٣) ابن سيده: صاحب المحكم في اللغة، أبوالحسين علي بن إسماعيل المرسي، كان إماماً حافظاً في اللغة. وكان ضرير البصر وأبوه كذلك، توفي سنة ٤٥٨ هـ وله ٦٠ سنة، البداية والنهاية (١٠٣/١٢).

(٤) لسان العرب (٨/٥).

(٥) بصائر ذوي التمييز (٤/٢٢).

يوسف بأخيه وقوله تعالى: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ لأريدن بها سوءاً... ويقال: فلان يكيد بنفسه أي يجود بها، وكاد الزند إذا تباطأ بإخراج ناره، ووضع كاد لمقاربة الفعل، يقال: كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل، وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع ويكون قريباً من ألا يكون قال تعالى: ﴿لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ ولا فرق بين أن يكون حرف النفي متقدماً عليه أو متأخراً عنه نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ وقلما يستعمل في كاد «أن» إلا في ضرورة الشعر^(١).

(١) المفردات للراغب الأصفهاني في تحقيق د/محمد خلف الله ص ٦٦٦/٦٦٧ نشر مكتبة الأنكلو المصرية ١٩٨٠م.
وانظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢/٩٩٨) مجمع اللغة العربية، القاهرة - الطبعة الثانية.

ب - ظهور الكيد للبشر

كان أول ظهور الكيد - فيما نعلم - من إبليس^(١) - أعاذنا الله منه - عندما كاد أبانا آدم - عليه السلام -، فأغراه بالأكل من الشجرة، وكان ذلك سبب إخراجه من الجنة.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ (٢).

عندما أكرم الله - عز وجل - آدم، وأسجد له ملائكته اشتعلت نيران الحسد الكامنة في إبليس - أعاذنا الله منه - فعصى ربه ولم يمثل للأمر - كما فعلت الملائكة - حسداً وكبرياء، وغطرسة.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنما حاول إبليس أن يكيد، ويمكر بهذا المخلوق الذي أكرمه الله - عز وجل - وكان ثمة اختبار لآدم من ربه وامتحان أن لا يأكل من شجرة عينها له ربُّه في الجنة. فوجد إبليس منفذاً يكيد به آدم، وهو إغراؤه بالأكل من تلك الشجرة فأكل منها. وظل بعد ذلك يكيد أبناء آدم، وسيظل إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ

(١) إبليس: من الجن كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الكهف، الآية: ٥٠] وهو مشتق من فعل أبلس لأنه أبلس من رحمة الله أي أيس. وقال أبو إسحاق: لم يصرف لأنه أعجمي معرفة (لسان العرب: (٢٩/٦).

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٣٥، ٣٦.

شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢١﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءٌ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٢﴾ (١).

قال ابن كثير: «إن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها» (٢).

أزلَّ الشيطان آدم للأكل من تلك الشجرة، وعصى ربه، فكان ذلك سبب إخراجه من المنزل الرحب، والرزق الهنيء والراحة، إلى هذه الأرض حيث النقص والتعب، والنكد.

ثم جاء بعد ذلك ما هو أشدُّ منه بلاء، وهو إهباط إبليس - أعاذنا الله منه - إلى الأرض وعداوته لبني آدم، والنيل منهم بقدر ما يستطيع، ومحاولة إغوائهم وإدخالهم في معصية الله - تعالى - بكل حيلة ووسيلة.

وقد ذكر ابن القيم (٣) - رحمه الله - أن عداوة الشيطان للإنسان على سبعة مراتب:

-
- (١) سورة طه: الآيتان: ١٢٠، ١٢١.
 (٢) تفسير القرآن العظيم (٢٦٨/٣) للإمام أبي الفداء الحافظ إسماعيل بن الخطيب ابن كثير الدمشقي - دار الفكر. انظر ترجمته ص ٥٣.
 (٣) ابن القيم هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة. من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار العلماء، تتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، ألف تصانيف كثيرة، منها: «زاد المعاد»، و«إعلام الموقعين»، و«مفتاح دار السعادة»، و«البيان في أقسام القرآن»، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة للهجرة. «الأعلام» (٥٦/٦).

١ - الكفر^(١) والشرك^(٢) ومعاداة الله ورسوله: فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تبعه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فإن ظفر به صيَّره من عسكره ونوَّابه، فصار من دعاة إبليس، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية.

١ - البدعة^(٣): لأنها أحبُّ إليه من الفسوق والعصيان؛ وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضررٌ متعدّدٌ، وهي مخالفة لدعوة الرسل، فإن كان الشخص ممَّن يعادي أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة، وهي:

٣ - الكبائر^(٤): على اختلاف أنواعها، فيحرص أن يوقعه فيها، خاصةً إذا كان عالمًا متبوعًا؛ لينفر الناس عنه، ومن المعلوم

(١) الكفر نقيض الإيمان، ويقال لأهل دار الحرب: قد كفروا أي عصوا وامتنعوا. رجل كافر: أي جاحد لأنعم الله، مشتقٌّ من الستر. وقيل لأنه مغطى على قلبه، وسمي المزارع كافرًا لستره البذور بالتراب. والليل لأنه يستر بظلمته كلَّ شيء. قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: أ - كفر إنكار يانه لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به. ب - كفر جحود. ج - كفر معاندة. د - كفر نفاق. ومن لقي الله بشيء من ذلك، لم يغفر له. «لسان العرب» (١٤٥/٥).

(٢) الشرك: قال - تعالى -: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ يقول: شَرَكْتُهُ في الأمر وأشركه شركة، والاسم: الشرك. وشاركته إذا صرت شريكه وقد أشرك بالله فهو مشرك إذا جعل له شريكًا. والشرك: الكفر، والكفر أعمُّ من الشرك؛ لأن المشرك يعبد الله ويشرك معه في عبادته غيره، لكن الكافر قد ينكر وجو الله أصلاً. «النهاية» (٤٦٦/٢).

(٣) البدعة: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بها المبالغة في التعبد لله - سبحانه -. وقد فصلَّ الكلام في ذلك الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي في كتابه «الاعتصام» (٢٧٥/٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، ص ٢١٧.

(٤) الكبائر: واحدها كبيرة. وهي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعًا، العظيم أمرها: كالقتل، والزنا، والفرار من الزحف، وغير ذلك، وهي من الصفات الغالبة (النهاية ١٤٢/٤). قال ابن حجر: روي عن ابن عباس أنها كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب (الفتح ٤١٠/١٠).

أن الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبُّوا إشاعتها، فكيف إذا تَوَلَّوْا هم إذاعتها؟ فإن عجز عن هذه نقله للتي بعدها، وهي:

٤ - الصغائر^(١): التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها كما قال النبي ﷺ: «يَاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنٍ وَادٍ...»^(٢)، وقال ابن القيم إن معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارًا عظيمةً، فطبخوا واشتروا.

ولا يزال سهل عليهم أمر الصغائر حتى يستهينوا بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة، وهي:

٥ - إشغاله بالمباحات: التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوات الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتي بعدها.

٦ - إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل: ليزيح عنه الفضيلة ويفوت ثواب العمل الفاضل، ويفتح له أبواب خيرٍ كثيرة، كما ورد أنه يأمر بسعين بابًا من الخير؛ إمَّا ليتوصَّل إلى بابٍ واحدٍ من الشرِّ، وإمَّا ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين وأجلُّ وأفضل.

(١) الصغائر: التي لاحقًا فيها ولا تختم بنار أو لعنة أو عذاب، وهي أشبه بما ورد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزنا أدرك ذلك لامحالة، فرنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدَّق ذلك كله أو يكذبه». رواه البخاري في الاستئذان، رقم ٦٣٤٣.

(٢) «مسند أحمد» (٣٣١/٥)، وهو حديث صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (ح رقم ٣٨٩)، و«صحيح الجامع» (٣٨٦/٢)، ح ٢٦٨٣، ٢٦٨٤.

وهذا أمر لا يتوصّل إلى معرفته إلا بنور يقذفه الله في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبّها إليه وأرضاها له، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، والله يمنُّ بفضلته على من يشاء من عباده^(١).

٧ - فإذا أعجزه العبد عن هذه المراتب الستّ: سلط عليه حربه من الإنس والجنّ بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوّش عليه قلبه، ويمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجنّ عليه لا يفتر ولا يني، فحيثذ يلبس المؤمن لآمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله^(٢).

والسبب الذي أوجد العداوة هذه: الكبر، والشهوات، والحسد، وحبُّ الهيمنة. وسوف يظلُّ هذا الأمر إلى قيام الساعة؛ ليميز الله الخبيث من الطيّب، ولتتفدّ في ذلك مشيئة الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٣). بعد أن أقام الحجج، وأطب كثيرا في التحذير من مداخل الشيطان وبيان تاريخه الطويل مع آدم وذريته؛ لئلا يكون على الله حجة بعد الرسل، كما بين لنا العلاج الناجع والنافع لكي لا نقع في حبائله أو السير في طريق من طرقه.

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٦٠-٢٦٢) مختصراً لابن القيم، تصحيح محمد منير عبده آغا الدمشقي الأزهرى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢) «إغائة اللفهان من مصاديد الشيطان» للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر، الشهرير بابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، ص ٢٣٤.

(٣) سورة الملك: الآية ٢.

فقد بيّن الله في كتابه عصيان إبليس لأمره، وعدم سجوده
لآدم، ثم بيّن طرده، وطلبه الإنظار، واستثناء بعض بني آدم في عدم
تمكّنه من إغوائهم، ثم هبوطه الأرض، واستعباده لبعض البشر مع
بيان ضعفه، وكذبه، وجبنه، ووحيه الباطل، ووسائله، وأتباعه،
ومداخله، وأمره بالسوء، ونزغاته، وتخويفه وأمانيه، وتحريمه،
واستفزازه، ومشاركته، ونتائجه، فإذا تأملت هذا في ثنايا القرآن
الكريم تبين لك حجم خطره وشمّرت عن ساعد الجدّ لعدم الوقوع
في مكائده كيف لا؟ وهو أوّل من ظهرت منه المكائد من أوّل يوم
خلق فيه آدم، وسيظلّ كذلك مع ذرّيته إلى قيام الساعة؟ أعادنا الله
- عزّ وجلّ - من همزه ولمزه ونفته وشرّه. والله المستعان أوّلاً
وآخرًا.

ظهور الكيد في البشر:

الحسد داء يعمي ويصمُّ، ويطمس على العقول والبصائر، حتى إنك لتنظر إلى العالم العاقل الراسخ إذا أصيب بهذا الداء فتري دخانه يغطي على عقله، فيصبح يتكلم بما يخالف الكتاب والسنة، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

ومازلت أقدام الناس قديماً وحديثاً إلا بسبب هذا الداء إذا وجد في القلوب مسلكاً. وغالباً ما يتحرك هذا الداء في القلوب بسبب ما ينعم الله - عز وجل - به على عبدٍ من عباده، من علمٍ غزير، أو إقبالٍ على الطاعة كبير، أو فصاحةٍ وبيانٍ مثير، أو يُعرف بأنه خطيبٌ أو شاعرٌ نحريرٌ، أو أن يهبه الله قوةً في الجسد أو هبةً وجمالاً أو أخلاقاً فاضلة. فبدل من أن يكون الناظر شاكرًا لله طالبًا من فضله، إذا به يغلي صدره كغليان المرجل، متمنياً زوال هذه النعم أو أحدها عن يفوقه فيها. ولقد كان أول كيد بين بني البشر بسبب هذا الداء العضال - نسأل الله - عز وجل - أن ينقذنا منه وهو ما حدث بين قابيل وهابيل. قال - تعالى -: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٧) (١).

قال السُّدِّيُّ (٢): فيما ذكر عن أبي مالك (٣)، وعن أبي

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) السُّدِّيُّ: هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد القرشي. كان يقعد في سدة باب الجامع فسَمِّي بالسدي، صدوق بهم، ورمي بالتشيع، مفسر مشهور من أصحاب ابن عباس، توفي سنة ٧٢١ هـ (تهذيب التهذيب ١/ ٢٧٣) (العبر ١/ ١٢٧).

(٣) أبو مالك: هو غزوان أبو مالك الغفاري الكوفي، مشهور بكنيته، روى عن عمار وابن عباس، ثقة من الثالثة. (تهذيب التهذيب ٨/ ٢٢٠) (تقريب التهذيب ٤٤٢).

صالح^(١)، وعن ابن عباس^(٢)، وعن مرة^(٣)، وعن ابن مسعود^(٤)، وعن ناسٍ من أصحاب النبي ﷺ: أنه كان لا يولد لآدم مولود إلاّ ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذه البطن جارية البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: هايل وقايل، وكان قايل صاحب زرع، وكان هايل صاحب زرع، وكان قايل أكبرهما، وكانت له أخت أحسن من أخت هايل، وإنّ هايل طلب أن ينكح أخت قايل، فأبى عليه، وقال: هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك وأنا أحقُّ أن أتزوج بها، فأمره أبوه أن يزوجه هايل فأبى وإنما قرّباً قرباناً إلى الله - عز وجل - أيّهما أحقُّ بالجارية، وكان آدم - عليه السلام - قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها. قال له الله - عز وجل -: «هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض؟ قال: اللهم لا. قال: إن لي بيتاً في مكة، فأتاه فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة. فأبت، وقال كذلك للأرض. فأبت. وقال مثله للجبال. فأبت. فقال لقايل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك. فلما انطلق آدم قرّباً

(١) أبو صالح: ميزان البصري، مقبول، من الثالثة، وهو مشهور بكنيته. (التقريب ص ٥٥٥)، رقم (٧٠٣٦).

(٢) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، ابن عم الرسول ﷺ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم في القرآن، فكان يسمّى البحر؛ لسعة علمه. قال ابن عمر: «لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشه متاً أحد. مات سنة ثمان وستين بالطائف. وهو أحد المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة. (الإصابة ٦/١٣٠).

(٣) مرة: هو كعب بن مرة، ويقال مرة بن كعب السلمي، صحابي، سكن البصرة، ثم الأردن مات سنة بضع وخمسين. (تهذيب التهذيب ٨/٣٩٥)، (تقريب التهذيب ٤٦٢ رقم ٥٦٠٥٠).

(٤) ابن مسعود: عبدالله بن مسعود، صحابي جليل مشهور، حدّث عن النبي ﷺ بالكثير. (الإصابة ٦/٢١٤) رقم ٤٩٤٥.

قرباناً، وكان قابيل يفخر عليه، فقال: أنا أحقُّ بها منك؛ هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصيُّ والدي. فلمَّا قرَّباً قرَّب هابيل جذعةً سمينَةً، وقرَّب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلَةً عظيمة، ففركها وأكلها. فنزلت النار، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين»^(١).

إن هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له، كما تقدم نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة والطيبة والوداعة، وتوقفهما وجهًا لوجه، كلُّ منهما يتصرَّف وفق طبيعته وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشرُّ، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير، ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكفُّ النموذج الشرِّير المعتدي عن الاعتداء، وتخوِّفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها - على الرغم من ذلك - وجد الجزاء العادل المكافئ للفعلة المنكرة.

كما تصون النموذج الطيب الخيِّر وتحفظ دمه، فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش وأن تصان، وأن تأمن، في ظلَّ شريعة عادلة رادعة.^(٢)

(١) انظر: تفسير جامع البيان، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مكتبة دار الباز (٥٣٠/٤)، وتفسير القرآن العظيم (٦٧/٢). والحديث ضعيف من أجل السدي وأبي صالح.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٨٧٥/٢)، الطبعة التاسعة، دار الشروق.

ج - أساليب الكيد

للكيد أساليبه المتعددة بحسب موقف الكائد قوة أو ضعفًا وإمكانياته تبعًا لظروف الزمان والمكان، أو بحسب نوعية الناس. فتارةً يكون الكيد بالبيان أو القصة، وتارةً أخرى يكون بالأعمال السحرية، وثالثة يكون بالوقعة بين من يراد الكيد بهم، ورابعة يكون بالضرب والتعذيب والإيذاء، أو القتل والإخراج.

والأعداء قديمًا وحديثًا يدرسون البيئة والمجتمع الذي يريدون أن يكيدوا له، ونقاط الضعف التي يمكن الدخول من خلالها، ثم يقومون بعد ذلك بالكيد.

فالمجتمعات التي تعاني من المجاعات يُكاد لها بحجة الإحسان إليها، وتعليم أبنائها حتى يوقعوها في الكفر والإلحاد، والمجتمعات المثقفة يدخلون إليها بحجة التطوير في مناهج التعليم والبحث العلمي، والارتقاء بالإنسان ليفكر ويبحث بعقلية متجردة، ثم يدسُّ في تلك الأبحاث ما ينقض عرى العقيدة عُرْوَةً عُرْوَةً.

أمَّا المجتمعات التي عندها الفهم الصحيح: فإنهم إن لم يستطيعوا الوصول إليها بالوسائل السلمية أوقدوا نيران الحرب الفكرية والعسكرية بينها وفرّقوا صفوفها؛ حتى يهلك بعضها بعضًا، ثم يقومون بعد ذلك بالتدخل بحجة الإصلاح بينها. وتظلُّ أسباب ودوافع الكيد قديمًا هي نفسها حديثًا، وإن تغيّرت أساليبها وصورُها، وسوف نلقي الضوء سريعًا على هذه الأساليب:

١ - أسلوب الترغيب :

النفس البشرية إذا كانت تحمل مبادئ أرضية، وتعامل الخصم معها بأسلوب الترغيب والترهيب فإنها غالبًا ما تستجيب لذلك. وكم سقطت نفوس أمام مغريات الحياة، من مال ونساء وشهرة، وكم سقطت نفوس أخرى أمام ترهيب الأعداء. لكن أصحاب المبدأ الحق وأهل التوحيد - إذا خالط الإيمان شغاف قلوبهم فإنه لا يمكن لأي قوة مهما كانت أن تثنيهم عن تلك المبادئ العليا. وقدوة أهل الإيمان في ذلك نبيهم محمد ﷺ عندما عرضت عليه قريش جميع الإغراءات التي تتوق إليها نفوس البشر، من مُلْكٍ ومال ونساء. لكن هذه المغريات لم تكن في ميزان الرسول ﷺ وأصحابه تعدل فضيلة من الفضائل التي يدعون الناس إليها.

قال ابن إسحاق^(١): حدثني يزيد بن زياد^(٢)، عن محمد بن كعب القرظي^(٣)، قال: حَدَّثْتُ أَنْ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ^(٤) - وَكَانَ سَيِّدًا -

(١) ابن إسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار المظلي بالولاء، إمام المغازي، وهو صدوق يدلُّس، ورمي بالتشيع والقدر، من صغار الطبقة الخامسة، مات سنة خمسين ومائة. تقريب التهذيب (٤٦٧) رقم ٦٧٢٥.

(٢) يزيد بن زياد، ويقال ابن أبي زياد المدني - مولى عبدالله بن عباس -، بن أبي ربيعة المخزومي. قال النسائي: ثقة. تهذيب التهذيب (٢٨٧/١١) رقم ٥٢٩.

(٣) محمد بن كعب بن أسد، أبو حمزة القرظي، المدني، ثقة عالم من الطبقة الثالثة، ولد سنة أربعين على الصحيح، قال البخاري: إن أباه كان ممن لم يثبت من سبي قريظة، مات سنة ١٢٠، وقيل: قبل ذلك. التقريب ص ٥٠٤ رقم ٦٢٥٧.

(٤) عتبة بن ربيعة بن عبدشمس، أبو الوليد، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، كان موصوفًا بالرأي والحلم والفضل خطيبًا نافذًا، نشأ يتيماً في حجر حرب بن أمية، وهو أول من عرف عنه توسطه في حرب الفجار - بين هوازن وكنانة -، وقد رضي الفريقان بحكمه. لم يسُدَّ من قريش مملق إلا عتبة وأبو طالب؛ فإنهما سادا بغير مال، شهد مع المشركين بدرًا فقتله حمزة وعليُّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث. الأعلام (٤/٢٠٠). =

قال يوماً وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش: ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيّها شاء ويكف عنّا؟ - وذلك حين أسلم حمزة^(١) - رضي الله عنه - ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون - فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي: فإنك منّا حيث قد علمت من السطة^(٢) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسقّيت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت بما مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض إليك أموراً تنظر فيها؛ لعلك تقبل بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثاً تراه^(٣) لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة - ورسول الله ﷺ يستمع منه - قال: «أفرغت

والحديث فيه رجل مجهول العين.

(١) حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشي الهاشمي، أبوعمارة، عم الرسول ﷺ وأخوه من الرضاعة؛ أرضعتها ثوية مولاة أبي لهب. ولد قبل الرسول ﷺ بستين، لازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه، شهد بدرًا وأبلى بلاءً حسناً واستشهد بأحد. الإصابة (٢/٢٨٦) رقم ١١٠٢.

(٢) السطة: المتزلة الرفيعة المهيبة. انظر: لسان العرب (١٤/٣٨٤).

(٣) ريثاً: أي سحرًا. لسان العرب (١٤/٣٠٣). والرئى ما يراه الإنسان من الجن ونحوه - فيما تزعم العرب -.

يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني» قال: أفعل. فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونا ﴿٥﴾﴾»^(١) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يده خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذلك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت قولاً مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه؛ فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأً عظيماً، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم وعِزُّهُ عِزُّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(٢).

(١) سورة فصلت: الآيات: ١ - ٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي. إحياء التراث العربي (١/٢٩٣، ٢٩٤)، واختار ابن كثير في التفسير (٤/٩٣) هذا السياق على غيره مما ورد في هذه القصة.

٢ - أسلوب المساومة :

لم يفلح أهل الكفر في صدّ النبي ﷺ عن دعوته بطريق الترغيب فجاؤا بوسيلة أخرى، وهي مساومته على ما يدعو إليه، وقد أورد ابن جرير الطبري^(١) روايات تفيد بأن قريشاً عرضت على الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم عامًا ويعبدون ربّه عامًا.

قال ابن جرير: حدّثني يعقوب^(٢)، قال: ثنا ابن عُلَيَّةَ^(٣)، عن محمد بن إسحاق^(٤)، قال: ثني سعيد بن مينا^(٥) مولى البخري، قال: «لقي الوليد بن المغيرة^(٦)، والعاص بن وائل^(٧)، والأسود بن

(١) ابن جرير الطبري: هو أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري المؤرخ المفسر، ولد في أمل طبرستان، وهو من ثقات المؤرخين. قال ابن الأثير: هو أبو جعفر، أوثق من نقل التاريخ. الأعلام (٦/٦٩).

(٢) يعقوب بن إبراهيم بن كثير بن أفلح العبدي، مولاهم، ثقة من العاشرة. التقريب (٦٠٧).

(٣) ابن عُلَيَّةَ: إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي، مولاهم، أبوبشر البصري المعروف بابن عُلَيَّةَ. قال أحمد: إليه المنتهى في التثبت. قال يحيى بن معين: كان ثقة. تهذيب التهذيب (١/٢٤١).

(٤) تقدّمت ترجمته ص ٣٨.

(٥) سعيد بن مينا البخري ابن أبي ذياب الحجازي، يكنى أبا الوليد، ثقة من الطبقة الثالثة. التقريب (٢٤١) رقم ٢٤٠٣.

(٦) الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس. من قضاء العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. قال ابن الأثير: «وهو الذي جمع قريشاً» وقال: «إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً ممّا تقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه «ساحر»؛ لأنه يفرّق بين المرء وأخيه، والزوج وزوجته. هلك بعد الهجرة بثلاث أشهر، ودفن بالحجون، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد. الأعلام (٨/١٢٢).

(٧) العاص بن وائل بن هاشم السهمي، من قريش أحد الحكام في الجاهلية، يعد من الزنادقة الذين ماتوا كفاراً، كان يتنزه في أحد شعاب مكة، فلما وضع قدمه صاح، فطافوا ولم يروا شيئاً، وانتفخت قدمه حتى صارت مثل عتق البعير، ومات، فقالوا: لدغته الأرض. الأعلام (٣/٢٤٧).

المطلب^(١)، وأمّية بن خلف^(٢) رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد: هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرًا ممّا بأيدينا كنّا قد أشركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يدك قد أشركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۚ﴾^{(٣)(٤)}.

- (١) الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي بن كلاب بن مرة، من ذوي الأسنان في قومهم. سيرة ابن هشام (١/٢٨٣، ٣٨٨).
- (٢) أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجمحي، من ذوي الأسنان في قومهم، وقتل يوم بدر كافرًا، سنة ٢ من الهجرة. سيرة ابن هشام (١/٣٣٩، ٣٨٨)، والعبر (١/٥).
- (٣) سورة الكافرون، الآيات: ١ - ٦.
- (٤) تفسير جامع البيان (١٢/٧٢٨)، إسناده حسن، لكنه مرسل، وروى ابن أبي حاتم نحوه من حديث ابن عباس، ولكنه ضعيف - كما قال الحافظ في الفتح (٨/٧٣٣) -.

٣ - أسلوب التحقير والسخرية:

ومن الأساليب التي لها الأثر الكبير في نفوس الضعفاء من الناس وثنيهم عمّا يقومون به: السخرية، لذا لجأت قريش إلى السخرية بالنبي ﷺ وأصحابه في كثير من المواقف، فتارة يقولون عنه مجنون، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١)، وأخرى يصمونّه بأنه ساحر كذاب، قال - تعالى -: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴾ (٢)، إضافة إلى الغمز واللمز به وبأصحابه، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ (٣) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَضٰلُّونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حٰفِظِينَ ﴿٣٨﴾ ... ﴿ (٣) .

(١) سورة الحجر، الآية ٦ .

(٢) سورة ص، الآية ٤ .

(٣) سورة المطففين، الآيات: ٢٩ - ٣٣ .

٤ - أسلوب إشاعة الشبهات ونشر الدعايات:

الشبهة لها أثرها السيء إذا وقعت في قلب خال من الحق، وربما تمكّنت منه، لذا لم يفت كفار قريش أن ينشروا الشبهات ويشيعوا الدعايات حول النبي ﷺ ومنهجه، فقالوا عن القرآن أساطير وكذب، قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (١). وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَبْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ (٢).

وكانوا يشكّون في رسالته بأنه بشرٌ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٣) وغير ذلك كثير ممّا هو مذكور في ثنايا القرآن يبيّن استخدام هذه الوسيلة لفتّ عَضُدِ الدعوة، وصرف الناس عن النبي ﷺ.

(١) سورة الفرقان، الآية ٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧.

٥ - أسلوب الإيذاء :

النفس البشرية تضعف وتستكين لبعض الأمور إذا وجدت أنها سوف تتعرض للأذى بسببها، لكن أهل الحق يتحملون ما لا يتحمله غيرهم؛ وذلك بسبب الحق الذي يحملونه للناس، وكان القدوة في ذلك نبي الرحمة محمد ﷺ.

كان أمية بن خلف إذا رأى الرسول ﷺ همزه ولمزه، وفيه نزل قول الله - تعالى - : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هَمْزٍ لَمْرَةً ۖ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَّدُهُ ۖ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ ۖ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۖ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۖ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۖ ﴿٦﴾ ... ﴾ الآيات (١).

ومنه ما فعله أبي بن خلف (٢) عندما فتَّ عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ، ووضع سلاً الجزور على ظهره ﷺ، وغير ذلك مما يرد مفصلاً - إن شاء الله تعالى - .

(١) سورة الهمزة، الآيات: ١ - ٦، والهمزة الذي يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم، وهو مثل الغيبة يكون بالشدق والعين والرأس، والهمَّاز والهمزة الذي يهمز أخاه في قفاه من خلفه، واللَّمز في الاستقبال. لسان العرب (٤٢٦/٥).

(٢) أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، قتله رسول الله ﷺ يوم أحد، سيرة ابن هشام (٣٨٧/١)، و(٨٩/٣).

٦ - أسلوب المقاطعة:

لَمَّا رَأَتْ قَرِيْشٌ تَتَابِعُ إِسْلَامَ أَهْلِ مَكَّةِ سَيِّمًا أَهْلَ الشُّكِيْمَةِ مِنْهُمْ مِثْلَ حَمْزَةَ وَعَمْرٍ، وَتَوَاتَقَ بَنِي الْمَطْلَبِ وَبَنِي هَاشِمٍ مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ عَلَى حِمَايَةِ مُحَمَّدٍ اجْتَمَعَتْ قَرِيْشٌ فِي «خَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ»^(١) مِنْ وَادِي الْمَحْصَبِ فَتَحَالَفُوا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمَطْلَبِ أَنْ لَا يَنَاقِحُوهُمْ، وَلَا يَبَايَعُوهُمْ، وَلَا يَجَالِسُوهُمْ، وَلَا يَخَالِطُوهُمْ، وَلَا يَدْخُلُوا بَيْتَهُمْ، وَلَا يَكْلِمُوهُمْ حَتَّى يَسْلَمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِلْقَتْلِ.

قال ابن القيم: يقال كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم^(٢)، ويقال: النضر بن الحارث^(٣)، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم^(٤)، فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ يده^(٥).

وتبع هذه المقاطعة حرب اقتصادية ضدهم: فلا يباع لهم ولا يبتاع منهم، بل وصل الأمر بأهل الشرك أن لا يدعوا طعامًا أو غيره يدخل مكة إلا ويرفعون أسعاره، فلا يقدر المسلمون على الشراء، فبلغ الأمر بأهل الإيمان من شدة الجوع أن أكلوا الجلود وأوراق الشجر، وكان لا يصل إليهم شيء إلا ما كان يدخل عليهم سرًا ولا

(١) خيف بني كنانة، هو المحصب، وهو بطحاء مكة. وقال الحازمي: «خيف بني كنانة يميني، نزله رسول الله ﷺ. معجم البلدان (٤١٢/٢).

(٢) منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبدمناف عبدالدار بن قصي، كاتب الصحيفة، فشلت يده - فيما يزعمون - . سيرة ابن هشام (١٦/٢)، الروض الآنف (٣/٣٤٠).

(٣) النضر بن الحارث بن كلدة، وفي الروض الآنف (٣/٣١٦)، وقال في نسبه كلدة بن علقمة، وغيره من النُّسَابِ، يقول علقمة بن كلدة، كان من أسرى بدر، قتله علي بن أبي طالب بالصفراء. سيرة ابن هشام (٣١٥/١)، والبداية والنهاية (٣/٣٤٠).

(٤) بغيض بن عامر بن هشام بن عبدمناف بن عبدالدار، ذكر الزبير أنه هو الذي كتب الصحيفة - في أحد القولين - خلفًا لابن إسحاق، والزيبريون أعلم بأنساب قومهم. الروض الآنف (٣/٣٥٤).

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين، أبي عبدالله، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي. مؤسسة الرسالة (٤٦/٢).

يفي بحاجتهم. وكانت هذه الوسيلة من أشد ما حدث للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ضرره وصل إلى نساءهم وأبنائهم حتى أنه كان يسمع صوت الصبيان في الليل يتضاغون من الجوع^(١).

والإنسان قد يتحمّل ما يحدث له، لكن إذا تعدّى الضرر إلى نساءه وأولاده ربّما يتراجع عمّا يدعو إليه، لكن ثقة النبي ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم - بنصر الله - عز وجل - جعلتهم يبذلون الغالي والنفيس في سبيل إيصال هذا الدين إلى الناس أجمعين باذلين في سبيله أنفسهم وأموالهم وأهليهم، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء.

(١) انظر: صحيح البخاري، باب (نزول النبي ﷺ بمكة) (٢١٦/١)، وباب (تقاسم المشركين على النبي ﷺ) (٥٤٨/١)، ويتضاغون: يصيحون ويكون. النهاية (٩٢/٣).

٧ - أسلوب السجن :

الإنسان لا يحبُّ أن تحبس حرّيته وتقيّد حرّكته، لذا فإن السجن صعب على نفوس كثير من الناس، حتى وإن كان السبب هو إعلاء دين الله والدُّؤدَ عنه، وقد كان ضمن ما تأمرت قريش على النبي ﷺ أن يسجنوه، قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ...﴾ الآية (١). أي: يقيّدوك ويحبسوك. وكان الهدف من ذلك أن لا تسري دعوته في الناس. قال قائل منهم: «احبسوه في وثاق، ثم تربّصوا به ريب المنون» (٢) حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير (٣) والنابغة (٤)؛ إنما هو كأحدهم». لكن إبليس حضر مجلسهم وبيّن أنّ هذه الوسيلة ليست ناجحة في التخلّص منه؛ لأنه ربما خرج فظهر أمره بعد ذلك، فصرفهم عن هذه الوسيلة - كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - .

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٢) المّتون: حوادث الدهر. لسان العرب (٤١٦/١٣).

(٣) زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني - من مضر -، حكيم الشعراء في الجاهلية، ولد في بلاد (مزينة) بنواحي المدينة، كان ينظم القصيدة في شهر، ويتقحها ويهذبها في سنة، فكانت تسمّى بالحواليّات. الأعلام (٥٢/٣).

(٤) زياد بن معاوية بن ضباب الذيباني الغطفاني المضري، شاعر جاهلي من أهل الحجاز كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده العرب فتعرض عليه أشعارها، وكان أحسن الناس ديباجة. الأعلام (٥٤/٣).

٨ - أسلوب الإخراج:

فراق الأهل وترك الأوطان - أيضًا - له أثره الكبير على الناس؛ فالناس مرتبطون نفسيًا ووجدانيًا واجتماعيًا بمرايع الصبا ومنشأ الطفولة بين الأهل والخِلاَّن في بلادهم وأوطانهم، ومن ثمَّ كان الإبعاد عن الأوطان والبلاد والأهل والخِلاَّن له وقعه وآثاره على نفوس من يبعدون عن أوطانهم، وقد أدرك الأعداء قديمًا وحديثًا خطر هذا السلاح وأثره في استعماله ضد المسلمين، ومن ثمَّ كان أمر الإبعاد لا يفارق مُخَيَّلة أعداء المسلمين وهم يخططون للنيل من الإسلام وأهله، كأسلوب من أساليبهم التي يحاربون بها دعوة الله - عز وجل - .

وقد واجه الرسول ﷺ وأصحابه الإبعاد عن بلدتهم مكة، وقد أوضح الرسول ﷺ ذلك حين قال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك لما خرجت»^(١).

لذلك لم يفت قريشًا هذه الوسيلة عند اجتماعهم في دار الندوة، حيث قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه؛ فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه

(١) أهمية الارتباط بين الإنسان وبين منشئه الأول في بلده وأهله. ومعلوم أن التغريب أحد الوسائل التي يراها بعض الفقهاء لردع الزاني البكر؛ وذلك لأن البعد عن الأهل والأوطان، والاعتراب عنهم وما فيها من أهوال وأحوال من شأنها أن تقلب أو تغير كثيرًا من الصفات عند كثير من الناس إلَّا أهل الإيمان؛ فالغربة لا تزيدهم إلا قوة وثباتًا وصبرًا. وفي الغربة البعد عن الأهل والأوطان تظهر سجايا هؤلاء المؤمنين ومبادئهم وقيمهم، وهذا ما شهد به التاريخ ونطق به لسان الزمان والمكان، لسان صدق وشاهد عدل على ما كان من المسلمين المهاجرين الذين أبعدوا عن ديارهم وليس لهم من ذنب إلا أن يقولوا ربُّنا الله. والحديث رواه الترمذي - وغيره - (٣٩٢١)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

واسترحتم منه وكان أمره في غيركم^(١)، لكن إبليس - أعاذنا الله منه - ثناهم عن هذه الوسيلة، وأراد وسيلةً تطفىء النور الذي يحمله بالكلية.

(١) سوف نورد هذه الحوادث في كيد المشركين - إن شاء الله -، وليس هذا مكان التفصيل فيها.

٩ - أسلوب القتل :

لم يجد أهل الشرك وسيلةً لإطفاء نور التوحيد الذي سرى في قلوب كثير من أهلهم غير وسيلة القتل، لذا عندما رأوا فشلهم في مواجهة النبي ﷺ بكل حيلة ووسيلة لم يكن أمامهم غير أمر واحد، هو قتل النبي ﷺ وإراحة الناس منه - كما يزعمون -، ولقد راودت فكرة قتله ﷺ كثيرًا من أعدائه، فأبوجهل^(١) حاول أن يرمي على رأسه ﷺ حجرًا فلم يمكنه الله من ذلك، وجموع قريش قرّرت أن ترصد له عددًا من الفتيان عند بابه ليقتلوه فيضيع دمه، ولكن الله حفظه ورعاه، وحاولوا قتله حين رجع من غزوة تبوك، حيث اختفى له في الطريق عدد من المنافقين حتى إذا مرّ من عندهم خرجوا عليه وأثاروا بعيه ليسقط من عليه فيموت.

واليهودية في خيبر أطعمته شاة مسمومة، فردّ الله كيدها، واليهود كادوا أن يسقطوا على رأسه الرّحى، فنزل الوحي يفضحهم ويحذّر النبي ﷺ منهم. وتظلّ عناية الله - عز وجل - تحرس نبيه^(٢) من كيدهم وشروهم. فعن عائشة^(٣) - رضي الله عنها - قالت: كان النبي ﷺ يحرس ليلاً حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «يا أيّها

(١) أبوجهل: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، أشدّ الناس عداوةً للنبي ﷺ وأحد سادات قريش ودّهاتها في الجاهلية. كان يُدعى أبا الحكم، فدعاه المسلمون أباجهل. الأعلام (٨٧/٥).

(٢) سوف نورد هذه الحوادث في ثنايا البحث - إن شاء الله -.

(٣) عائشة بنت الصديق وزوج النبي ﷺ. قال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بفقّه ولا بطبِّ ولا بشعر من عائشة. قال أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه: ما أشكل علينا أمر فنسأل عنه عائشة إلّا وجدنا عندها فيه علمًا. كانت أحبّ نساء النبي ﷺ إليه، ونزل عليه الوحي وهو في لحافها. الإصابة (٤٢/١٣).

الناس انصرفوا؛ فقد عصمني الله»^(١).

إن للكيد آثارًا متعددة تمتد فتشمل أهله قبل أن تشمل الذين كيدَ بهم، وستناول فيما يلي آثار الكيد على أهله أنفسهم قبل أن نتناول آثار ذلك على المؤمنين.

(١) رواه الترمذي (٣٠٤٩)، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي: حديث غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٤٦/٣).

د - آثار الكيد

لا شك أنه عندما تتغلب الأهواء على عقول كثير من البشر فإنها لا تستطيع أن تتصرف بهدي من عقولها، بل تطيش الشهوات على عقولهم فتزداد عليها الظلمة، ثم بعد ذلك يكون تصرفها تصرف من فقد عقله فلا يعي، وتصرف من صغر سنه فلا يميز.

والشهوات وإن تعددت في صورها فإنها لا تخرج عن ثلاثة أمور:

- ١ - شهوة الجاه والمنصب.
- ٢ - شهوة المال والمتاع.
- ٣ - شهوة النساء والأولاد.

لذلك فإنه ما كيد بالرسول وأتباعهم إلا بسبب هذه الشهوات، فأصحابها يدافعون عنها بكل ما أوتوا من قوة، ولو كان فيما يخالفها الخير لهم وللبشرية جمعاء، وهم يقومون بالمواجهة ظناً منهم بأنهم يصلحون وبزعم أن ما يحاربونه من طهر وفضيلة هو الفساد الذي يجب أن يقضى عليه. قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢).

وللكيد آثاره على أهله، وعلى من كيد بهم، وسوف نفصل ذلك فيما يلي:

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١، ١٢.

أولاً: آثار الكيد على أهله:

لاشك أن للكيد آثاره السلبية على أهله في نهاية المطاف، وإن كان لا يسلم أهل الإيمان من بلائه، وكم كان رجال ذوي عقول راجحة، بسبب كفرهم سفهت عقولهم وسجل عليها التاريخ مالا يرتضي أن يقوله أقل الناس عقلاً، وسوف نقف على شيء من تلك الآثار على سبيل الإيجاز:

١ - تسفيه عقولهم: عندما صادمت قريش الفطرة وكابرت عن قبول دعوة التوحيد، ورأت أن دين الله يعلو ويقبل عليه الناس أصبحوا يتكلمون بكلام يدل على سفاهتهم وخفة عقولهم، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَاهْبِطْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(١).

قال ابن كثير^(٢): وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، وقال هؤلاء: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَاهْبِطْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٣). قال شعبة^(٣)، عن

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٢.

(٢) ابن كثير: هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، ولد في قرية من أعمال بصرى بالشام ورحل في طلب العلم وله تصانيف كثيرة، منها: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، واختصار علوم الحديث. الأعلام (١/٣٢٠). وطبقات المفسرين (١/٥٥) للداودي.

(٣) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، مولاهم، أبو سظام الواسطي ثم البصري، ثقة حافظ متقن كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث وهو أول من فتن بالعراق عن الرجال وذبح عن الثنّة، وكان عابداً، من السابعة، مات سنة ١٦٠هـ. تقريب التهذيب ص ٢٦٦ وتهذيب التهذيب (٤/١٠٣)، رجال صحيح البخاري للكلاّباضي (١/٣٥٤) برقم

عبد الحميد صاحب الزيادي^(١)، عن أنس بن مالك^(٢)، قال: قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابِ الْيَمْرِ﴾^(٣)، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٤).

فسدت فطرتهم بسبب كبريائهم وغرورهم الكاذبة فأخذتهم العزة بالإثم، فبدل أن يدعو بالهداية إن كان ذلك حقاً إذا بهم يستعجلون العذاب، وذلك يدلُّ على سفه عقولهم ورداءة تفكيرهم.

٢ - ضياع أموالهم:

لقد أنفق أهل الكفر كثيراً من أموالهم بغية الثيل من الإسلام وأهله، ولكن عاقبة ذلك كانت الخسارة والحسرة والندامة، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٥) فبعد أن أخزى الله أعداءه يوم بدر^(٥) أجمعت قريش على حرب النبي ﷺ، بل إن العير التي كانت مع أبي

(١) عبد الحميد بن دينار، هو ابن كرديد، وقيل ابن واصل البصري، صاحب الزيادي، ثقة من الرابعة. تهذيب التهذيب (١٠٣/٦)، التقريب ٣٣٣ برقم ٣٧٥٩، رجال صحيح البخاري، للكلابادي (٤٨٢/٢) برقم ٧٣٤.

(٢) أنس بن مالك بن النضر، أبو حمزة، الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ وأحد المكثرين من الرواية عنه. أتت به أمه أم سليم إلى النبي ﷺ لما قدم فقالت له: هذا أنس، غلام يخدمك، فقبله، ودعا له الرسول ﷺ بقوله: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه». مات سنة ٩٣هـ وله ١٠٣ سنة، وقيل ١٠١ سنة، وقيل ١٠٧ سنة. الإصابة (١١٣/١) برقم ٢٧٥.

(٣) صحيح البخاري (٧٨/٦).

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

(٥) بَدْر: بالفتح ثم السكون، وهو ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجاري (وهو ساحل البحر). معجم البلدان (٢٥٧/١).

سفيان^(١) من الشام جعل ما عليها من تجارة رصيذاً مالياً لتعدُّ به العُدَّةُ لحرب النبي ﷺ، ومع إنفاقهم تلك الأموال إلا أن النتيجة كانت انهزامهم وضياع أموالهم، والحسرة في الدنيا ويوم القيامة. قال ابن كثير: «أخبر - تعالى - أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحق، فيسفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرةٌ أي ندامة حيث لا تُجَدُّ شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾... ﴿٨﴾ وناصر دينه ومعلي كلمته ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فالى الخزي الأبدى والعذاب السرمدي^(٢). وهكذا شأن كل من كفر بالله وأعرض عن دينه وحارب شرعه ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٣).

٣ - هلاك أنفسهم:

إن أعداء الله ينظرون للأمر نظرةً ماديَّةً بحتة، فقوم نوح وعاد وشمود وغيرهم من الأمم السابقة كانت رسلم تدعوهم لعبادة الله

(١) أبوسفيان: هو صخر بن حرب بن أمية بن عيشم بن عبدمناف، صحابيٌّ من سادات قريش في الجاهلية، وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية، كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره. قاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق. أسلم يوم فتح مكة (سنة ٨هـ)، وأبلى بعد إسلامه بلاءً حسناً، شهد حُبَيْنًا والطائف ففقت عينه يوم الطائف، ثم فقت الأخرى يوم اليرموك فعمي، وكان من الشجعان الأبطال. قال المسيب: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت يقول: يا نصر الله اقترب. قال: فنظرت فإذا هو أبوسفيان تحت راية ابنه يزيد. لمَّا توفِّي رسول الله ﷺ كان أبوسفيان عامله على نجران ثم أتى الشام وتوفِّي بالشام، وقيل بالمدينة. الإصابة (١٢٧/٥).

الإعلام (٢٠١/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٨٣/٢).

(٣) سورة فاطر، الآية ٤٣.

وحده، وكان جواب أكثر أقوامهم الاستهزاء والتكذيب والمكابرة، فكانت نهايتهم الهلاك، إمّا بالطوفان كما حدث لقوم نوح، وإمّا بالغرق كما حدث لفرعون، وإمّا بريح صرصر عاتية كما حدث لعاد، وإمّا بقلب الأرض عليهم كما حدث لقوم لوط، قال - تعالى -: ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤١). وهكذا كانت نهاية كثير من الأمم السابقة عندما كذبت بالرسول.

ورغم أن القرآن قصَّ على أهل الكفر ذلك وبيَّنه لهم إلا أنهم لم يعتبروا، بل تعتتوا وتكبروا وأصرُّوا، قال الله - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ (٤٢). فكان عاقبة كثير من كبراء قريش القتل يوم بدر، وكان كذلك عاقبة اليهود الذين نقضوا العهد القتل - أيضًا -، ولم تنفعهم المكائد التي أفنوا أعمارهم في نسجها ضدَّ أهل الإيمان.

وإذا تأملنا مقالة أبي جهل حين خروجه من مكة لقتال المسلمين ببدر «والله لا نرجع حتى نصل بدرًا ونقيم عليها ثلاثًا ننحر الجزر ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان» (٣)، فسمع بنا العرب ومسيرنا فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا (٤)، ندرك مدى ما وصل إليه هذا الكافر من الغطرسة والخِيلاء والإصرار على محاربة الحق وأهله.

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٠.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٣.

(٣) القيان: جمع قينة، وهي الأمة، معنيَّة كانت أو غير معنيَّة. مختار الصحاح ص ٤٩٢.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٧٠).

ثانيًا: آثار الكيد على المؤمنين:

١ - الأثر النفسي:

لقد عانى النبي ﷺ وأصحابه - وسبقه في ذلك الأنبياء من قبل - معاناة كبيرة من أقوامهم ويدلُّ على ذلك قول الله - عز وجل -: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾^(١). ومنها - أيضًا - ما كان يقوله لعائشة - رضي الله عنها - عندما سألته هل كان يوم أشدُّ عليك من يوم أحد؟ قال: «لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت يوم العقبة»^(٢).

هذه المعاناة النفسية تنهك قوى الإنسان، لكنها إذا صادفت قلب المؤمن فإنها وإن أخرته أحيانًا فإنه ما يلبث أن يتذكر أن ما عند الله خير وأبقى فتهون عليه الدنيا بأسرها، وقد ذكر القرآن مواقف من كيد الكافرين كان لها أثرها النفسي على المؤمنين لكنهم تجاوزوها بقوة إيمانهم، وتوكلهم على ربهم وتولي الله - عز وجل - لهم.

قال - تعالى -: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾^(٣).

هذه الآيات تصور أثر الكيد على نفوس أهل الإيمان عندما تمالاً عليهم أهل الكفر من كل مكان، لكن الله - عز وجل - بعد هذا

(١) سورة فاطر، الآية ٨.

(٢) سيرد مفصلاً - إن شاء الله - في كيد المشركين للرسول ﷺ.

(٣) سورة الأحزاب، الآيات ٩ - ١١.

الجهد والعناء - أنزل نصره وأعز عباده - وكان لهم - مع الخوف والتعب والنصب - الأجر الكبير من الله لكي يتميَّز صفهم ويزدادوا يقيناً وتضحيةً وصدقاً.

قال ابن كثير: وكان سبب قدوم الأحزاب من أشرف اليهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر^(١)، منهم سلام بن أبي الحقيق^(٢) وسلام بن مشكم^(٣) وكنانة بن الربيع^(٤) خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشرف قريش وألبوهم على حرب الرسول ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم وقائدهم أبوسفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن محصن بن بدر^(٥) والجميع قريب من عشرة آلاف^(٦). في محاولة خاسرة منهم لوأد الإسلام وضرب أهله، وتعاونت جموع الكفر والنفاق واليهود، وكل أعداء الدين قرَّروا قرارهم وأجمعوا أمرهم للقضاء على الإسلام وأهله، فحاصرت تلك الجموع المسلمين في موقعة الأحزاب وكانت شدة أحاطت

- (١) خيبر: الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ، وهي ناحية على ثمانية براد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية وتشمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير وأسماء حصونها: حصن ناعم، وعنده قتل مسعود بن سلمة، ألقيت عليه رحى، والقموص حصن أبي الحقيق، وحصن النظاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيع، وحصن الكتيبة، وأما لفظ خيبر بلسان اليهود الحصن. معجم البلدان (٤٠٩/٢).
- (٢) سلام بن أبي الحقيق: من بني النضير، أحد الذين حرَّبوها الأحزاب من اليهود. قتله رهط من الخزرج بإذن الرسول ﷺ. سيرة ابن هشام (٣١٣/٣).
- (٣) سلام بن مشكم: كان من أحبار اليهود الذين نصبوا العداوة للرسول ﷺ وكان من بني النضير. وكانت امرأته زينب أهدت للرسول ﷺ بخيبر الشاة المسمومة. سيرة ابن هشام (١٣٦/٢)، (٣٨٩/٣)، (٣٩٠).
- (٤) كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق: كان من أشرف بني النضير الذين ساروا إلى خيبر. وقتل في خيبر، قتله محمد بن مسلمة بأخيه محمود بن مسلمة. سيرة ابن هشام (٣٨٩/٣).
- (٥) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، أبو مالك، له صحة، وكان من المؤلفة. الإصابة (١٩٥/٧) رقم ١٦٤٦.
- (٦) تفسير ابن كثير (٧٤٩/٣).

بالمسلمين وعصفت بالنفوس حتى بلغت الحناجر. وظنت تلك الجموع أن أملها في القضاء على الإسلام قد أصبح قاب قوسين أو أدنى، ولكن الله تدارك المؤمنين بلطفه وأعانهم بعونه من حيث لم يحتسبوا وأرسل على أعدائهم الريح، فقلبت القدور، وهدمت الخيام، وألقي الرُّعب في قلوبهم، فتخلَّوا عن حصار المسلمين مذعورين يجرُّون أذيال الخيبة والخسران، وأعزَّ الله دينه، وحفظ نبيه، ونصر جنده ولم ولن يدرك الكفار سرَّ نصر الله وعونه لأهل دينه، والله - تبارك وتعالى - قضت حكمته أن يعطي للبشر حظَّهم في الأخذ بالأسباب فإذا ما توقَّف شأن أسباب البشر وفزع المؤمنون إلى ربهم يستغيثون به كان غوثه سريعًا. وذلك درس لا بدَّ أن يعيه المسلمون وهم يواجهون أعداء دينهم؛ لأنه لا بدَّ لهم من الأخذ بالأسباب، وبعد هذا الأخذ يكون انتظار العون من الله، فقد كان إرسال الريح آخر شيء في غزوة الأحزاب وسبقها إعداد الصفوف والبحث فيما يدفع شر هؤلاء من حفر خندق وغيره، ورصد حركة العدو والاطمئنان على النساء والضعفة وغير ذلك، فالحمد لله الذي نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وكان ما أنفقه أبوسفیان واليهود والمنافقون من أموالهم حسارةً عليهم ونصرًا وغنيمةً للمسلمين، مصداقًا لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(١).

٢ - الأثر الجسدي:

إن أهل الكفر إذا عجزوا أمام أهل الحجة والبرهان لجأوا إلى التعذيب الجسدي، وهذا ما فعله الكفار مع المؤمنين ليشنوهم عن

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٦.

دينهم .

ولقد أدركت قريش منذ اللحظة الأولى أن الإسلام يصادم رغباتهم وشهواتهم وسلطانهم فنكلوا بكل من استطاعوا الوصول إليه .

فبلال يوضع عاري الجسد على رمال مكة في شدة الظهيرة، ثم توضع على صدره الصخرة العظيمة التي تكاد تشتعل من حرارة الشمس .

وآل ياسر تمزق السياط ظهورهم وأطرافهم، بل يتعدى الأمر أن تقطع أعضائهم بالحرايب .

وأبوبكر الصديق - رغم مكانته بين قريش - يُضرب حتى يصبح خده مثل أنفه من شدة الضرب .

ورسول الله ﷺ تدمى قدمه تارة، وتكسر ربايعيته ويشج رأسه تارة أخرى^(١) .

ومع ذلك كله كان لسان حاله هو والمؤمنين يقول: «اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»^(٢) . وبالإضافة إلى هذا كله نرى الأعداء يكيدون به وبأصحابه وتسقط أجساد المؤمنين قتلى في سبيل الله، في عدة معارك - في بدر وأحد، وغيرهما - ويقتل في بئر معونة^(٣) سبعون من القراء من أصحاب النبي ﷺ ونزل القرآن يثبت

(١) انظر: كيد المشركين بالرسول ﷺ .

(٢) قال ابن مسعود: «كأنني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار الرِّيَّان (٦/٥٩٣).

(٣) بئر معونة: بفتح الميم وضم العين وواو ساكنة ونون بعدها هاء. وهي بين أرض عامر وحره بني سليم. معجم البلدان (٥/١٥٩).

قلوب المؤمنين ويجلو أحزانهم ويبث فيهم الحماس لنيل إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة. قال - تعالى - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١). وعن أبي هريرة (٢) - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة» (٣).

٣ - الأثر الاقتصادي:

المال وسيلة من وسائل الحياة، وهو ضروري لتسيير كثير من الأمور، لذا نجد القرآن يشيد في أول سورة البقرة - بعد الإيمان وإقامة الصلاة - بالمنفقين، وليس معقولاً أن ينفق من لا مال له، بل ربّما يكون هو نفسه عالماً على غيره.

خرج أهل الإيمان من مكة وقد تركوا كل شيء: دورهم وأنعامهم وأموالهم، وذهبوا إلى دار هجرتهم ليس معهم إلا النزر اليسير، حتى إن قريشاً كانت تتابع بعض أصحاب النبي ﷺ فلا تدعهم حتى يدلوهم على أماكن أموالهم في مكة. خرج المهاجرون إلى المدينة، وقاسمتهم الأنصار الدّور والأزواج، ومع ذلك كان

(١) سورة آل عمران ١٦٩.

(٢) أبوهريرة: هو الصحابي الجليل الحافظ. اختلف في اسمه على أقوال، أرجحها: عبدالرحمن بن صخر، أبوهريرة الدوسي اليماني. وأمه هي ميمونة بنت صبيح - رضي الله عنه - قال الشافعي: أبوهريرة أحفظ من روى الحديث في دهره. سير أعلام النبلاء (٥٧٨/٢).

(٣) رواه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ ﴾ (٤٤١/١٣) رقم ٧٤٥٧، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٤٩٦/٣)، واللفظ للبخاري.

البعض منهم يأبى إلا أن يتكسب بنفسه^(١)، وظلَّ المسلمون يعانون اقتصاديًا معاناةً بالغةً بسبب كيد قريش، حتى إن جيش العسرة - رغم بذل الصحابة الكرام - لم يجد النبي ﷺ ما يحمل عليه بعض المؤمنين للقتال، ولا شك في أن هذا العامل كان له الأثر على دعوة الرسول ﷺ في تأخير الفتوحات، وقد واجه المسلمون بسبب ذلك شدة بالغة حتى إنهم ربطوا الحجارة على بطونهم، وخاضوا البحار وساروا في القفار مبلغين دين الله حتى وصل الأمر بالجندي المسلم في ذلك العصر أن لا يجد عند قيادته في اليوم إلا تمرّة، بل قد وصل الأمر بهم إلى أكل ورق الشجر. ولئن أدرك كفار قريش أهمية العامل الاقتصادي واستغلاله بوصفه سلاحًا للتضييق على الدعوة وصاحبها وكتم أنفاسها بالكلية فإن الكفار في كل زمان ومكان لا يغفلون عن هذا الجانب، بل يجعلونه في مقدمة الأولويات التي يعطونها اهتمامهم البالغ، وكانت قرش تظنُّ بل توقن أن عملها هذا في ضرب اقتصاد المسلمين ومنع سبل الكسب عنهم سيضيِّق الخناق عليهم، فيضعف صوتهم وتكسر شوكتهم فلا يستطيعون القيام بمهمة القيادة والدعوة، ولم تكن قريش تظن أن ما بين المسلمين من أخوة ونُصرةٍ سيسمو فوق اعتبارات اللون والدم والبلد والقبيلة، فتقوم أخوة بين المسلمين في المدينة لم يشهد التاريخ لها مثيلًا، فيناصف الأنصاري من المسلمين أخاه المهاجر في الأموال والدور والزوجات^(٢)، وبفضل الله - تبارك وتعالى - فقد يسر بهذه الأخوة

(١) قدم عبدالرحمن بن عوف المدينة، فأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، وكان سعدٌ ذا غنى، فقال لعبدالرحمن: أقاسمك مالي نصفين وأزوّجك، قال: بارك الله لك في أهلِكَ ومالك، دُلّوني على السوق، فما رجعت حتى استفضل إقطاً وسمناً، فأتى به أهل منزله. فتح الباري، في البيوع (٣٣٧/٤) رقم ٢٠٤٩.

(٢) حيث يقوم الأنصاري بتطويق إحدى زوجاته، ثم يتزوَّجها المهاجري.

قيام كيان اقتصادي للمسلمين استطاع فيما بعد أن يقضي على كيانات اليهود والمنافقين ويطردها خارج المدينة. فله دَرُّهُمْ، صبروا وصابروا وربطوا مع قلة إمكاناتهم المادية، فكانت النتيجة أن الله فتح على أيديهم بلاد فارس والروم، وتبدلت أحوالهم فأغناهم الله ومكَّنهم ونصرهم.

٤ - الأثر الإعلامي :

قد تتراجع قبائل وجماعات وأفراد عن مبادئ واعتقادات وأخلاق إذا تصدَّى لها الإعلام فأظهرها بغير المظهر اللائق بها وأشاع عنها ما يبعد الناس عنها.

ونلاحظ في حرب التشويه التي مارستها قريش ضد شخص الرسول ﷺ ووصفه بالأوصاف التي عرضها القرآن (الكذب - الكهانة - الشعر - السحر) نلاحظ أن القرآن من خلال نصوصه لم يأمر الرسول ﷺ بالدفاع عن نفسه ودفع هذه الشبه، وهي شبه كاذبة لا أساس لها، ولكن القرآن دافع عن النبي ﷺ. فما هو المغزى من ذلك؟ هل الدعاية الكاذبة من معسكر الكفر ضد الدعاة وأهل الدعوة هي من ضريبة هذه الدعوة؟ وهل على الدعاة أن لا يشغلوا أنفسهم بالدفاع عن أنفسهم، بل عليهم أن يمضوا في طريق الدعوة إلى الله، والزمان سيحفل بإظهار الحقائق وإن تأخرت وإبطال الأباطيل وإن تكاثرت؛ لأن المهم هو استمرار الدعوة وقوة زحفها، أما الأشخاص فالله يدافع عن الذين آمنوا، والله - تعالى - كتب الغلبة له ولرسله كما كتب - سبحانه - الذلة والهوان على من حادَّ الله ورسله، وهذا ما أكدته الأيام وأظهرته الحقائق التي انهزم أمام نورها أصحاب الكذب وأرباب التشويه؟ فالحمد لله على ذلك كثيرًا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولقد عمل أهل الكفر على هدم دعوة الأنبياء بكل وسيلة إعلامية ممكنة، فما من نبيٍّ إلا وأشاع قومه عنه أنه ساحر، أو مجنون. فإذا سمع الناس بذلك تحاشت ملاقاتهم، وخافت على أنفسهم منهم. ولقد لعبت قريش دورًا إعلاميًا كبيرًا في صدّ الناس عن سماع الحق الذي جاء به النبي ﷺ، وما زالوا يخوفون الناس من سماع ما يقول، فيعمد الرجل - إذا أراد الطواف بالبيت - إلى سدّ أذنيه حتى لا يسمع من النبي ﷺ شيئًا. بل لقد كان عمّه أبولهب يتبعه في منى أيام الحج فكان كلما وقف على قوم يدعوهم إلى الله قام عمه بعد ذلك يحذّر الناس منه، ممّا جعل الناس لا يقبلون على دعوته في ذلك الحين.

قال ابن إسحاق: «وحدثني حسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس^(١) قال: سمعت ربيعة بن عباد^(٢) يحدثه أبي، قال: إني لغلام شابٌّ مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان: إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدّقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به» قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غدירתان^(٣)، عليه حُلّة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان: إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفائكم من الجن من بني مالك بن

(١) حسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس بن عبدالمطلب الهاشمي، المدني، ضعيف، من الخامسة، مات سنة أربعين أو بعدها بسنة. التقريب ص ١٦٧، رقم ١٣٢٦.

(٢) ربيعة بن عباد، وكان جاهليًا فأسلم. ذكره ابن حجر في الصحابة. توفي في خلافة الوليد. الإصابة (٣/٢٦٦).

(٣) الغديرة: الدُّوابة من الشعر. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٣٤٥).

أقيش^(١)، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوا ولا تسمعوا منه. قال: فقلت لأبي: يا أبت: من هذا الذي يتبعه ويردُّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمُّه عبدالعزى بن عبدالمطلب، أبولهب^(٢).

(١) إلى هذا الحي من الجن تنسب الإبل الأقيشية، وهي غير عتاق تنفر من كل شيء. وقال ثعلب: هم قوم من العرب. لسان العرب (٦/٢٦٤).
 (٢) سيرة ابن هشام (٢/٦٥).

الفصل الأول «حديث القرآن عن الكيد»

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات الواردة في ذلك وتصنيفها تصنيفاً موضوعياً.

المبحث الثاني: دراسة تلك الآيات دراسة موضوعية ودراسة آراء المفسرين.

المبحث الثالث: أساليب القرآن في حديثه عن الكيد.

المبحث الأول

الآيات الواردة في الكيد وما يقاربه
وتصنيفها تصنيفاً موضوعياً

أ: الآيات التي ورد فيها لفظ الكيد
وما تصرف منه

يلاحظ الباحث حين قراءة الآيات التي وردت عن الكيد أن هذه الآيات أكثرها في سورة المكية، ونسبة السور المدنية التي وردت فيها آيات تتحدث عن الكيد قليلة بالنسبة للسور المكية. وكان حديث القرآن عن الكيد في السور المكية على النحو التالي:

١ - قال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (١).

٢ - قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٢).

٣ - قال - تعالى - : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣).

٤ - قال - تعالى - : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَ يَبْنَئِي لَكَ نَقِصَصٌ رُبَّكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٤).

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) سورة هود: الآيات: ٥٠ - ٥٥.

(٤) سورة يوسف: الآيات ٤، ٥.

٥ - قال - تعالى - : ﴿ وَرَوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقْتَ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيْسَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا

رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ (١) .
٦ - قال - تعالى - : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ... (٢) .

٧ - قال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُورَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتَنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ (٣) .

٨ - قال - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا

(١) سورة يوسف، الآيات: ٢٣ - ٢٨ .

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) سورة يوسف، الآيات: ٥٠ ، ٥٢ .

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَفَقَدْ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ
 حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي
 الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا
 جَزَاؤُهُ مَنْ أُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَدَأَ
 بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا
 لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
 مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨١﴾ (١).

٩ - قال - تعالى - : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾
 فَلَمَّا أَيْتَنَكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
 مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى
 فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ (٢).

١٠ - قال - تعالى - : ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦١﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ
 الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنَ الْقَىٰ ﴿٦٣﴾ قَالَ
 بَلِ الْقَوَىٰ فَإِذَا جَاهَلْتُمْ وَعَصَيْتُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٦٤﴾ فَأَوْجَسَ فِي
 نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٥﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٦﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
 تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٧﴾ فَالْقَى السَّحْرَةَ
 سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٦٨﴾ (٣).

١١ - قال - تعالى - : ﴿ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
 عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٥٢﴾
 قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي
 ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلِ رَبُّكُمْ رَبُّ
 بَابِلَ وَمِصْرَ وَأَمَمَةَ الْأَعْلَىٰ إِنَّ إِلَهًا لَّهُمَّ أَحَدٌ كَدُّوا بَعْدَهُ عَلِيمٌ مُّذْ بَدَأَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾) (٤).

(١) سورة يوسف، الآيات : ٦٩ - ٧٦.

(٢) سورة طه، الآيات : ٥٧ - ٦٠.

(٣) سورة طه، الآيات : ٦٣ - ٧٠.

لَسَّمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ
أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا
يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ
وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا
آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا نَبَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿١﴾

١٢ - قال - تعالى - : ﴿ سَلِّمْ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِتٍ مِنْ
شَيْعِنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا
تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ
نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا
إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
ابْنُوا لَنَا بُيُوتًا فَالْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴿٢﴾

١٣ - وقال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٢٣﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿١٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ - ٧٠.

(٢) سورة سورة الصافات، الآيات: ٧٩ - ٩٨.

بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ (١).

١٤ - قال - تعالى - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِءَ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴿٢٥﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا
فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢٦﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٢٧﴾ أَمْ
يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ أَمْ
خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا
يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مَبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ
كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى
يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ (٢).

١٥ - قال - تعالى - : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْبِرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِلِغَةِ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا
بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلُّهُ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ
سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ (٣).

١٦ - قال - تعالى - ؛ ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

(١) سورة غافر، الآيات: ٢٣ - ٢٥.

(٢) سورة الطور: الآيات: ٣٠ - ٤٦.

(٣) سورة القلم، الآيات: ٣٥ - ٤٥.

- فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيَلْزَمُوا يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ ﴿٤٠﴾ . . . ﴿١﴾ .
- ١٧ - قال - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴿١٤﴾ إِيَّاهُمْ يَكِيدُونَ كِيدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كِيدًا ﴿١٦﴾ فَمَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنِمْهُمْ رُودًا ﴿١٧﴾ . ﴿٢﴾ .
- ١٨ - قال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ . ﴿٣﴾ .

أما الآيات المدنية فهي كالتالي :

١ - قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءُ لِمُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ نَسُّوهُمْ وَإِن تُصِيبِكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّا اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ . ﴿٤﴾ .

٢ - قال - تعالى - : ﴿ فَمَن قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُم لَّا تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٣٨ - ٤٠ .

(٢) سورة الطارق، الآيات: ١٣ - ١٧ .

(٣) سورة الفيل . ١ - ٥ .

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨ - ١٢٠ .

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ (١).

٣ - قال - تعالى - : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

٤ - قال - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكُمْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكُمْ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣).

(١) سورة النساء، الآيات: ٧٤ - ٧٦.

(٢) سورة الأنفال، الآيات: ١٧، ١٨.

(٣) سورة الحج، الآيات: ١١ - ١٥.

**ب: الآيات التي ورد فيها لفظ مكر
وما تصرف منه**

لفظة مكر: تأتي بمعنى (كاد)، لذا سوف نورد الآيات التي ورد فيها. والذي نلاحظه حين قراءة الآيات التي ورد الحديث فيها عن المكر أن هذه الآيات أكثرها في السور المكية. ونسبة السور المدنية التي ورد فيها آيات تتحدث عن المكر قليلة جدًا بالنسبة للسور المكية، وهذا موافق لما جاء في الحديث عن الكيد في القرآن الكريم، إذ أن الكيد ورد في السور المكية - أيضًا - أكثر بكثير منه في السور المدنية.

وقد كان حديث القرآن عن المكر في السور المكية على النحو التالي:

١ - قال - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ (١).

٢ - وقال - تعالى -: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ (٢).

٣ - وقال - تعالى -: ﴿ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ﴾ (١٢٥) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٨﴾ (٣).

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٩٦ - ٩٩.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٠ - ١٢٣.

٤ - وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَهَاتَتْ كُلَّ وِجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ (١)

٥ - وقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ (٢) ، ويختتم الله - تعالى - قصة يوسف وإخوته وأبيهم فيقول : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ (٣)

٦ - وقال - تعالى - : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاصِبِينَ يَوْمَ بَأْسِهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَنَسِجَ الرُّسُلِ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ (٤)

٧ - وقال - تعالى - : ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٩٩ - ١٠١.

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٢.

(٤) سورة إبراهيم، الآيات: ٤٤ - ٤٦.

مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ (١)

٨ - وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ (٢)

٩ - وقال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبَقِ مَمَائِمِكُمْ ﴾ ﴿١٢٧﴾ (٣)

١٠ - وقال - تعالى - : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٤٧﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهُبُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ (٤)

١١ - وقال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ

(١) سورة النحل، الآيات: ٢٢ - ٢٦ .

(٢) سورة النحل، الآيات: ٤٣ - ٤٥ .

(٣) سورة النحل، الآيات: ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٤) سورة النحل، الآيات: ٤٥ - ٥١ .

فَرِثٍ وَدَمْرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرُدُّ إِلَى أَرْضِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ (١)

١٢ - وقال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿٧٠﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٧٢﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ (٢)

١٣ - وقال - تعالى - : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٧٥﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣)

١٤ - وقال - تعالى - : ﴿ وَيَنْقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٧٧﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٧٨﴾ لَاجِرًا أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧٩﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ ﴾ (٤)

(١) سورة النحل، الآيات: ٦٦ - ٧٠.

(٢) سورة فاطر، الآيات: ٧ - ١٠.

(٣) سورة فاطر، الآيات: ٤٢، ٤٣.

بصيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ
سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ (١).

١٥ - وقال - تعالى - : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَنْدُرُكَ الْهَيْتَكَ وَلَا نَنْدُرُكَ وَدَا وَلَا سَوَاعَا
وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ (٢).

أما السور المدنية فهي كالآتي :

١ - قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾
﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا
أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا
وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ (٣).

٢ - وقال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٠﴾ (٤).

٣ - وقال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ
كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ
قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٢﴾ أَفَمَن
هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا
يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهْرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ

(١) سورة غافر، الآيات : ٤١ - ٤٥ .

(٢) سورة نوح، الآيات : ٢١ - ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران، الآيات : ٥١ - ٥٤ .

(٤) سورة الأنفال، الآية ٣٠ .

السَّيْلُ وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ (١)
 ٤ - وقال - تعالى - : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾
 وَإِنْ مَا نُزِينَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيْنَاكَ فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا
 الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ
 لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ
 جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ (٢)

(١) سورة الرعد، الآيات: ٣١ - ٣٣.

(٢) سورة الرعد، الآيات: ٣٩ - ٤٢.

**ج: الآيات التي ورد فيها لفظ (خدع)
وما تصرف منه**

لم ترد هذه اللفظة إلا في السور المدنية فقط:

١ - قال - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

٢ - وقال - تعالى - : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٢٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ؕ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلنَّ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٢)

٣ - وقال - تعالى - : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يُخَدِّعُواكَ فَإِن حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨ - ١٠ .

(٢) سورة النساء، الآيات: ١٣٨ - ١٤٣ .

(٣) سورة الأنفال، الآيات: ٦١ - ٦٢ .

د: الآيات التي ورد فيها لفظ (خان)
وما تصرف منه

أمَّا الآيات التي ورد فيها لفظ الخيانة وما تفرع منه في السور
المكية فهي كالتالي:

١ - قال - تعالى - : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١).

٢ - وقال - تعالى - : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢).

وأمَّا الآيات التي ورد فيها لفظ الخيانة في السور المدنية فهي
كالتالي:

١ - قال - تعالى - : ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بِشُرُوهنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (٣).

٢ - وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٥٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٤).

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ١٨-١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٤) سورة النساء، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

- ٣ - وقال - تعالى - : ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).
- ٤ - وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْثَلَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣).
- ٥ - وقال - تعالى - : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٤).
- ٦ - وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفُوكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦).
- ٧ - وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٧).
- ٨ - وقال - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ ثَوْجٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (٨).

(١) سورة المائدة، الآية ١٣ .

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٢٧، ٢٨ .

(٣) سورة الأنفال، الآية ٥٨ .

(٤) سورة الأنفال، الآيتان: ٧٠، ٧١ .

(٥) سورة الحج، الآية ٣٨ .

(٦) سورة التحريم، الآية ١٠ .

المبحث الثاني

دراسة لبعض هذه الآيات
دراسة موضوعية تفسيرية

والذي نلاحظه في هذه الآيات أن لفظ الكيد في السور المكية والمدنية - سواء فيما يتصل بحديث القرآن عن الأمم السابقة مع أنبيائها أو فيما يتصل بمن كاد بالنبي ﷺ من جميع الطوائف يشعر بتجدد المواجهة والمدافعة بين كيد الأشرار في جميع الأزمنة والأمصار، وهذا يشعر بأن الكيد سوف يكون حاضرًا ومستقبلًا مثلما كان سابقًا بين أهل الحق وأهل الباطل إلى قيام الساعة وإن اختلفت الأساليب والصور عن الكيد الماضي، فالهدف منه هو النيل من أهل التوحيد، ومحاولة إطفاء النور الذي يريدون أن يوصلوه إلى الناس. ومما تجدر ملاحظته أن القرآن الكريم قد عرض لكيد الكافرين بصور مختلفة وقد بيّنًا النصوص فيما مضى من الآيات. والقرآن الكريم حين يعرض هذا الحشد من الآيات التي تبين كيد الكافرين فإنه ينبه الأمة إلى هذا الكيد، وأنه كيد شديد وكبير وخطير، وأنه كيد بالسر والجهر يتواصل بالليل والنهار لا يفتر ولا يتوقف، وهو كيد ومكر تزول من شدته الجبال.

وإن المتأمل في ذلك يشعر أن القرآن يوجه الأمة الإسلامية وأتباعها إلى خطورة أعدائها ولؤمهم وقوة كيدهم وشدة مكرهم، فلا ينبغي للأمة أن تنام وتركن إلى الخمول والدعة والاتكال فتزعم أن الله يدفع عنها الكيد وهي لم تأخذ بالأسباب ولم تبذل الجهد في الأخذ بها كما فعل رسولها ﷺ في هجرته، فقد كانت تصله أخبار الكائدين، ولم يكن غافلاً عنها، وكان يتحرك في دائرة الأخذ بالأسباب ما وسعه ذلك، والنتيجة يملكها الله - تبارك وتعالى - قد تكفل بكيد الكائدين ومكر الماكرين من أعداء الدين في صور متنوعة وأساليب مختلفة ولكن متى يكون ذلك؟ والجواب: أن الله يكيد بأعداء المؤمنين ويمكر بهم بعد أن يكون المؤمنون قد أدوا

واجبهم في العمل والحركة والتوكل والأخذ بالأسباب غير مفرطين فيها، وقصة معركة بدر ونتائجها وقصة غزوة الأحزاب ونتائجها تشيران إلى هذا المقصد وتدلان عليه، فالأعداء في كل مكان وزمان تختلف أساليبهم وتختلف طرائقهم ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا... ﴾^(١). وعلى الأمة ألا تنتظر من أعدائها هذا، ولكن محور القضية هو حركة الأمة الإسلامية واستجابتها لداعي الله لتكون أهلاً لأن يدفع الله عنها كيد الكائدين ويبطل مكر الماكرين ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢)

وسوف نعرض بعض الآيات التي تكلمت في هذا الجانب ليتبين لنا الأمر بشيء من التفصيل في النقاط التالية:

أولاً: حديث القرآن عن كيد الشيطان بالمؤمنين:

قال - تعالى -: ﴿ فَفَقَنِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾^(٣). هذه الآيات بينت العدو الأول للبشرية، وبينت ضعف الكيد الذي يقوم به هو وأولياؤه من شياطين الإنس والجن؛ لأن العرب قديماً كانت إذا نزلت بواد من الأودية تخوفت من الجن واستعاذوا بعظيم ذلك الوادي من الجن، فلما نزل القرآن على النبي ﷺ بين للمسلمين سبب تجرؤ الجن على الإنس، وأخبر عن حقيقتهم، وأنهم لا يعجزون الله - عز وجل - شيئاً.

قال - تعالى -: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٢١.

(٣) سورة النساء، الآية ٧٦.

رَهَقًا ﴿٦﴾^(١). وقال - تعالى - : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ ﴿١٢﴾^(٢). إنَّ أول كيد وقع على البشرية هو ما وقع على أبيها آدم - عليه السلام - ، ووقع ذلك الكيد نتيجة الحسد الذميم الذي وقع في نفس إبليس - أعاذنا الله منه - عندما أسجد الله الملائكة لآدم - عليه السلام - ، فعصى إبليس ربه وأبى أي يسجد واستكف ، فكان من المبعدين . قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٣٤﴾^(٣) . ثم بعد ذلك تمكن من الكيد بآدم حتى عصى آدم أمر ربه ، فكانت النتيجة الخروج من الجنة . قال - تعالى - :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾^(٤) .

فمضت العداوة من ذلك الحين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لكن الله - عز وجل - عندما أنزل على أمة الإسلام القرآن بين البيان الشافي لهذه الأمة أحابيل إبليس ، وبين عداوته للبشرية وبين ما ينبغي أن يتخذ ضده . قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿٦﴾^(٥) .

ولقد بين الله - سبحانه وتعالى - أمر الشيطان في استدراج الإنسان إلى العصيان وحذر هذه الأمة من أن تقع في خطوة من خطواته أو نزغة من نزغاته ؛ لأنه لن يدع ابن آدم حتى يوقعه في

(١) سورة الجن ، الآية ٦ .

(٢) سورة الجن ، الآية ١٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٣٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآيات : ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) سورة فاطر ، الآية ٦ .

الهلكة نعوذ بالله منه. قال - تعالى - : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١).

وممّا يجدر ملاحظته أن الباحث في الأمر يلحظ من خلال النصوص القرآنية والنبوية وأحداث السيرة أن للشيطان كيدين حسياً ومعنوياً ولعل ذلك يدفعنا للحديث عنهما:

أ - كيد الشيطان الحسي :

لقد كان للشيطان حظه في كيده بالنبي ﷺ كيداً حسياً من بداية اجتماع قريش في دار الندوة^(٢) للتخلص من النبي ﷺ مروراً بغزوة بدر في شد أزر المشركين^(٣) في حربهم للنبي ﷺ، بل تعدى الأمر إلى أن عرض له في محرابه شعلة من نار^(٤) فردّ الله كيده في نحره.

ب - كيد الشيطان المعنوي :

للشيطان كيده الحسي بالبشرية كما تقدم سواء ما كان في الأشياء الظاهرة مثل الأبدان والأموال والأعراض والأشياء المحسوسة. إما تجسّد فيه على هيئة البشر أو ما كان من معاونته للسحرة وأهل التنجيم. أو ما كان منه في إعانة العائن في التّيل ممن تقع عينه عليهم بإيقاد شعلة الحسد في قلوبهم حتى تصيب المحسود.

لكن كيده الملازم لكل فرد من أفراد البشرية ولا ينفك عن أحد منها هو الأشد؛ لأن السحر والعين، وتمثل الشيطان على هيئة البشر لمعاونته أولياءه أو إيذاء أعدائه وقوعه في القليل من أفراد البشرية، لكن القرين - الذي هو ملازم لكل فرد على وجه الأرض -

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٢) سوف يأتي ذلك مفصلاً في كيد الشيطان - إن شاء الله -.

(٣) سوف يأتي ذلك مفصلاً في كيد المشركين - إن شاء الله -.

(٤) سوف يأتي ذلك مفصلاً في كيد الشيطان - إن شاء الله -.

خطورته أشد وضرره على البشرية أبلغ. لذا نجد القرآن في معالجته لهذا الأمر أتى في التَعَوُّذ من الأمر الأول فقط بصيغة الربوبية. قال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ (١).

لكن لما كان الأمر الثاني خطره أعمُّ وأشملُ أتى في التَعَوُّذ منه بصيغة الربوبية والألوهية، وذلك كله دليل على خطر كيد إبليس المعنوي. قال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ (٢). قال الفخر الرازي (٣) في تفسيره: «واعلم أن في هذه السورة لطيفة أخرى، وهي: أن المستعاذ به في السورة الأولى المذكورة بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي: الغاسق، والنفثات، والحاسد، وأمّا في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضوعين أن الثناء يجب أن يُقَدَّرَ بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين. وهذا تنبيه على أن مضرّة الدين وإن قلت أعظم من مضرّة الدنيا وإن عظمت. والله

(١) سورة الفلق.

(٢) سورة الناس.

(٣) محمد بن عمر بن الحسين بن علي، فخرالدين، أبو عبدالله القرشي من ذرية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، مفسر مشهور، له مصنفات عدّة، ولد سنة (٥٤٤هـ)، وتوفي سنة (٦٠٦هـ). طبقات المفسرين (٢/٥٥٠).

- سبحانه وتعالى - أعلم^(١).

ومع تحذير الله - عز وجل - من الشيطان وحبائله في كثير من الآيات التي قد توهم من لم ينظر للموضوع من جميع جوانبه أنه لا يمكن التغلب فيه ولا الانفلات من مكائده، إلا أن الله - عز وجل - بين لأهل القرآن أن كيد الشيطان ضعيف، لكن لا يكون إلا مع من كان القرآن الكريم هو النور الذي يسير به في كل ناحية من نواحي الحياة. قال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا ءَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾^(٢) قال ابن عاشور^(٣) : «والمراد بكيد الشيطان: تدبيره، وهو ما يظهر على أنصاره من الكيد للمسلمين والتدبير لتأليب الناس عليهم، وأكد الجملة بمؤكدتين (إن)، و(كان) الزائدة الدالة على تقرر وصف الضعف لكيد الشيطان^(٤). وقال أبو السعود^(٥) : في قوله - تعالى - : ﴿ فَقاتِلُوا ءَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾^(٦) لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها، وذكرهم بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم في سبيل الشيطان، والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله - تعالى - لِمَ أن قتالهم في سبيله. وكل ذلك تأكيد رغبة المؤمنين

- (١) التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، للإمام فخرالدين، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي. دار الكتب العلمية (١٨٢/٣٢).
- (٢) سورة النساء، الآية ٧٦.
- (٣) محمد بن الطاهر عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامعة الزيتونة، له مصنفات، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية)، و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(التحرير والتنوير). الإعلام (١٧٤/٦).
- (٤) تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٢٤/٥)، الدار التونسية للنشر، تونس.
- (٥) محمد بن محمد بن مصطفى، العماد الحنفي المولود سنة (٨٩٣هـ)، من بيت عُرِفَ أهله بالفضل والعلم، تولَّى التدريس في كثير من المدارس التركية، ثم قُلِّد القضاء، ثم تولَّى الفتوى. توفي بمدينة القسطنطينية في أوائل جمادى الأولى، سنة (٩٨٢هـ). التفسير والمفسرون (٣٤٧/١).

في القتال وتقوية عزائمهم عليه؛ فإن ولاية الله - تعالى - علم في العزة والقوة، كما أن ولاية الشيطان مثل في الذلة والضعف، كأنه يقول: إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان، ثم صرَّح في التقليل فقليل: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦) أي في حد ذاته، فكيف بالقياس إلى قدرة الله - تعالى -؟ ولم يتعرض لبيان قوة جنابه - تعالى - إيداناً بظهورها^(١).

والذي يلاحظه المتأمل في هذه الآية أن الأمر جاء بالمقاتلة وليس بالقتل لأولياء الشيطان وليس للشيطان نفسه؛ لأن خطورة الشيطان فيما يزيئه للناس ويوسوس به إليهم من الشر وفيما يضلهم بضلاله، فيستولي عليهم بأحاييله، فيصبحوا جنوداً له وأولياء يدافعون عن شره وضلاله وكفره يستमितون في ذلك كأنما يدافعون عن حق لا مزية فيه. هؤلاء الأتباع والأولياء للشيطان هم خطر على الإسلام في كل زمان ومكان، ومنهم من يقوِّي جانب الشيطان ومن خلالهم تنتشر أفكاره وتتسع دائرة أتباعه ويحارب الإسلام وأهله حرباً لا هوادة فيها في ميداني المحسوسات والمعنويات، فتعبير القرآن بالأولياء بدل الأتباع والخدّام يشعر بمدى القرب بينهم وبين الشيطان - أعاذنا الله منه -؛ لأن مدار الكلمة (الولي) على القرب، وفيه توجيه للأمة بأن لا تستهين بهؤلاء وأن لا تفتقر عن صدّهم ورصدهم وأن تبذل كل جهد يستلزمه ويستوعبه اللفظ القرآني (قاتلوا)؛ فهؤلاء الأولياء هم حزب الشيطان، وفي النهاية ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ (١٩)، ولن تكون العاقبة إلا للمؤمنين. ومعلوم أن آيات القرآن الكريم تأمر المسلمين باللجوء إلى الله لدفع شرّ

(١) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) لأبي السعود (٥٥٠/١)، دار الفكر.

الشیطان، سواء كان ذلك وسوسة أو إيذاء بمختلف صورته، وقد أشار ابن كثير في تفسيره أن «شیطان الجن؛ فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعدت بالله والتجأت إليه كفّه عنك وردّ كيده»^(١). وما ذكره ابن كثير يتوافق مع نصوص القرآن الواردة. قال - تعالى - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾^(٢). وقال - تعالى - : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾^(٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾^(٣) وقال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(٢٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾^(٤)

فقد ذكر ابن كثير أخذًا من ظواهر هذه النصوص أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه وأنه تنفع فيه بردّ الحيلة بالإحسان، أمّا شيطان الجن فلا حيلة معه؛ لأنه لا يريد إلا هلاك المؤمن وتدميره، فلا خلاص منه إلا بلاستعانة عليه، والاستعاذة بالله من شره.^(٥)

ثانيًا: حديث القرآن الكريم عن كيد السابقين بأنبياءهم:

كيد السابقين بأنبيائهم - كما بينه القرآن الكريم - كثير جدًا، وبسطُ الكلام فيه ليس هذا محله، لكن سوف نشير إشارة خفيفة جدًا

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/١٠١).

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٩٩، ٢٠٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٩٦ - ٩٨.

(٤) سورة فصلت، الآيات: ٣٤ - ٣٦.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢/٤٤٠)، بتصرف.

إلى كيد السابقين بأولي العزم؛ لأنه وقع لهم الكيد ما لم يقع لغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام - . قال - تعالى - : ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) قال الشيخ محمد الشنقيطي: (٢) «وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ خامسهم» (٣).

هؤلاء الخمسة حدث لهم من قومهم من التكذيب والإيذاء والتعنت الشيء الكثير، ومع هذا كله قابلوا ذلك بنفوس قوية لم تستكن، ولم تيأس، ولم تستعجل العذاب لهم.

قال صاحب التحرير: «والعزم: نية محققة على عمل أو قول، دون تردد. قال - تعالى - : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾، ثم قال: والعزم المحمود على ما فيه من تزكية النفوس وصلاح الأمة. وقوامه الصبر على المكروه، وباعثه التقوى، وقوته شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن في محاسبة نفسه». ثم قال: «وأعقب أمره بالصبر، بنهيه عن الاستعجال للمشركين، أي الاستعجال لهم بالعذاب، أي: لا تطلب منّا تعجّله لهم؛ وذلك لأن الاستعجال ينافي العزم؛ لأن في تأخير العذاب تطويلاً لمدة صبرة ﷺ بكسب

(١) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد عام (١٣٢٥هـ) في القطر المسمى شنقيط في دولة موريتانيا، خرج لأداء فريضة الحج، ثم استقر في المسجد النبوي للتدريس. له مؤلفات عديدة، منها: (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز)، و(مذكرة الأصول على روضة الناظر)، و(أدب البحث والمناظرة)، و(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن). توفي - رحمه الله - في ١٧/١٢/١٣٩٣هـ، ودفن بمكة المكرمة. أضواء البيان (٤/١).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (٤٠٨/٧)، المطابع الأهلية.

عزمه وقوته»^(١).

وفي هذه الآية دليل على أن ما لقيه أولو العزم من أقوامهم ليس بالشيء الهين، وأن صبرهم في نفس الوقت كان أكبر مما يوصف، وهذه الخصلة يجب أن يتحلّى بها كل من دعا إلى توحيد الله - عز وجل - واضعاً نصب عينيه أن القدوة في ذلك هو رسول الله ﷺ، فمع صبره وشدة ما يلاقيه من أهل الكفر إلا أن الله - عز وجل - يذكره بصبر أولي العزم قبله من الرسل، فتذكّر وصبر وحظي بهذه المرتبة، ولم يكن هذا نتاج أيام أو شهور، وإنما كان معاناة دامت أكثر من ثلاث عشرة سنة؛ لتكون هذه سنة يسير على ضوئها كل من أراد أن يعمل بعمل الأنبياء - عليهم السلام - . وسأستعرض فيما يلي بعض صور الكيد الذي لقيه هؤلاء الأنبياء من قومهم:

أ - كيد الكافرين بنبي الله نوح - عليه السلام -:

لقد لقي نوح من قومه من العنت والتكذيب والاستهزاء الشيء الكثير، ولبث مع قومه يدعوهم إلى التوحيد، يبشّرههم وينذرهم، وهم مع ذلك يزدادون بُعداً ونفوراً، كان هذا الأمر مع نوح الذي زكاه الله في آيات من كتابه أجمل تزكية، حيث قال الله - تعالى -:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَنَجَّدُوا مِن دُونِي وَكَيلاً ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾^(٢). وقد ورد أن نوحاً - عليه السلام - كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فبهذا سُمّي عبداً شكوراً^(٣). ويقول الله - عز وجل - عنه: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾^(٤) إثم من

(١) التحرير والتنوير (٦٦/٢٦)، بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآياتان: ٢، ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤١/٣).

عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٨٢﴾ (١). قال الطبري: في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٠): إِنَّا كما فعلنا بنوح مجازاً على طاعتنا وصبره على أذى قومه في رضانا» (٢).

ولم يتعرض نوح للأذى إلا عندما دعا قومه للتوحيد، وهكذا فُعلَ بالأنبياء من بعده، وبكل من سار على نهجهم. قال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣)، كان دافع نوح هو الشفقة عليهم، وكان جزاؤه منهم التعتُّ والأذى. قال ابن كثير: «قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبيٌّ من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبيًّا قُتِلَ» (٤).

هكذا كان فعل قوم نوح به - عليه السلام - بسبب ما تنطوي عليه أنفسهم من الفسق والظلم والفساد والطُغيان. قال - تعالى -: ﴿ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥). وقال - تعالى -: ﴿ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ (٦).

قال ابن جرير: «كما حدَّثنا بشر» (٧)، قال: ثنا يزيد» (٨)، قال: ثنا سعيد» (٩).

(١) سورة الصافات، الآيات: ٧٩ - ٨٢.

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن (٤٩٨/١٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٥٧/٢).

(٥) سورة الذاريات، الآية ٤٦.

(٦) سورة النجم، الآية ٥٢.

(٧) بشر بن هلال الصواف، أبو محمد النميري، ثقة، مات سنة (٢٤٧هـ). التقريب ص ١٢٤.

(٨) يزيد: يزيد بن زريع العيشي ويقال التميمي، أبو معاوية البصري، ثقة من الثامنة، أخذ

عن سعيد بن أبي عروبة. توفي سنة (١٨٢هـ). تقريب التهذيب ص ٦٠١ برقم ٧٧١٣.

(٩) سعيد بن أبي عروبة: مهران اليشكري، مولاهم، أبو النضر البصري، ثقة حافظ يدلس،

واختلط، وكان من أثبت الناس في قتادة، مات سنة (١٥٦هـ) وقيل (١٥٧هـ). التقريب

ص ٢٣٩.

عن قتادة^(١)، في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ : لم يكن قبيل من الناس هو أظلم وأطغى من قوم نوح، دعاهم نبي الله نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا، كلما هلك قرن ونشأ قرن دعاهم نبي الله، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يأخذ بيد ابنه فيمشي به فيقول: يا بني إن أبي قد مشى بي إلى هذا، وأنا مثلك يومئذ، متابعا في الضلالة وتكديبا بأمر الله^(٢).

وكان حرص نوح على إيمان قومه كبيرا جدًا، بل لقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يتحمل الاستهزاء والتكذيب والأذى، ويقابلهم في نفس الوقت بالإشفاق والتوجيه والإرشاد والدعوة لتوحيد الله - تعالى -، لكن يزداد الإنسان حزنًا وأسى وإرهاقًا عندما يرى أعز الناس إليه وهو ابنه يتمادى في الكفر، بل الأدهى من ذلك أن يرى خاتمة الأئمة، وهي الهلاك والعذاب في الدنيا قبل الآخرة. قال - تعالى - : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ قال ينوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴿٤٤﴾ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخسرين ﴿٤٧﴾^(٣).

وكما امتحن نوح بابنه فكذلك امتحن بزوجه التي كانت مع قافلة قومه المكذبين، وكان أولى بها أن تكون نصيرةً لزوجها، ولذلك وصفها القرآن بـ(الخيانة) التي هي بمعنى الخيانة الدينية

(١) قتادة بن دعامة بن قنادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، يقال ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومائة. التقريب ص ٤٥٣. وواضح من هذا السند بعد دراسته هذه أنه سند صحيح إلى قتادة.

(٢) تفسير جامع البيان (١١/٥٣٨) رقم ٣٢٦٤٣.

(٣) سورة هود، الآيات: ٤٥ - ٤٧.

بعدم إسلامها وإخبار قومها بمن يؤمن معه^(١).

وكان من خبرها ما قصه القرآن ابتلاءً من الله لهذا النبي الكريم ليصبر الدعوة من بعده على طريق الدعوة حين يتنكر لهم الأبعد والأقارب؛ لأن بعض الدعاء يستعظم أن يتنكر له ابنٌ أو زوجةٌ أو عمٌ أو خالٌ، ولو تبصّر تاريخ أنبياء الله لوجد في صبر نوح - عليه السلام - سلوى وراحة. إذ قصصهم ليست لتلى فقط، وإنما هي للتربية وعبرة وذكرى لأولي الألباب، وقد عرضت سورة نوح أساليب الدعوة التي استخدمها نوح عليه السلام في دعوة قومه. قال - تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِي مَا ذُنِبُوا وَأَصْرُوا ﴿٧﴾ وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴿٢﴾ .

لقد كان نوحٌ مستمرًا في دعوته لم ينقطع عنها، ولم يُلْقِ بالاً لاستهزاء المستهزئين وتكذيب المكذبين، ومع هذا لم يزد هذا الأمر قومه إلا بُعدًا، ولقد حاول دعوتهم أفرادًا وجماعات، سرًا وعلانيةً، وبين لهم نتائج الإيمان وثمار الاستغفار، ثم بعد ذلك أراد أن يحيي في أنفسهم التفكر في آيات الله المخلوقة ثم عطف ذلك بالتفكر في

(١) انظر: أضواء البيان (٨/٣٨١).

(٢) سورة نوح، الآيات: ٥ - ٢٠.

الأنفس، لكن بعد هذا كله لم يستجب إلا القليل من قومه، بل قابلوا نوحًا - عليه السلام - بالمكر. قال - تعالى -: ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كُبَارًا ﴾ (٢٢)، وقال (كُبَارًا) بتشديد الباء، وهو بناءٌ للمبالغة دالٌّ على شدة كيدهم وعظمه وكبر حجمه (١).

قال صاحب التحرير: «والمكر إخفاء العمل أو الرأي الذي يراد به ضررٌ الغير، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضر قيل كانوا يدبّرون الحيلة على قتل وتحريش الناس على أذاه وأذى أتباعه» (٢).

ولكن دائمًا تكون النتائج النهائية لأهل الكيد وخيمة، وعاقبة ذلك عليهم سيئة، بل قد يكون ذلك سببًا في هلاكهم. قال - تعالى -: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (٣).

هذا ما حدث في النهاية لقوم نوح - عليهم السلام - عندما وجد أنهم لن يتراجعوا عن كفرهم وغييهم وعنادهم، بل وصل بهم الأمر إلى إضلال غيرهم ودعوتهم بالتَّمسُّك بعبادة أصنامهم، فكانت نهايتهم العذاب والغرق. قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا (٤)

وهذه النهاية تحذيرٌ لأهل الكفر كي يعودوا عن كفرهم، ويهتدوا بهدي نبيهم محمد ﷺ، لكن سُنَّة الله ماضية أن لا يؤمن إلا بالقلّة، ويكون الهلاك والدمار لأهل الباطل. ولم يكتف الكبراء من

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣٧٥/٥). للقاضي أبي محمد،

عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الكتب العلمية.

(٢) التحرير والتنوير (٢٠٧/٢٩).

(٣) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٤) سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

قوم نوح بالضلال، وإنما ازدادوا طغياناً في حرب الدعوة وتحذير الناس وتنفيرهم من نوح - عليه السلام -، بل أثاروا قومهم في التمسك بعبادة الأصنام ليصرفوهم عن نوح ودعوته. فعندما علم نوح أنه لن يؤمن إلا من آمن دعا عليهم حتى لا يكونوا معاول هدم ودعاة ضلالة للناس، وفي نفس الوقت دعا نوح ربّه بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، وهكذا يكون الولاء والبراء، حباً ودعاءً وإشفاقاً ورحمةً بالمؤمنين وشدةً وغلظةً واستعلاءً على أهل الكفر، ورغبةً ورهبةً لله، وفراراً إليه لطلب المغفرة والرحمة.

ب - كيد الكافرين بنبي الله إبراهيم - عليه السلام - :

من رحمة الله بعباده أنه أرسل رسله تترى تصحح ما اندرس من دعوة التوحيد، وتصحح للبشرية خط سيرها إلى الله، وبعد قوم نوح بزمن وقع الناس في الشرك، وابتعدوا عن منهج الله، فأرسل الله رسله تترى^(١)، ومنهم خليل الله إبراهيم - عليه السلام - .

قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ مِّنْ شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَيْهِ الْهَنِيمَ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴿٢﴾

قال ابن عطية^(٣) : « من شيعته » قال ابن عباس، ومجاهد^(٤)، وقتادة^(٥)، والسدي: الضمير على نوح، والمعنى في

(١) تترى: معناها: تتابع.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٨٣ - ٩٨.

(٣) ابن عطية صاحب التفسير: هو الإمام الحافظ الناقد المجوّد أبو بكر، غالب بن عبدالرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي الغرناطي، المالكي، كان حافظًا للحديث وطرقه، وكان أديبًا شاعرًا لغويًا، كُفَّ بصره في آخر حياته، وتوفي سنة (٥١٨هـ) وله من العمر ٧٧ سنة. سير أعلام النبلاء (١٩/٥٨٦).

(٤) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج، المكي، المقرئ، المفسر، الإمام، مولى السائب بن السائب المخزومي، وقد اختلف ولاته. روى عن ابن عباس وقرأ عليه القرآن ثلاث عرضات، وروى عن عائشة وأم سلمة وأبي هريرة وأم هانئ وجويريرة بنت الحارث وجابر بن عبدالله ورافع بن خديج وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمرو بن العاص، توفي بمكة سنة إحدى أو اثنين أو ثلاث أو أربع ومائة وهو ساجد وله ثلاث وثمانون سنة. طبقات المفسرين (٢/٣٠٥).

(٥) سبقت الترجمة.

الدين والتوحيد». ثم قال: «بقلب سليم» قال المفسرون: يريد من الشرك والشك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغل والحسد والكبر ونحوه». ثم قال عن نظرة إبراهيم - عليه السلام - في النجوم، وروي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه فدعوا إبراهيم - عليه السلام - إلى الخروج معهم فنظر حينئذ واعتذر بالسقم وأراد البقاء خلفهم للأصنام^(١) ليحطمها.

لقد صور القرآن ما كان من إبراهيم ودعوته لقومه والمكافأة التي استحقها إبراهيم - عليه السلام - من قومه بعد ذلك، والأشد من ذلك أن إبراهيم لاقى العنت من أقرب الناس إليه وهو أبوه. قال - تعالى -؛ ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾^(٢)، ولم يكن إبراهيم في دعوته لهم غير حليم، ولا في حجته غير عليم، ولكن العصبية في قلوب قومه لم كانت عليه الآباء عمت عليهم الهدى، وقادتهم إلى مواطن الردى. قال - تعالى -؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٥٤﴾ قَالُوا أَحِثْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ ٥٧﴾^(٣).

هكذا كان الحوار مع هذا النبي الكريم - عليه السلام -، ومع قوم فقدوا عقولهم وعبدوا حجارة لا تضر ولا تنفع، وحججتهم في

(١) المحرر الوجيز (٤/٤٧٨).

(٢) سورة مريم، الآيات: ٤١، ٤٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ - ٥٧.

ذلك أقبح من فعلهم حيث أنهم وجدوا الآباء يفعلون ذلك، ففعلوا مثلهم دون إعمال فكر، ولا نظر، ولا علم صحيح، وبعد ورود الحجج كان الأولى بصاحب العقل أن ينصاع، ولكن دخان الشرك غطى على عقولهم وقلوبهم.

وفي ثنايا هذه الآيات وغيرها تظهر لنا أمور عدة فيما كان بين إبراهيم وقومه من حرصه على هدايتهم، ومن تعنت قومه ونفرتهم عن قبول الحق، وقد وردت في ذلك أخبار عند كثير من أهل التفسير في نظرتة إلى الكواكب ودخوله السرب، قال ابن كثير فيها: «فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقط رخص كثير من السلف في روايته^(١)»

ولقد اتخذ الله - عز وجل - إبراهيم - عليه السلام - خليلاً، وهذه المرتبة لم يصل لها إبراهيم إلا بطيب الخصال، حيث يقول الله - عز وجل -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٢). ويصفه الله - عز وجل - - كما مر سابقاً - بالرشد، وكما كان يتمتع بصفاء النفس وخلوصها من الشرك، لذا لم يستطع أمام ضلال قومه إلا أن يستهزئ بالهتهم ويحقرها لا يخاف في ذلك إلا الله، ولم تطب نفسه حتى حطّمها. كما كان في هذا النبي - عليه السلام - من إكرام الأضياف ما لا حدّ له، حيث يقول الله - عز وجل - عنه: ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩١).

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٥.

أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾. ذهب إلى أهله في حركة سريعة دون مشاورة للأضيف وقدم لهم الطعام مباشرة، وهذا يدلُّ على ما يتمتع به إبراهيم - عليه السلام - من طيب الخلال ومع وجود هذه الصفات الحميدة ومع ما جاء به إبراهيم من حق وبراهين واضحة، إلا أن القوم كذبوه وعادوه.

وابتلي نبي الله نوح - عليه السلام - بابنه، وابتلي نبي الله إبراهيم - عليه السلام - بأبيه، وتظلُّ هذه السنة تتكرر كلما دعا أهل التوحيد إلى دين الله وتبقى هذه الآيات مسلية لكل من أعرض أبوه أو ولده أو الأقارب منه عن دين الله - عز وجل -، وفي نفس الوقت مدافعة عن أهل التوحيد. فيمن تنقصهم بضلال آبائهم أو أبنائهم سيما إذا قاموا بما يجب عليهم من دعوة وتعليم وتهذيب، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يدعو أباه لتوحيد الله ويظهر له البراهين والحجج مراعيًا في ذلك حق الأبوة إلا أن ذلك لم يُجد، ولم تكن هناك إجابة. قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ ﴿٢﴾. قال ابن عطية: «وذكر أن «آزر» أبا إبراهيم كان نجارًا محسنًا ومهندسًا وكان عزوز يتعلق بالهندسة والنجوم، فحظي عند آزر لذلك، وكان على خطة عمل الأصنام فعمل بأمره وتديره ويطلع هو في الصنم بختم معلوم عنده، وحينئذ يعبد ذلك الصنم» ﴿٣﴾. فدعا إبراهيم أباه لعبادة الله - عز وجل - وحده، وكان يستغفر له طمعًا في إيمانه.

قال ابن عطية في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه: «فإن ذلك لم

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٧٤.

(٣) المحرر الوجيز (٢/٣١٠).

يكن عن موعدة». ثم قال: «وقيل عن موعدة من أبيه له في أنه سيؤمن فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحملة على الاستغفار له حتى نهى عنه. فلما علم أنه لن يؤمن تبرأ منه. قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (١) (٢). ولا شك أن النفس السوية إذا بينت لها البراهين تدعن وتسلم، لكن النفوس التي تربت على الباطل تزداد كفرًا وبعداً وكما ابتلي نبي الله إبراهيم - عليه السلام - بصد قومه عن دعوته وتكذيبهم له، فقد ابتلي - أيضاً - بصد نمرود وطغيانه وكفره وعتوه وكثرة جداله، وهنا أراد إبراهيم أن يبين ويدلل على وجود الخالق طمعاً منه في هداية النمرود، لكن تلك الحجج رغم أنها كانت ملزمة إلا أن النمرود سلك طريقاً آخر في معاملته لإبراهيم - عليه السلام - . قال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣). ثم لم يسلك أمام الحجج سبيل الإيمان والتسليم، بل الكيد بإبراهيم - عليه السلام - .

قال الشيخ محمد الأمين، عند قوله - تعالى - : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٤) : «ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة، لجأوا إلى

(١) سورة التوبة، الآية ١١٤ .

(٢) المحرر الوجيز (٣/٩١) .

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٨ .

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٦٨ .

استعمال القوة فقالوا: حرّقوه وانصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين، أي بقتلكم عدوها إبراهيم شرّاً قتلة، وهي الإحراق بالنار»^(١).

ولم يسلم الأنبياء من الأذى حتى بلغ بأهل الكفر التعرض لأزواجهم لتظل السنة ماثلة أمام دعاة التوحيد، وليظل الأنبياء، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ القدوة التي تحتذى في الصبر والمثابرة والتبليغ والإنذار، أخرج إبراهيم - عليه السلام -، والسبب في إخراجه دعوته للتطهر من أرجاس الشرك والوثنية، لكن الله يمحص جنده وعباده لتعلوا منزلتهم عنده بشيء يعيهم في هذه الدنيا الفانية قليل.

بعد ما لقيه إبراهيم - عليه السلام - من تكذيب واستهزاء ومحاولة للقتل والإخراج إذا به يواجهه في مكان ليس له فيه ناصر ولا معين إلا الله - عز وجل - بجبارٍ من الجبابرة يريد أن يستمتع بزوجه، لكن الله نصر نبيه وحفظ زوجه.

أورد البخاري^(٢) بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله - عز وجل -: قوله إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى عليّ جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هلهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها. فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة، قال: يا سارة: ليس عليّ وجه الأرض مؤمن

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/٥٨٧).

(٢) البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي مولاه أبو عبد الله البخاري الحافظ أمير المؤمنين في الحديث. قيل كتب عن أكثر من ألف شيخ. وقد ورد أنه لَمَّا أَلَّفَ الصحيح كان يصلي ركعتين عند كل ترجمة. ولد سنة (١٩٤هـ)، وتوفي سنة (٢٥٦هـ). سير أعلام النبلاء (١٢/٣٩١).

غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت فأطلق، فدعا بعض حَجَبَتِهِ، فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فَأَخْدَمَهَا هَاجِرًا، فَاتَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فَأَوْمَأُ بِيَدِهِ مَهِيمٌ^(١). قالت: ردَّ اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ - أو الفاجر - في نحره، وأخدمها هاجرًا. قال أبوهريرة: «تلك أمُّكم يا بني ماء السماء»^(٢).

وبرغم أن أهل الكفر عند مقارعتهم أهل الإيمان في بداية الأمر يتبدى لمن لا يدرك العاقبة أن أهل الإيمان لن تبقى لهم باقية، ولن يصبح لهم وجود، والسبب في ذلك أن الناس يقيسون الأمور ماديًا وكأنهم عن قدرة الله - عز وجل - الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون - هم بعيد، فهؤلاء قوم إبراهيم - عليه السلام - استطاعوا أن يوثقوه بالحبال، ويلقوه في النار، وكان هذا من أفظع أنواع الكيد، ومع هذا كانت النار بردًا وسلامًا بأمر ربها. قال - تعالى -: ﴿ قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾^(٣). كان ذلك كيدًا منهم باؤوا فيه بالخسران والبوار. قال - تعالى -: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾^(٤).

قال الشيخ محمد الشنقيطي: «الكيد الذي أرادوا به هو

(١) مهيم أو مهيم: (أي ماحالك أو ما شأنك وما الخير) فتح الباري (٦/٣٩٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء - صلوات الله عليهم - باب قول الله - تعالى -: ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا ﴾، قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(٧٠). (٢/٢٣٥). رقم ٣٣٥٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٧٠.

إحراقه بالنار نصرًا منهم لآلهتهم - في زعمهم -، وجعلهم - تعالى - الأخسرين، أي الذين هم أكثر خسرانًا لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار - تعالى - إلى ذلك - أيضًا - في سورة الصافات في قوله: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ «وكونهم الأسفلين واضحًا؛ لعلوهم عليهم وسلامته من شرهم، وكونهم الأخسرين؛ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين»^(١).

لقد خسر أهل الكفر في عدة ميادين:

في ميدان الحججة والبرهان، وفي ميدان تحريقهم له بالنيران، وفي ميدان العذاب الذي نزل عليهم من الواحد الدَّيَّان بأضعف شيء من خلقه، وهي البعوضة التي جعلت نمرودهم يُضرب على رأسه بالنعال، والخسارة العظمى سوف تكون عند ملاقاته الله يوم القيامة الذي لا يغفر أن يشرك به شيئًا.

ج: كيد الكافرين بنبي الله موسى - عليه السلام -:

ما حدث لموسى - عليه السلام - مع فرعون يحتاج الكتابة فيه إلى بحث مستقل، لكننا نشير إلى ذلك إشارة ونعطي لمحة بسيطة عن بعض ما ورد في كتاب الله - عز وجل -:

قال - تعالى -: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ﴿١٠١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى ﴿١٠٢﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٠٣﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يَخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿١٠٤﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ

(١) أضواء البيان (٤/٥٨٩).

أَتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴿٦٤﴾ (١).

ومما لا شك فيه أن أولي العزم من الرسل قد تكبدوا عنتًا من قومهم وإيذاءً لم يسبقهم أحد إليه، ومنهم كليم الله - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم -؛ حيث بدأت مرحلة المعاناة له منذ ولادته. قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢). قام فرعون بقتل كل فتى يولد في ذلك العام من بني إسرائيل، وبني حكمه ذلك على أحلام أقضت مضجعه، كان تأويلها أنها يولد من بني إسرائيل مولود يحطم طغيان فرعون وهيمته، طمع بجهله أن يرد القدر (٣).

لكن مشيئة الله وحكمته نافذة، ويشاء الله أن يكون ذلك المولود في بيت فرعون وأمام سمعه وبصره، والله على كل شيء قدير. قال - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧) فالنقطة: ءال فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهلمن وجنودهما كانوا خاطئين ﴿٨﴾ (٤).

وتبدأ حياة المعاناة بالنسبة لموسى - عليه السلام - بعد اشتداد ساعده وهو يرى آثار الذلّة على قومه وما لاقوه من تقتيل الأولاد واستعباد للنساء وإذلال للرجال. قال - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَيْنَنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) ودخل المدينة على حين

(١) سورة طه، الآيات: ٦٠ - ٦٤.

(٢) سورة القصص، الآية ٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز (٢٧٦/٤).

(٤) سورة القصص، الآيتان: ٧، ٨.

غَفَلَةً مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا فَاسْتَعَاذَهُ
الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ (١)

قال ابن كثير: «بدأت المؤامرات تُحاك ضدّه - عليه السلام - لقتله، وبدأ أهل النصح له يشيرون عليه بالخروج من بلده وترك أهله. فَيَمَّمْ موسى وجهه شطر مدين حيث بين القرآن ما حدث له في مدين (٢). قال - تعالى -: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٧﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٨﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ ابْنِي يَدْعُوكَ لِيجزيتك أجر ما سقيت لنا فلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَأَبَتِ أَسْتَجِرُكَ ابْنَ خَيْرٍ مِّنْ أَسْتَجِرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٣٠﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنَعْبُدَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ بِمَا نَقُولُ وَكَفِيلٌ ﴿٣٢﴾ (٣).

وبعد خروج موسى - عليه السلام - من مدين مع أهله وتكليم الله له وتكليفه بالرسالة رجع إلى مصر وبدأ في دعوة فرعون وإظهار الآيات الدالة على صدق نبوته وإعلان العبودية لله، في حين يدعي فرعون أنه هو ربُّ كل شيء. وقد حاول فرعون إثبات أكذوبته

(١) سورة القصص، الآيات: ١٤، ١٥.

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤/٢٨٣)، فيه ما يطول ذكره، وليس هنا محله.

(٣) سورة القصص، الآيات: ٢٢ - ٢٨.

بوسائل القمع والصلب والتحريق واستعمال السحرة لإرهاب الناس وتخويفهم ليدعنوا له بذلك، وقد كان السحر في عصر فرعون منتشرًا انتشارًا واسعًا، وكان السحرة مقربين من فرعون ولهم الصدارة عنده فجاءت عصا موسى بقدره الله آية من آيات الله الغالبة المعجزة التي قضت على سحر هؤلاء السحرة فتركوا سحرهم ودخلوا في دين الله برغم علمهم أن نتيجة ذلك هو التقطيع والتصليب، ولكن إيمان هؤلاء السحرة بالله أقوى مما يملكه فرعون من وسائل التقتيل والتقطيع والتصليب؛ فقد كانوا سحرة في أول النهار، ومؤمنين في أوسطه، وشهداء في آخره. لكن فرعون لم يرجع عن طغيانه وغيه بعد هزيمته أمام نبي الله موسى - عليه السلام - والمؤمنين.. بل أخذ يتوعد ويهدد وكان ردُّ المؤمنين من السحرة عليه ردًّا قاضيًا؛ إذا قالوا له في ثبات المؤمنين وسكينة المؤمنين: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [٧٢] إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ (١).

وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - موسى ومن معه من المؤمنين بالخروج من مصر، فتبعه فرعون بحنوده الجرارة ظلمًا وعدوانًا، فأغرقه الله - تعالى - وجنوده في الماء، فانتهدت بذلك الفرعونية بما سطرته من كفر وطغيان وجبروت وحرقت أوراقها وكسرت أقلامها وذرتها الرياح، وبقي فرعون يذکر رمزًا للغباء والحمق والطغيان؛ حيث قال في غباء وحمافة: «أنا ربكم الأعلى»، وبقيت الحقيقة الخالدة في أنه لا إله إلا الله، ولا باقي ولا غالب إلا الله، وما فرعون ومن يتشبه به في الادعاء والطغيان إلا سلسلة متواصلة من

(١) سورة طه، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

الحماسة والغباء والطغيان. والحمد لله الذي يدمر أعداءه بما شاء ومتى شاء وكيف شاء.

د - كيد الكافرين بنبي الله عيسى - عليه السلام -:

أكرم الله - عز وجل - اليهود في أول الأمر أيما إكرام، وأرسل لهم الأنبياء ونصرهم على الأعداء، وأطعمهم المن والسلوى^(١) في البيداء، وآتاهم من كل ما سألوه، لكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر والثناء، وإنما قابلوه بالكفر والعصيان، بل بارزوا الله - عز وجل - وقتلوا أنبياءه.

دعاهم عيسى - عليه السلام - إلى توحيد الله، وذكّرهم بأيام الله، فما زادهم ذلك غير تخسير: كذبوه واستهزؤوا به وتجرؤا على قتله، فرفعه الله إليه. قال الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾^(٢).

قال ابن كثير: «عن ابن عباس، ثم قال - تعالى - مخبراً عن ملأ بني إسرائيل فيما همُّوا به من الفتك بعيسى - عليه السلام - وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان - وكان كافراً - أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة

(١) السلوى: طائر أبيض مثل السمانى، والمن: ظل ينزل من السماء شبه العسل. لسان العرب (٣٩٥/١٤)، (٤١٨/١٣).

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٥٢ - ٥٥.

الملك ويفسد الرعايا ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم وزمونه به من الكذب، وأنه ولد زانية، حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به. فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم ظفروا به نجاه الله من بينهم: رفعه من روزنة^(١) ذلك البيت إلى السماء وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، فأخذوه وأهانوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم. قال - تعالى -: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ﴾^(٢).

أخبر الله - عز وجل - في هذه الآية بقوله ﴿ ومكروا ﴾، فالآية جاءت في سياق الحديث عن عيسى - عليه السلام - حين بشر به رسولا إلى بني إسرائيل جاءهم بالآيات والبينات من ربهم، منها أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيصبح طائرا بإذن الله، ويبرئ الأكمه^(٣) والأبرص، ويحيي الموتى ويحل الذي حرم عليهم. قال - تعالى -: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنشِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(٤).

قال ابن كثير عن عيسى - عليه السلام -: «كان يصور الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله - عز وجل - الذي جعل

(١) الرُّوزَنَةُ: الكُوَّةُ، وفي المحكم: الخرق في أعلى السقف. لسان العرب (١٧٩/١٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية ٥٤.

(٣) الأكمه: هو الأعمى الذي لا يبصر شيئا لا ليلاً ولا نهاراً. تفسير ابن جرير (٢٧٦/٣).

(٤) سورة آل عمران، الآية ٤٩.

هذه معجزة له تدل على أنه أرسله ﴿وأبرى الأكمه﴾ قيل: أنه الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلاً، وقيل بالعكس، وقيل الأعشى، وقيل الأعمش، وقيل هو الذي يولد أعمى، وهو أشبه؛ لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿والأبرص﴾ معروف، ﴿وأحبي الموتى﴾ بإذن الله ﴿قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه فكان الغالب على زمان عيسى - عليه السلام - السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيّرت كل سحار. قال: فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى - عليه السلام - فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيّدًا من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد، وكذلك محمد ﷺ بعث في زمن الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله - عز وجل - فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو سورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلا أن كلام الرب - عز وجل - لا يشبه كلام الخلق أبدًا^(١).

وكان المتوقع من قوم عيسى الإيمان بهذه الآيات البينات، وأن يذعنوا لله ويتقوه ويطيعوا رسوله عيسى - عليه السلام -؛ لأنه - عليه السلام - لم يدعهم إلا لعبادة الله وحده، وذلك هو صراط الله المستقيم الذي دعا إليه كل الأنبياء جميعًا، ولكن اليهود بالرغم من كل هذه الآيات والدلائل لم يؤمنوا وبيّتوا لعيسى - عليه السلام -

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٥٤٦).

الشر، وأظهروا له الكفر، وقد وصف القرآن هذا الموقف. قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١).

فيعسى أراد المفاصلة بعدما علم أنهم مصرون على الكفر، لاسيما وقد تبين لهم الحق وأتاهم بالآيات البينات. لكن نفوس اليهود المطوية على الشر لم تؤمن، بل أصرت على الكفر والمكابرة، فأراد عيسى - عليه السلام - أن يتحسس الصفوف لتمييز أصحاب الحق، وليعرف أهل الباطل، فقام أهل الإيمان وقال الحواريون مقاتلهم (نحن أنصار الله) فأمنت هذه الطائفة وكفرت الأخرى، والله غني عن العالمين، لكن هذه الطائفة ما فتئت تكيد بأهل الإيمان وتمكر بهم إلا أن أولياء الله لهم مولى، والكافرين لا مولى لهم. قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُتَّبِعُونَكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾^(٢). مكروا في تبئت الكفر ومكروا مكر القتل، ومكروا بأهل الإيمان لتفريق صفوفهم، فخبب الله آمالهم وبدد أحلامهم، ورفع الله نبيه عيسى - عليه السلام -^(٣) إليه، فلم يتمكن اليهود من قتله وطهره منهم وجعل أتباعه فوقهم إلى يوم القيامة. قال - تعالى -: ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية ٥٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٣) تفسير جامع البيان (٣/٢٨٨).

(٤) سورة النساء، الآية ١٥٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية ٥٥.

وجعل للمؤمنين توفية الأجر ورفع القدر، والله لا يحب الظالمين الكافرين. ومادام أن الله لا يحبهم فلن يمكن لهم تمكينًا يطول، وإن ظهر ذلك فإنما يعود إلى تخاذل أهل الدين عن دينهم. والله لا يمكن إلا لمن يحب، مصداقًا لقوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١).

أخبر الله بأنه يعذب الكافرين في الدنيا قبل الآخرة، ومن ذلك العذاب ما يكون على أيدي المؤمنين الصادقين، بقتلهم أو سبيهم، وأخذ أموالهم وإزالة أيديهم عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق (٢). قال - تعالى - : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣)، وقال : ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنْ دِينِهِمْ وَيَضْرِبُهُمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ أَثْمًا ﴾ (٤).

ثالثًا: كيد الكافرين بالنبي ﷺ:

تمضي سنة الله في نبينا ﷺ كما مضت في الأنبياء من قبل من كيد أعدائهم لهم بكل حيلة ووسيلة، بل زاد على ذلك أن ملل الكفار كلها تملأت عليه، وزاد الأمر صعوبة أن ذلك الكيد يدبر

(١) سورة آل عمران، الآية ٥٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/٥٥٠).

(٣) سورة النور، الآية ٥٥.

(٤) سورة التوبة، الآية ١٤.

بصفة جماعية أكثر منها فردية، وبمجموعة مللٍ لا بملة واحدة فقط. وبالسبر والنظر والملاحظة نجد أن فعل (كاد) لم يرد في كتاب الله إلا مسندًا إلى جماعة سواء كان ذلك مسندًا إلى واو الجماعة وهو الأكثر أو مسندًا إلى اسم الموصول.

لذا نجد أن الكيد في كثير من الآيات الدالة عليه يكون جماعيًا والوصف له يدلُّ على قوته، سواء كان ذلك تخطيطًا وتدبيرًا، أو تنفيذًا وتحريكًا مما يجعل كثيرًا من ضعاف النفوس يخورون وينهزمون أمامه. أمّا أهل القرآن فلو قامت قوى الكفر كلها ضدهم فإنهم موقنون بأن الله سوف يمكر بأعدائهم عالمين بأن الظفر لا يكون إلا بعد الصبر، آخذين في ذلك بالأسباب المتاحة لهم رغم سبق قوى الكفر لهم في جميع المجالات المادية، جاعلين نصب أعينهم القدوة الذي يجب أن يقتدوا به نبيهم ﷺ وهو يواجه الكيد من أهل الملل الكافرة جميعها لم يشته في ذلك ضعف قوته المادية، بل أعد ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ثم توجه إلى مسبب الأسباب فكان له ناصرًا ومعينًا. وكان من مظاهر كيد كفار قريش للرسول ﷺ ما يلي:

أ - تكذيبهم لما جاء به الرسول ﷺ:

لقد سلك أهل الشرك جميع الطرق، واستخدموا جميع الوسائل من أجل أن يثنوا النبي ﷺ عن دعوته، ولقد لقي من العنت والتعب والنصب الشيء الكثير، تكذيبًا واستهزاءً وإيذاءً، وهو يواجه ذلك كله بصبر وثبات وتفؤل ودعاء وحرص على هدياتهم جميعًا، لكن سنة الله في خلقه أن لا تكون هذه الهداية إلا للقلة القليلة^(١)

(١) قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ سورة سبأ، الآية ١٣. قال - تعالى -: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ سورة هود، الآية ٤٠. قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- بالنسبة للكفار - على هذه الأرض .

وقد ورد في ثنايا كتاب الله - عز وجل - مواقف أهل الكفر ضد الصادق الأمين تبين سفة عقولهم وضعف بصيرتهم وطرائق تكذيبهم للحق الذي جاء به الرسول ﷺ . لقد حرص النبي ﷺ على هداية القوم بكل وسيلة: دعاهم فرادى وجماعات، قرأ عليهم القرآن تارة، وأقنعهم بالحجج العقلية تارة أخرى، لكنهم كذبوه وتركوه ولم يتبعوه . قال - تعالى - : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾^(١) . قال ابن عاشور: «فإن كذبوك فلا عجب، أو فلا تحزن؛ لأن هذه سنة قديمة في الأمم مع الرسل مثلك، وليس ذلك لنقص فيما جئت به»^(٢) .

وهذه تسلية من الله - عز وجل - لنبيه ﷺ الذي كان يناله من اليهود وأهل الشرك بالله من سائر الملل ما كان يحزنه؛ لذا كان يتنزل عليه من القرآن ما يزيل حزنه، حيث يقول الله - تعالى - له: لا يحزنك يا محمد كذب هؤلاء الذين قالوا: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُوْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾^(٣) ، وافترأؤهم على ربهم اغترارًا بامهال الله إياهم، ولا يعظمنّ عليك تكذيبهم إياك، وادّعاؤهم الأباطيل من عهود الله إليهم؛ فإنهم إن فعلوا ذلك بك فكذبوك وكذبوا على الله فقد كذب أسلافهم برسول الله^(٤) .

= **يَنْصَبْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ** ﴿١٨٤﴾ سورة البقرة، الآية ٨٣ . والآيات الدالة على القلة في جانب أهل الإيمان والكثرة في جانب الكافرين عديدة .

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٤ .

(٢) التحرير والتنوير (٤/١٨٦) .

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨٣ .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن بالقرآن (٣/٥٣٩) .

ولم يكن القصد في ذلك تكذيب الرسول ﷺ؛ لأنهم كانوا يلقبونه بالصادق وإنما هو تكذيب للحق الذي جاء به؛ لأنه يخالف أهواءهم وشهواتهم. قال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾^(١).

«ويقول - تعالى - ذكره: والذين كذبوا بأدلتنا وإعلامنا فجحدها ولم يتذكروا بها ستمهله بغرته، ونزئ له سوء عمله، حتى يحسب فيما هو عليه تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغاية التي كتبت له من المهل ثم يأخذه بأعماله السيئة فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعد له، وذلك استدراج الله إياه^(٢). معناه سنسوقهم شيئاً بعد شيء ودرجة بعد درجة بالنعم عليهم والإمهال لهم حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب^(٣). قال الزمخشري^(٤): «سنستدرجهم قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم^(٥) ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾. والمعنى: تأخير هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا؛ ليلغوا بمعصيتهم ربهم المقدار الذي كتبه لهم في العقاب والعذاب، ثم يقبضهم إليه^(٦). وكيد الله إذا نزل فإنه قويٌّ شديد، ولا ينزل إلا بمن يستحق ذلك. قال الزمخشري «سمّاه

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢، ١٨٣.

(٢) تفسير جامع البيان (١٣٤/٦).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤٨٢/٢).

(٤) الزمخشري: هو العلامة كبير المعتزلة، أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي، النحوي، صاحب الكشاف والمفصل، وكان رأساً في البلاغة والعربية والبيان. ولد سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي سنة (٥٣٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠).

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، لأبي القاسم، جار الله، محمود الزمخشري (١٣٢/٢)، دار الفكر.

(٦) تفسير جامع البيان (١٣٤/٦).

كيدًا لأنه شبيهٌ بالكيد من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان»^(١). قال ابن عطية: «إن كيدي» على معنى لأجل أن كيدي، و«متين» معناه قويٌّ^(٢).

فمع تكذيبهم الرسول ﷺ إلا أن الله - عز وجل - أمهلهم ليزدادوا في غيِّهم فتحقَّ الهلكة عليهم بعد ذلك. قال - تعالى -: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَهَلْ الْكٰفِرِينَ أَمٰهَلُكُمْ رُبِّدًا ﴿١٧﴾﴾^(٣). هنا استئناف بيانيٌّ ينبىء عن سؤال سائل يعجب من إعراضهم عن القرآن مع أنه قول فصل ويعجب من معاذيرهم الباطلة، مثل قولهم: هو هزل أو هذيان أو سحر، فيبِّن للسامع أن عملهم ذلك كيد مقصود. فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعللات الملققة^(٤). ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ موجَّهًا إلى رسول الله ﷺ تسليَّة له على أقوالهم في القرآن الراجعة إلى تكذيب من جاء بالقرآن. أي: إنما يدعونه أنه هزل لقصد الكيد وليس أنهم يحسبونك كاذبًا^(٥).

ظلَّ النبيُّ ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا يبشر وينذر ويورد الحجج والبراهين الساطعة لقومه، لكن ذلك كله لم يقابل إلا بالتكذيب رغم علمهم بصدق ما جاء به، لكنهم علموا أن ذلك سوف يكلفهم ترك كثير من شهواتهم كل حسب ما تميل إليه نزعتهم. فصاحب المنصب سوف يعطي حقوق من هم دونه حتى من الإماء والعبيد وأرباب الدرهم والدينار حريصون على التطفيف والزيادة

(١) الكشاف (١٣٣/٢).

(٢) المحرر الوجيز (٤٨٢/٢).

(٣) سورة الطارق، الآيات: ١٥ - ١٧.

(٤) تفسير التحرير والتنوير (٢٦٧/٣٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦٧/٣٠).

والنقص في الموازين، والقرآن جاء محذراً ومنذراً لهم، وأتتهم الصلاة تقطع عليهم ساعات سكرهم وفجورهم، فكان تكذيبه من الجميع ليدافع كل منهم عن مصالحه، وما آمن معه إلا قليل.

ب - بفضهم وإيذاؤهم للرسول ﷺ وأصحابه:

رغم ما كان يكتنه أهل الإيمان لأهل الشرك من رحمة طمعاً في إيمانهم وشفقة عليهم إلا أنهم كانوا يخفون في صدورهم البغض للمسلمين والغلّ عليهم، رغم إظهارهم لأهل الإيمان الإسلام ظاهراً. قال - تعالى - : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾^(١) .، وقال - تعالى - : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾^(٢) ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾^(٣) ، وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ... ﴾^(٤) ، وقال - تعالى - : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَد بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٥) هَاتَمُ أَوْلَاءٌ مُّحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا يَغِيظُكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾^(٦) إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن نَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾^(٧) .

يحذّر الله أهل الإيمان من اتّخاذ بطانة من أهل الكفر. والبطانة: مصدر يسمّى به الواحد والجمع. وبطانة الرجل: خاصّته الذين يستبطنون أمره، ومنها قول الشاعر:

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

(٢) سورة القلم، الآية ٥١.

(٣) سورة المطففين، الآتان: ٢٩، ٣٠.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٤.

(٥) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨ - ١٢٠.

وهم خلصائي كلهم وبطاتي وهم عيبي من دون كل قريب .
﴿من دونكم﴾ أي: من دون المسلمين، وهم الكفار^(١).

﴿والوليجة﴾: هو الذي يُعرّفه الرجل أسراره ثقةً به. قال رسول الله ﷺ: «الأنصارِ شِعَارٌ، والناسُ دِنَارٌ». والشُّعار: هو الثوب الذي يلي الجسد، والدِّنار هو الذي فوق ذلك، وهذا كناية عن مدى حبه ﷺ للأنصار وقربهم من قلبه، فهم مقدمون على غيرهم، وقد قال لهم في ذلك إرضاءً لهم ولإزالة ما علقَ بقلوبهم من تلك الشائعات^(٢).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لِمَا بينهم من القرابة والصداقة والحلف فأنزل الله - تعالى - هذه الآية».

قال مجاهد: «نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنُهِوا عن ذلك، ويؤيده قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وأيًا ما كان فالحكم عامٌّ للكفرة كافة^(٣).

﴿لَا يَأْتُوكُمْ خَبَالًا﴾: المعنى لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، في الأفعال والأبدان والعقول^(٤). أي أنهم يتحرّون كل ما فيه ضرر لكم وليس هذا فحسب، بل لا يقصرون لكم في

(١) انظر: تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، تأليف محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر (١/٣٧٥).

(٢) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الإمام ناصر الدين أبو الخير عبدالله الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، ص ٨٧. والحديث رواه البخاري كتاب المغازي والسير باب (غزوة أوطاس) (٥٢/٨) (٤٣٣٠)، ومسلم كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم على الإسلام وتصير من قوى إيمانه (٢/٧٣٨)، (١٠٦١).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم (١/٤٠٥).

(٤) انظر: فتح القدير (١/٣٧٦).

العناد^(١)، فهم مستمرّون دائماً في ذلك .

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ : أي ودّوا عنتكم، والعنت المشقة وشدة الضرر^(٢)، وهو استئناف مؤكد لزيادة الاجتناب عن المنهي عنه^(٣).

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: في كلامهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم^(٤)؛ لأن فلتات اللسان أقلُّ مما تجنه الصدور، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلة جداً^(٥).

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ : مما بدا لأنهم أبدوه ليس عن رويّة واختيار.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ : الدّالة على وجوب الإخلاص في الدّين وموالاتة المؤمنين ومعاداة الكافرين^(٦) والحذر منهم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٧) أي: إن كنتم من أهل العقل، أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه^(٧).

﴿هَآأَنْتُمْ أَؤْلَآءِ﴾ أي: أنتم الخاطئون في موالاتهم، ثم بين خطأهم بتلك الموالات بهذه الجملة، فقال: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ لما قد استحکم في صدورهم من الغيظ والحسد.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجنس الكتاب جميعاً، ومحل

(١) إرشاد العقل السليم (١/٤٠٥).

(٢) فتح القدير (١/٣٧٦)، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.

(٣) إرشاد العقل السليم (١/٤٠٥).

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص ٨٧، للإمام نصرالدين البيضاوي، دار الفكر.

(٥) فتح القدير (١/٣٧٦).

(٦) إرشاد العقل السليم (١/٤٠٥).

(٧) إرشاد العقل السليم (١/٤٠٥).

الجملة النصب على الحال، أي: لا يحبونكم والحال أنكم مؤمنون يكتب الله - سبحانه - التي من جملتها كتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ لهم شديد؛ لأن من بيده الحق أحق بالصلافة والشدة عن هو على الباطل.

﴿وَإِذَا الْقَوْمُ قَالَوْا آمَنَّا﴾: نفاقاً.

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: من أجله تأسفوا وتحسروا حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلاً.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلكهم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: فهو يعلم ما في صدوركم وصدورهم^(٢).

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾: بيان لتناهي عداوتهم إلى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة وشمتموا بما أصابهم من ضرر وشدة وذكر المس من الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة^(٣).

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾: على عداوتهم ومشاق التكليف^(٤).

﴿وَتَتَّقُوا﴾: موالاتهم أو ما حرّم الله - جل جلاله - عليكم.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ بفضل الله - عز وجل - وحفظه

(١) إرشاد العقل السليم (٤٠٦/١).

(٢) فتح القدير (٣٧٦/١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤٠٦/١).

(٤) أنوار التنزيل، ص ٨٧.

الموعود^(١). أي لا يضركم مكرهم وحيلتهم التي دبّروها لأجلكم.
 وقرىء لا يضركم على جواب الشرط، من ضاره يضره بمعنى
 ضره يضره أي لا يضركم بشيء من الضرر بفضل الله وحفظه
 الموعود للصابرين والمتقين ولأن المُجِدِّ في الأمر المتدرب بالاتقاء
 والصبر يكون جريئًا على الخصم.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: في عداوتكم من الكيد.

﴿مُحِيطٌ﴾: علمًا فيعاقبهم على ذلك، وقرىء بالتاء
 الفوقانية أي بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم
 أهله^(٢).

تضمنت هذه الآيات معاني عظيمة وكثيرة تحتاج إلى نظر
 وتدبر، فالله - عز وجل - يرسم لنا التصرف الأمثل مع أهل النفاق؛
 لأن المؤمن طاهر السريرة واضح المنهج يسير مع الناس ويعاملهم
 ويظن بهم ما يظنه بنفسه، لذا جاء القرآن مربيًا لأهل القرآن ومنبهاً
 لهم أن لا يظل الإنسان منهم مهذارًا يعطي أسرار أهل الإيمان لكل
 من يراه مطبقًا للهدى الظاهري، بل لابد من معرفة أهل الإيمان من
 خلال أقوالهم وأفعالهم؛ لأن أهل النفاق مهما فعلوا وتصنعوا
 ألسنتهم لابد وأن تظهر ما تكنه صدورهم، قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم^(٣)

لذا وجب على المؤمن أن يكون كيئًا فطنًا عند تعامله مع

(١) إرشاد العقل السليم (١/٤٠٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/٤٠٦).

(٣) قاله زهير بن أبي سلمى في معلقته. انظر: شرح القصائد الطوال (٢٨٩)، لأبي بكر
 الأنباري، تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون، طبعة دار المعارف ١٤٠٠هـ.

الناس، وأن لا يلقي بكليته في حب الأشخاص بسبب قرابة أو جوار أو نحوها، بل لابد وأن يتعرف على أهل الإيمان فيحبهم وعلى أهل الباطل فيبغضهم مع إعطائهم حقوقهم كما أعطها النبي ﷺ من قبل، ونكل سرائرهم إلى الله، ثم بين الله - عز وجل - العلاج الناجع مع هذه الفئة الخطيرة، وذلك بتقوى الله - عز وجل - من صبر على طاعة الله - عز وجل - والائتمار بأمره، والصبر عن الشهوات والمعاصي، والصبر على ما يصيب المؤمن من البلاء.

ولقد بين الله - عز وجل - أن كيد الأعداء رغم شدته وقوته وهوله لا يضر الفئة المؤمنة القائمة على أمره؛ لأن المكر سبب، ومسبب الأسباب هو الله - عز وجل - فلا يكون إلا ما يريد، وقد وعد أوليائه بالنصر والتمكين فلا يكون إلا ما قضى به - سبحانه وتعالى - . وأما ما يقع للمؤمنين فهو تمحيص من الله - عز وجل - لعباده يعلم الصادق من الكاذب، ولتمضي سنة الله - عز وجل - في المدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل إلى قيام الساعة. قال - تعالى - : ﴿الْمَلَأْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبًا مَلِيًّا ۚ أَتَى عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ قَوْمٌ يَبْغُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾﴾^(١).

فإذا تمحص الصف ونقي من الخبث وظهر أهل الإخلاص، أنزل الله نصره وأعز عبيده ومكنهم في الأرض، وهذا لا يكون إلا بعد بلاء يكون أهله متجاوزيه بصبر وثبات. قال - تعالى - : ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿٢٢﴾﴾^(٢).

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١ - ٣.

(٢) سورة النور، الآية ٥٥.

جـ - ظلم الكافرين للمستضعفين من المؤمنين :

يدعي أهل الكفر أن الإسلام دين الوحشية، يعلم أتباعه سفك الدماء وقتل الأبرياء والهدم والتدمير والتباغض والتناحر، وكأنهم بذلك يريدون أن يغطوا على ما جنته أيديهم على مدى الأزمان من سفك للدماء وقتل للأبرياء وظلم للشعوب ما يندى له الجبين.

فالإسلام لم يعلم أتباعه قتل الشيوخ والنساء والأطفال وظلم الشعوب والاستبداد بخيراتها والتسلط عليها، إنما علمها ألا يقتلوا إلا مقاتلاً يريد أن يصد جند الله - عز وجل - عن تبليغ دينه وإعلاء كلمته، فإن آمن أهل البلاد أيًا كانت وعلموا صدقهم جعلوا واليهم منهم، وأموالهم لهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.

هكذا أهل الإيمان همهم تبليغ دين الله دون النظر إلى حطام الدنيا الزائل. لذا وجه الله - عز وجل - عباده الصالحين إلى القيام بأمر الله والجهاد في سبيل الله؛ نصرةً للمستضعفين، ونصحًا وإرشادًا للمظلومين إلى ما فيه خير الدنيا والدين، مبيّنًا ما أعده الله لمن بذل نفسه وماله لإعلاء كلمة الله. ومعلوم أن الرسول ﷺ مكث ثلاث عشرة سنة هو والمؤمنون صابرين على ما يلقون من الأذى من قريش، ولم يأذن الله لهم في القتال، بل أمرهم بالصبر والثبات والصفح والعفو في آيات كثيرة، مثل قوله - تعالى -: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، وقوله - تعالى -: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٢)، وقوله - تعالى -: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٣)،

(١) سورة المائدة، الآية ١٣.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٧.

(٣) سورة المعارج، الآية ٥.

وقوله - تعالى - : ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (٤٥) (١) ،
 وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) (٢) ،
 وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ
 لَهُمْ ﴾ (٣) ، ومثل هذه الآيات كثير في القرآن المكي ، ثم لما هاجر
 المسلمون أذن الله لهم في قتال من قاتلهم حيث قال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ
 يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢٩) (٤) ، ثم بعد ذلك
 جاء الأمر بالجهاد المطلق في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوا
 الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ (٥) ، وقوله - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا
 تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (٦) ، وقوله - تعالى - :
 ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
 عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢٩) (٧) ، ثم بعد هذا الصبر الطويل جاءت
 الآيات التي تحث على الجهاد والسبب الذي دعى إلى ذلك . قال
 - تعالى - : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤)
 وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ
 يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ
 لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥) الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ

(١) سورة الطور، الآية ٤٥ .

(٢) سورة التغابن، الآية ١٤ .

(٣) سورة الأحقاف، الآية ٣٥ .

(٤) سورة الحج، الآية ٣٩ .

(٥) سورة التوبة، الآية ٣٦ .

(٦) سورة الأنفال، الآية ٣٩ .

(٧) سورة التوبة، الآية ٢٩ .

الطَّغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾^(١). وهذا كله حُضٌّ من الله للمؤمنين على جهاد عدوهم من أهل الكفر، مع عدم الاهتمام بالنتيجة، وإهمال قول المرجفين من المنافقين؛ لأن الله - عز وجل - إما أن يكتب لهم الأجر والنصر، أو يكون لهم الثواب والأجر مضاعفًا، على أن يكون القتال لإعلاء دين الله^(٢) والدعاء إليه، لا لمصلحة دنيوية بأي حال من الأحوال، بل يتأكد وجوب الجهاد في سبيل الله إذا كان ثمة ضعفاء في ديار الكفر يحتاجون إلى النصر، كما كان لابن عباس وأمه^(٣) وغيرهم من ضعفة المسلمين في مكة وسط صلف قريش وطغيانها وبطشها وهيمنتها.

ولقد بين الله - عز وجل - الطائفتين لما تقاتل، فأهل الإيمان يقاتلون طاعة لله وإظهارًا لمنهجه وشريعته التي شرعها لعباده، وأهل الكفر الجاحدون للوحدانية المكذبون لرسوله يقاتلون في طاعة الشيطان ودفاعًا عن منهجه وطرقه التي شرعها لأولياءه من أهل الكفر بالله^(٤). ولقد أمر الله عباده بقتال أولياء الشيطان؛ لأن الله ناصرهم ومعينهم، ونصر الشيطان لأولياءه ضعيف أمام نصر الله^(٥)، وهذه ديار الظالمين ماثلة أمام أعيننا هل دفع عنهم الشيطان الدمار والهلاك؟ هل بقي معهم لينال نصيبه معهم من العذاب؟ كلا، وإنما إذا رأى ذلك هرب وتبرأ وأظهر الخوف من الله - عز وجل -. قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ

(١) سورة النساء، الآيات: ٧٤ - ٧٦.

(٢) تفسير جامع البيان (٤/١٧٠).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي (٥/٢٧٩).

(٤) جامع البيان (٤/١٧٢).

(٥) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب (١٠/١٤٧).

مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾.

وإدخال كان في قوله: ﴿كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿٧٦﴾ تأكيد
لضعف كيده، يعني أنه منذ كان، كان موصوفاً بالضعف والذلة^(٢)؛
فهو لا يتجاوز الوسوسة والتزيين والتخييل، لكنه إذا جاهد الإنسان
بذكر الله خنس، وإذا جاهد بالسنان ونزلت ملائكة الرحمة ولى
وهرب وظهر ضعفه وانكشفت حيلته وخسر سعيه وتشتت وقتل
أولياؤه وجنده.

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/١٤٧).

د - عجز آلهة الكفار عن الكيد للنبي ﷺ:

زعمت قريش أنها تتقرب إلى الله - عز وجل - عن طريق هذه الآلهة، وقالوا: كما قال الله - تعالى - عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (١)، فجاءهم النبي ﷺ بالحنيفية الصحيحة، مبشراً ومنذراً ومبيناً لهم حقائق هذه الأصنام وأنها لا تضر ولا تنفع. قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ (١٩٥) (٢).

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ أيها المشركون، آلهة، ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وتعبدونها شركاء منكم وكفراً بالله ﴿ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك (٣). ثم بين لهم فساد ما ذهبوا إليه بشيء عملي يدعونها، وينظرون هل ثمة استجابة؛ لأن العبادة لا تنصرف إلا لمن يملك الضر والنفع والعطاء والقطع والهزيمة والنصر، وليس ذلك إلا لله، ثم وبخهم الله - تعالى - وسفّه عقولهم فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ (١٩٥) (٢).

(١) سورة الزمر، الآية ٣.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٤، ١٩٥.

(٣) جامع البيان (٦/١٥٠).

لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿١﴾ . أي : أنتم أفضل منهم، فكيف تعبدونهم؟، والغرض بيان جهلهم؛ لأن المعبود يتصف بالجوارح!... فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه^(٢). كذلك هذه الأصنام التي ليس لها صفات تؤهلها للضر والنفع يمتنع أن تكون آلهة^(٣). أما الله - سبحانه وتعالى - فإن له صفات تليق بجلاله وقدرته، من سمع وبصر، وغيرها من صفاته التي ذكرها في كتابه، أو أخبر عنها رسول الله ﷺ، فلما زاد صلفهم واشتد كفرهم وازدادوا كفرًا بتخويف رسول الله ﷺ بأصنامهم، أمر الله - عز وجل - رسوله ﷺ أن يجتمعوا هم وشركاؤهم ويعجلوا بكيدهم إياه، ويبين الله لرسوله ﷺ أن كيدهم لن يضره، ويعرف الكفرة بعجز أوثانهم عن نصرتهم. وأتى لأوثانهم وأحجارهم أن تحرك ساكنًا، أو تنصر راکعًا وساجدًا لها! فلقد كان لأوليائها في الدنيا الهلاك على أيدي المؤمنين، ويوم القيامة جهنم وبئس المهاد.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٩٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٤٢/٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٧٦/١٥).

هـ - عجز الكافرين عن محاجة الأدلة القرآنية:

بعض أهل العقول وذوي الألباب وأصحاب الفطر السليمة قد يترك الخير لعارض من دَخَانِ الشبهة أو الشهوة، لكن ما أن يُذَكَّرُ إلا ويرجع إلى الجادة وربما زاد الأمر مع بعض النفوس غيًّا، فما أن تنصب لهم البراهين وتبين لهم الأدلة إلا ويعودون إلى الجادة وإلى الصواب، لكن الرزية كل الرزية عندما تجد بطون العرب العارفين بمعاني كتاب الله يصدون عنه ويمكرون بمن جاء به، مع أنها وردت آيات تقيم عليهم الحجج وتبين لهم الصواب وتهدم الادعاءات الباطلة وتوقفهم على حقيقة أنفسهم وما تكنه صدورهم وتبين لهم عاقبة أمرهم. قال - تعالى - : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِلُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿١﴾ .

قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره لنيه محمد ﷺ: فذكر يا محمد من أرسلت إليه قومك وغيرهم وعظهم بنعم الله عندهم؛ فما أنت بنعمة ربك بكاهن تتكهن، ولا مجنون له رأي يخبر عنه قومه ما أخبره به، ولكنك رسول الله، والله لا يخذلك، ولكنه

(١) سورة الطور، الآيات: ٢٨ - ٤٢.

ينصرك»^(١).

وقال الشيخ محمد الشنقيطي: «نفى الله - جل وعلا - عن نبيه ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه ﷺ رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أمّا دعواهم أنه كاهن أو مجنون، فقد نفاها صريحاً بحرف النفي الذي هو ما في قوله: فما أنت، وأكد النفي بالباء في قوله: «بكاهن»، وأمّا كونه شاعراً، فقد نفاها ضمناً بأم المنقطعة في قوله: «أم يقولون شاعر»؛ لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن للنفي^(٢).

وقوله - تعالى - في هذه الآية الكريمة ﴿تَرْيَضُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ أي: ننتظر به حوادث الدهر، حتى يحدث له منه الموت؛ فالمنون الدهر، وربيبه: حوادثه التي يطرأ فيها الهلاك والتغيير، والتحقيق أن الدهر هو المراد.

وقال بعض العلماء: المنون في الآية الموت، وإطلاق المنون على الموت معروض ومعروف في كلام العرب^(٣)، وقد قال مجاهد: «ريب المنون: حوادث الدهر»، وقال قتادة: «الموت»^(٤)، وبغية قريش هو هلاك النبي ﷺ والخلوص منه حتى لا يصلح باطلهم الذي هم عليه، وشهواتهم التي غرقوا فيها، فوصل بهم الأمر وهم من أبناء عشيرته أن يتمنوا الخلاص منه ويبحثوا عن أسبابه.

قوله - تعالى - : ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ﴾. قال

(١) جامع البيان (١١/٤٩٣).

(٢) أضواء البيان (٧/٦٩٢).

(٣) أضواء البيان (٧/٦٩٣).

(٤) جامع البيان (١١/٤٩٤).

ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقولون لك: إنك شاعر نتربص بك ريب المنون تربصوا، أي: انتظروا وتمهلوا في ريب المنون؛ فإني معكم من المتربصين بكم، حتى يأتي أمر الله فيكم»^(١).

وفي هذا الرد الذي علمه الله لنبيه إيقاف الكافر، وإعزاز لأهل الإيمان وتشجيع لمن عنده ميل للدخول في دين الإسلام، لكن السكوت عنهم يؤدي إلى إلى انهزام في بعض النفسيات؛ فالعزیز - سبحانه وتعالى - معرٌّ لأليائه، سواء كان ذلك في بيان الحجج وإبداء البراهين، أو عند النزال في أي ميدان من الميادين.

قوله - تعالى -: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٢). قال ابن جرير: «يقول - جل ثناؤه: ما تأمرهم بذلك أحلامهم وعقولهم. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٣) طغوا على ربهم، فتجاوزوا ما أذن لهم وأمرهم به من الإيمان إلى الكفر به»^(٢).

قوله - تعالى -: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٤). لقد تحدى الله - عز وجل - قريشاً الذين نزل القرآن بلغتهم في أربع مواطن من القرآن الكريم، على النحو التالي:

١ - أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، قال - تعالى -: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٣).

٢ - أن يأتوا بعشر سور من مثله، قال - تعالى -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

(١) المرجع السابق (١١/٤٩٤).

(٢) جامع البيان (١١/٤٩٥).

(٣) سورة الطور، الآية ٣٤.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ (١)

٣ - أن يأتوا بسورة من مثله، قال - تعالى - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَآتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

ثم بين الله - عز وجل - عجزهم وعدم قدرتهم على ذلك، ولو اجتمعت إنسهم وجنهم لذلك، قال - تعالى - : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ ﴾ (٣) (٤) .

وهذا فيه دليل على براءة النبي ﷺ على أنه تقوله؛ إذ لو كان ذلك لآتى بمثل قوله: شعراؤهم، وأهل البلاغة فيهم، فأقيمت عليهم الحججة الظاهرة البينة أن هذا القرآن هو حق لا شك فيه.

قوله - تعالى - : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٥) . قال ابن جرير: «يقول الله - تعالى - ذكره: أخلق هؤلاء المشركون من غير أي شيء؟ أي من غير آباء ولا أمهات فهم كالجماد، لا يعقلون ولا يفهمون لله حجة، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة» (٥) .

قال أبو السعود: «أي أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث ومقدر؟» (٦) .

(١) سورة هود، الآية ١٣ .

(٢) سورة يونس، الآية ٣٨ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٨ .

(٤) إرشاد العقل السليم (٥/٦٣٩) .

(٥) جامع البيان (١١/٤٩٦) .

(٦) إرشاد العقل السليم (٥/٦٣٩) .

قال ابن عاشور: «الآيات أدلة على أن ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان. وهذا متصل بقوله آنفاً: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾؛ لأن شبهتهم المقصود ردها بقوله تعالى، وإن عذاب ربك لواقع هي قولهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَيْ نَالِ الْمَبْعُوثُونَ﴾»^(١)

هكذا كان الوحي يخاطب الفطر، بدون جدل معقد، قل إما أنهم لم يخلقوا من شيء وهذا أمر ترفضه العقول، وإما أن يكونوا هم خلقوا أنفسهم فهذا - أيضاً - لم يدعها أهل الشرك ولا غيرهم، بل مقرون بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله - سبحانه وتعالى -، ولو استخدموا عقولهم لأذعنوا وأطاعوا من جعل لهم الأرض مهادًا والسماء بناءً، وكان مسيئًا للسبب في خلقهم وإيجادهم.

قوله - تعالى - : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُّوا يُسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾. قال ابن جرير: «أم لهم سلم يرتقون فيه السماء يستمعون عليه الوحي فيدعون أنهم سمعوا هنالك من الله الذي هم عليه حق، فهم بذلك متمسكون بما هم عليه»^(٢).

وحقيقة الأمر أن قريشًا تدرك أن ذلك حق، وأنهم ليس لديهم حجة ولا دليل، ولا برهان، يبين لهم أن محمدًا لا يوحى له، أو أن ما هو عليه باطل، بل الأمر عكس ذلك؛ فإن في القرآن حجج وبراهين كافية لإثبات صحته وكذب دعواهم.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. قال ابن جرير: «يقول: فإن كانوا يدعون ذلك فليأت من يزعم أنه استمع ذلك فسمعه، بسلطان

(١) التحرير والتنوير (٦٧/٢٧).

(٢) جامع البيان (٤٩٦/١١).

مبين، يعني بحجة تبين أنه حق. كما أتى محمد ﷺ بها على حقيقة قوله وصدقه فيما جاء به من عند الله. والسلم في كلام العرب: السبب والمرقاة»^(١).

قال ابن جرير: «ذكره للمشركين من قريش: أربكم أيها القوم البنات ولكم البنون»^(٢). وفي هذه الآية إحراج لأهل الشرك؛ حيث أنهم جعلوا لله البنات، وهم كانوا يعتبرونهن أقل درجة من البنين إلى أنه وصل بهم الأمر إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. فكيف يرضى لإلهه ومولاه ما لا يرضاه لنفسه ويعدّه منقصة له، فسبحان الله كيف يتجرأ هؤلاء ويصل بهم السفه أن ينسبوا لله النقائص؟!، تعالى الله عما يقولون».

قال - تعالى - : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾^(٣). قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره لنبية محمد ﷺ: أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ثواباً وِعَوْضًا من أموالهم، فهم من ثقل حملتهم من الغرم لا يقرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه»^(٣).

قال ابن عاشور: «والمعنى أنك ما كلفتهم شيئاً يعطونه إياك فيكون ذلك سبباً لإعراضهم عنك تخلصاً من أداء ما يطلب منهم، أي: انتفى عذر إعراضهم عن دعوتك»^(٤).

وهنا فائدة للدعاة إلى الله أن يتعففوا عن سؤال المدعويين أو الناس عموماً شيئاً من حطام الدنيا، وأن يكونوا أهل كفاح وعمل؛

(١) جامع البيان (١١/٤٩٦).

(٢) جامع البيان (١١/٤٩٧).

(٣) جامع البيان (١١/٤٩٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/٧٦).

حتى لا يظن بأهل الدعوة الظنون، ويدخل الشيطان في عقول الناس من الشبهات ما يجعل الناس يتراجعون عن الإقبال على هذا الدين، كما أن عليهم الحذر في من يندس بينهم من النفعيين الذين يضررون أكثر مما يحسنون ويهدمون أكثر مما يبنون.

وقوله - تعالى - : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ (٤١) . قال ابن جرير: «أم عندهم علم الغيب، فهم يكتبون ذلك للناس فينبئونهم بما شاءوا، ويخبرونهم بما أرادوا»^(١). فالله - سبحانه وتعالى - يبين أنهم محجوبون عن الغيب؛ إذ لو كان لهم علم بذلك لعلموا متى يموت النبي ﷺ، أو إلى أي شيء يؤول «أمره، ولكنهم لا يعلمون ذلك»^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٤٢) . قال ابن جرير: «بل يريد هؤلاء المشركون يا محمد بك وبدين الله كيدًا ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٤٢) . يقول: فهم المكيدون الممكور بهم دونك، فثق بالله وامض لما أمرك»^(٣).

قال أبو السعود: «هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة. ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هم المذكورون وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به أو جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٤٢) أي: هم الذين يحيق بهم كيدهم أو يعود عليهم وبالله لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر، أو هم المغلوبون في الكيد من كايدهته

(١) جامع البيان (٤٩٧/١١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧٦/٢٧).

(٣) جامع البيان (٤٩٧/١١).

فكذته»^(١).

قال ابن عاشور: «انتقال من نقض أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم من التبييت للرسول ﷺ وللمؤمنين ولدعوة الإسلام من الإضرار والإخفاق، وفي هذا كشف لسرائرهم وتنبية للمؤمنين للحذر من كيدهم»^(٢).

لقد بين الله - عز وجل - أباطيل المشركين ودعاواهم الباطلة ومجادلاتهم الآخرة، ثم بين الله - عز وجل - بطلانها، وفنّد دعاواهم وردّها عليها وسخر منهم عندما تمادّوا في ذلك، وبعد أن انهزم أهل الشرك في مواطن الحوار والبحث والبيان وإيراد الحجج، عند عدم الاقتناع بها إلا أنهم وجدوا أنفسهم أمام ضوء لا يمكن ستره، وأمام بيان لا يمكن مقارعته وأمام حجج لا يمكن ردها. فلما رأى أهل الباطل أنهم هزموا في هذا الميدان لجؤوا إلى طرق أخرى من تأمر على سجنه أو قتله أو إخراجهم. فاستقر أمرهم على قتله، لكن الله - عز وجل - أبطل كيدهم وخذلهم وأذلّهم، وكان قتلهم يوم بدر على أيدي أهل الإيمان، ولهم في أخراهم الخزي والنيران.

وقول الله - تعالى - : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ مشعر، خاصة وأن الآية جاءت بعد آيات من محاكاة القرآن لهم بالحجج التي تدلّ على إبطال شركهم أن موقف الكفار في كل زمان ومكان في معارضة الحق وتكذيبه والصد عنه وإيراد حجج واهية في ذلك أن موقفهم ذلك كله لا يستند إلى حقّ ولا يستمد وجوده من حركة صحيحة في تاريخ البشرية تقوم على فهم أو عقل، وإنما هو الكيد بكل ما تحمله الكلمة من معاني، وما أشبه الليلة بالبارحة حين يقول أعداء

(١) إرشاد العقل السليم (٥/٦٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٧٧).

الله اليوم: «إن دين الإسلام ليس فيه الإجابة على متغيرات العصر ومبتكراته، ومن ثم فإن الإسلام - كما يزعم هؤلاء - إن صح للمتقدمين فهو لا يصح لهذا الزمن»، ولا شك أن هؤلاء وأمثالهم يهرفون بما لا يعرفون ويرددون ما لا يدركون؛ كيدًا للحق وأهله، لا علمًا ولا فهمًا ولا استقراءً لحركة التاريخ وسنن الله في خلقه، والله - تعالى - يخبر أن جزاءهم أي جزاء الكافرين في الماضي والحاضر وجزاء أشباههم من المعاصرين المعاندين هو من جنس عملهم، فتأتي أحداث الزمان ووقائع الحياة والأيام شاهدة على تفاهة ما يرددون وعلى سخف وباطل ما يقولون، وحينما يتأمل المتأمل من دائرة الحق والهدي القرآني إلى مقوله هؤلاء ويستقرىء حركة الحياة وقيام الأمم وزوالهما ويتبصر سنة التدافع ليرى أن هؤلاء أقزام لا وزن لهم، ويبصر بعين الحق تبعيتهم بمن يدورون في فلكه ويأتمرون بأمره ويرددون مقالته فهؤلاء جميعًا فسدت تصوراتهم بحقائق الوجود، فسدت بالتالي أحكامهم على ما هو موجود، فعمى البصيرة والطغيان هو الذي وحّد بين قلوبهم رغم تباعد الزمان والمكان. والله يخبر أنهم هم المكيدون أي أن باطلهم هذا لا يضر ولا يؤثر في الحق الإلهي الذي ارتضاه الله - تعالى - شرعًا للعالمين، ولذلك يلاحظ الباحث أن مقولة كفار قريش الباطلة في وصف رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون هو وصف حفر له قائلوه قبرًا؛ فاجتماع السحر والكهانة والجنون في شخص واحد لا تتفق؛ لأن الجنون خبل في العقل، والسحر والكهانة مكر وذكاء، ولم يَعه هؤلاء الأغبياء أنهم قد كيدوا من الله حينما قالوا ما قالوا كيدًا منهم، والحمد لله الذي دفع بكيده كيد الأعداء من أوليائه، وشتان ما بين كيد المخلوقين وكيد خالقهم أجمعين، ومن فضل الله

- تعالى - على أهل الحق أن الله - تعالى - قد تكفل برّد الكيد عنهم، وهذا ما تشعر به نصوص القرآن الكريم الواردة في موضوع الكيد.

فالآثار التي ترتبت عن هذه الأحداث التي كانت نتيجة كيد الأعداء هي آثار مختلفة بالكلية عمّا كان يريده هؤلاء الأعداء من خلال كيدهم وتخطيطهم، فإن المشاهد اليوم أن هذه الأحداث وتلك الوقائع كانت مواقف أعطت للأمة دفعات مسارها ومراجعة حساباتها بدليل أن المسلمين يعودون من حيث التمسك بدينهم بعد كل واقعة من تلك الوقائع وكل حادثة من الأحداث أصلب عودًا وأرسخ قدمًا، وأمّا توهين كيد الكافرين باعتبار المقدمات فذلك بعضه هو ما يحدثه الله - تبارك وتعالى - في نفوس المؤمنين في كل زمان ومكان من احتقار لهذا الكيد واستعلاءً عليه وعدم الخوف منه ويتج عن ذلك أن المؤمن تجده يأخذ بالأسباب التي تجعله يثبت في مواجهة هذا الكيد، وذلك أمر يتصل بالقوة النفسية والروحية التي يمدّ الله - تعالى - بها عباده المؤمنين فيستعلوا بإيمانهم وطاعتهم ربهم على كيد أعدائهم بكل قوته وضحامته وجبروته فلا يحرك لهم هذا الكيد شعرة من أجفانهم، ولا شك أن هذا الثبات في وجه هؤلاء الأعداء والاستخفاف به وبأهله من شأنه أن يجعل المؤمن يقف شامخًا قويًا أمام هؤلاء الأعداء في ساحات الوغى غير خائف منهم أو معتدًا بهم وبما يملكون من وسائل الدمار، وهذا ما عبّر عنه المجاهدون الأفغان بإمكانياتهم الضعيفة أمام عجرفة وطغيان الشيوعية الكافرة وآلتها الحربية التدميرية، فكانت النتيجة أن سحقت ومحقت هذه الآلة تحت أقدام هؤلاء المؤمنين الفقراء وهزم أعداؤها شر هزيمة، وكان ذلك إيذانًا بتخلخل وتفكك ما يسمى الشيوعية الحمراء التي حرقت أوراقها وكسرت أقلامها وأدواتها على

أيدي جنود الإيمان الضعفاء في ساحات الجهاد الأفغاني. وقد أشار ابن القيم في زاد المعاد إلى هذه القضية التي نحن بصدد الحديث عنها، وهي قضية الجهاد بفرعيها: الجهاد النفسي، والجهاد الحربي، وبيّن أن الثاني مبنيٌّ على الأول وهو الجهاد النفسي في ساحات السلم. فمن لم يحتقر الكفار ويبغضهم فإنه يصعب عليه أن يجاهدهم في ساحات الوغى بسيفه أو آلاته الحربية، وهذا معترك خطير، وهو بؤرة الصراعات بين الحضارات، بل يرى ابن القيم أن جهاد النفس والشيطان وأعداء الله في ساحات الوغى قد يكتفي فيه ببعض الأمة إذا حصل المقصود، ويعطي ابن القيم لمعنى الجهاد بُعداً آخر، حيث يربطه بالهجرة ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة ولا الجهاد إلا بالإيمان، مستدلاً بقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١). وليست الهجرة عنده إلا الهجرة إلى الله - عز وجل - بالتوحيد والإخلاص والإنابة والخوف والتوكل والرجاء والمحبة، والهجرة إلى رسوله ﷺ بالمتابعة والانقياد لأمره والتصديق بخبره وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» (٢). ثم يأتي بعد ذلك توهين الكافرين في ساحات الحرب وما ينزله الله - تبارك وتعالى - من آيات النصر ودلائله على عباده المجاهدين في ساحات الحرب، وذلك بحر لا ساحل له لا يحيط بعلم ذلك إلا الله. وفي غزور بدر ظهرت بعض تلك الآيات والدلائل، وهو عطاء مستمر للأمة في معاركها إذا قاتلت أعداءها على منهج رسول الله ﷺ،

(١) انظر: زاد المعاد (١١/٣).

(٢) قطعة من حيث رواه البخاري، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب. وهو الحديث الأول من صحيح البخاري.

والحمد لله الذي تكفل بتوهين كيد الكافرين بما لا يعلمه إلا هو - سبحانه وتعالى -، ويكفي المؤمنين في كل زمان ومكان الإيمان بهذا الموعد العظيم، ومن أصدق من الله قيلاً؟! . وجاء في سورة الطارق ما يصور قوة كيد الكافرين وشدته كما في قوله - تعالى - : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١)، والعبرة بعموم اللفظ، ففيه ما يشعر بضخامة ذلك الكيد وقوته، ويزداد هذا الكيد ضخامة وقوة من خلال تصوير القرآن له، حيث جاء اللفظ القرآني ﴿يَكِيدُونَ﴾، للدلالة على التجدد والاستمرار بالليل والنهار بالسر والجهار، كيد لا يفتر ولا يتوقف ولا يلين، كيد أعداء لا يسرهم ولا يريح نفوسهم إلا أن يروا هذا الدين وقد انتهى أمره، وأتى لهم ذلك ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ برغم كره الكافرين لذلك، واستهلال هذه الآية بأن التي تفيد التأكيد، والإخبار عنهم بضمير الغائب، وإسمية الجملة ما يجعل المتأمل يدرك أن القرآن ينبه الأمة لكي لا تغفل عن كيد هؤلاء، وتنكير الكيد مشعرٌ بشيوعه وكثرته، والله - تبارك وتعالى - رحيم بأمة محمد ﷺ فلم يجعلها مكلفة بمقابلة هذا الكيد بكيد مماثل، وإنما قال - سبحانه - : ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (٢)، وشتان بين كيد المملوكين وكيد مالِكهم، وبين كيد المخلوقين وكيد خالقهم الذي لا يعجزه شيء، ويأتي قول الله - تعالى - : ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُؤُودًا﴾ (٣) مشعرٌ بأن الله - تبارك وتعالى - قد يعطي لهؤلاء الكفار وهم يكيدون فترة من الإمهال تطول أو تقصر، لكن ليس معنى ذلك أن الله - تعالى - قد أهمل هؤلاء الكفار فلم يعاقبهم ولم يبطل كيدهم؛ وذلك لكيلا يضعف المؤمنون وهو يواجهون كيد الأعداء

(١) سورة الطارق، الآية ١٥ .

(٢) سورة الطارق، الآية ١٦ .

(٣) سورة الطارق، الآية ١٧ .

برغم قوته وشدته. قال - تعالى - : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (٤٥) ، وقال : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٥٥) ؛ لأنه - تعالى - قضى أن كيد الكافرين لا بد أن ينتهي إلى بوار، قال - تعالى - : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (٧٦) ، ﴿ فَعَلَّانَهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٩٨) ، والحمد لله على فضله وإحسانه.

وبعد أن نقض الله - عز وجل - أقوالهم التي سبقت في سورة الطور أردف الله - عز وجل - ذلك بنقاشهم فيما هو أعظم من ذلك، وهو إشراكهم بالله - عز وجل -، قال - تعالى - : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٢) . قال ابن جرير: «أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله فيجوز لهم عبادته. يقول: ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٣) . يقول: تنزيهاً لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره»^(١).

قال أبو السعود: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه^(٢)، والحقيقة التي يعلمونها هم أن آلهتهم عاجزة كل العجز عن ذلك، بل عاجزة عن أن تجلب النفع أو تدفع الضر عن أنفسها، فكيف بمن عبدها؟! ومع هذا فإن أهل الشرك ظلوا على شركهم، بل لقد بين الله - عز وجل - المدى الذي قد وصل إليه أهل الشرك من المكابرة، قال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ (٤٤) ، وفي هذا جواب للمشركين الذين طلبوا الآيات، فبين الله - عز وجل - لنبيه أمرهم. قال ابن جرير: «وإن ير هؤلاء المشركون ما سألوه من الآيات، فعاینوا كسفاً^(٣) من السماء ساقطاً

(١) التحرير والتنوير (٧٨/٢٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦٤٠/٥).

(٣) الكسفة القطعة وجمعها كسف كقطعة وقطع) الترجمان والدليل لآيات التنزيل تأليف =

لم ينتقلوا عما هم عليه من التكذيب ولقالوا: إنما هذا سحب بعضه فوق بعض؛ لأن الله قد ختم عليهم أنهم لا يؤمنون^(١). وهذا في المشيئة الكونية، لكن مع هذا فهم في المشيئة الشرعية مكابرون مجادلون بالباطل، منكرون للحقائق مهما تكن جلية.

قوله - تعالى - : ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾^(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ . قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره لنبية محمد ﷺ: فدع يا محمد هؤلاء المشركين حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يهلكون، وذلك عند النفخة الأولى^(٢)، وقد رد هذا القول أبوالسعود، وذكر أن اليوم الذي يصعقون فيه يكون في الدنيا.

قال أبوالسعود: «﴿ يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾^(٤٥) على البناء للمفعول من صعقته الصاعقة أو من أصعقته، وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل إذ لا يصعق بها إلا من كان حيًا حينئذ. فهؤلاء الكفار مكابرون بالباطل منكرون للحقائق، وإذا كان اليوم لذي فيه يصعقون هو يوم بدر، فقد أعطى ذلك اليوم دفعات قوية لتصحيح مسارها المسلمين ومراجعة حساباتهم، بدليل أن المسلمين يعودون من حيث التمسك بدينهم بعد كل واقعة من تلك الوقائع وكل حادثة من تلك الأحداث، أقوى وأقدر على المجابهة وفرض النصر المؤزر على الكفار. ولأن قوله - تعالى - : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي شيئًا من الإغناء بدل من يومهم ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم كيدهم يستدعي استعمالهم

= المختار أحمد محمود الشنيطي (٢/ ٦٧٠). الطبعة الأولى، الدار الصغير - الرياض.

(١) جامع البيان (١١/ ٤٩٨).

(٢) جامع البيان (١١/ ٤٩٨).

له طمعاً في الانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه في أمره ﷺ من الكيد الذي من جملته مناصبهم يوم بدر»^(١).

قال ابن عطية: «وقال الجمهور: التَّوَعَّدُ بيوم القيامة؛ لأن فيه صعقة تعمُّ جميع الخلائق»^(٢) الذي فيه يصعقون، ثم بين عن ذلك اليوم أي يوم هو فقال: يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً، يعني: مكرهم أنه يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً، فالיום الثاني ترجمة عن الأول»^(٣). والله أعلم.

وحيثما نقول إنه يستفاد من نصوص القرآن الواردة في موضوع الكيد أن الله لم يكلف الأمة بالرد على الكيد فليس معنى ذلك أن القرآن أخلى الأمة من مسؤوليتها وهي تواجه هذا الكيد، بل وضعها أمام مسؤوليتها وهي تواجه كيد الأعداء، وذلك حينما وجهها إلى ميدانين يعدّان من أخطر الميادين تربيةً وإعداداً ومواجهةً، بل ويعدّان حجر الزاوية في إحباط مخططات كيد الأعداء ومؤامراتهم المشبوهة. هذان الميدانان هما ميدانا الصبر والتقوى، اللذين يعدان العمود الفقري للمجتمع المسلم في مواجهة أعدائه وكيدهم، قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَبْضُرَّكُمْ كَيْدَهُمْ شَيْئاً﴾^(٤).

فالأمة التي لا ثبات لها في هذين الميدانين لا ثبات لها - بالتالي - في مواجهة أعدائها والصبر بما يقتضيه ويستوعبه من المعاني الإيمانية والتربية النفسية وحمل النفس على ما تكره في مواجهة الحياة ومغرياتها وخطوبها وشدائدها، وهو - أي الصبر -

(١) إرشاد العقل السليم (٥/٦٤٠).

(٢) المحرر الوجيز (٥/١٩٤).

(٣) جامع البيان (١١/٤٩٨).

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

نصف الإيمان؛ فمن لا صبر له لا إيمان له، والله - تعالى - بِمَعِيَّتِهِ ونصره وتأييده مع الصابرين، وذلك يشير إلى أن تكاليف هذا الدين والوفاء بها لا تُنال إلا بالصبر، وكل معنى كريم في الحياة لا يتم الوصول إليه أو الظفر به إلا بالصبر، وتكاليف الإسلام لا يتم الوفاء بها إلا بالصبر، ولذلك فإن القرآن أحال الأمة وهي تواجه كيد الأعداء إلى الصبر؛ فإنه أحالها إلى أمر يعتبر أساس وجودها أو استمرارها.

أما التقوى فهي ملاك الأمر كله، وهي رأس الفضائل، ولا بد للأمة - بنص القرآن - وهي تواجه كيد الأعداء أن تتسلح بالتقوى، والتقوى في أبسط تصاريفها هي أن يأتي المسلم ما يرضي ربه ويترك ما يغضبه في جميع مجالات حياته، دينيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، سياسةً ومعرفةً وحربًا، وحينما تتجمع الأمة في هذين الميدانين فإنها تكون مرشحة لأن يدفع الله عنها كيد أعدائها فلا يضر ذلك الكيد؛ لأن الله يتولى حمايتها، وتظل فاعلية الكيد في دائرة الأذى مجرد الأذى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذَىٰ﴾ ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾. وهذا التوجيه القرآني يعدُّ من المعالم الخالدة للأمة، فلا تنسى مهمتها التي أُنيطت بها وهي تواجه كيد الأعداء إذا وفت بهذه المهمة وفقى الله لها بما وعدّها، ومن أوفى بعهد من الله؟! والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

المبحث الثالث

أساليب القرآن في حديثه عن الكيد ومايمثله

أ - الأساليب.

ب - دراسة لبعض هذه الأساليب.

أ - الأساليب :

لقد بيّن الله - عز وجل - الكيد (المكر، والخداع، والخيانة) بعدة أساليب في كتابه الكريم أعجزت أهل الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثلها. ولقد تنوعت الألفاظ والصيغ في هذا الموضوع لأن الكيد والمكر حركة نفسية قبل ظهورها في الواقع فتأخذ هذه الأبعاد أسلوب الإحاطة والشمول في ذكر ما يتصل بكيد الكافرين ومكرهم وقد أورد الله - عز وجل - في كتابة الأساليب الصريحة في الدلالة على اللفظ المراد، وسوف نعرض بعض هذه الأساليب فيما يلي :

أولاً: أسلوب التوكيد: الأسلوب هو المعنى المصوغ في ألفاظ على صورة تكون أقرب لنيل المقصود من الكلام، وأفعال في نفسو سامعيه^(١)، ويلقى الكلام في صورة الخبر ابتداءً إذا كان المخاطب قابلاً للخبر غير متردد في قبول فائدته، وقد يؤكد الكلام لأيّ غرض من الأغراض، وقد جاء القرآن الكريم في حديثه عن الكيد وتوابعه بأنواع من الأساليب التوكيدية نكتفي منها بالأمثلة الآتية :

أ - التوكيد بالمصدر :

١- قال تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانُ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾^(٢).

٢- قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكَرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ

(١) البلاغة الواضحة ص ١٢، تأليف علي الجارم ومصطفى أمين.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان ٤٥-٤٦.

وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ (١).

٣- وقال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي خَشِيتُ أَن يَأْتِيَ بَنِيَّ أَهْلًا مِّنْكَ فَتَجِدُ أَهْلِي ظَهِيرًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢).

٤- وقال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمُ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ (٣).

ب - التوكيد بالحصر والقصر:

١- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (٤).

٢- وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٥).

٣- وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٦).

ج - التوكيد بيان:

١- قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (٧).

(١) سورة النمل، الآيتان: ٤٩-٥٠.

(٢) سورة نوح، الآيات: ٢١-٢٣.

(٣) سورة الطارق، الآيات: ١٥-١٧.

(٤) سورة فاطر، الآيتان: ٤٢-٤٣.

(٥) سورة غافر، الآيات: ٢٣-٢٥.

(٦) سورة غافر، الآية: ٣٧.

(٧) سورة النساء، الآية: ٧٦.

- ٢- وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).
- ٣- وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٢).
- ثانياً: الأسلوب الثاني هو أسلوب الفعل المضارع الدال على الاستمرار ومن ذلك قوله تعالى:
- ١- قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣).
- ٢- وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرِيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤).
- ٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥).
- ٤- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ (٦).
- ٥- وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مِمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧).
- ٦- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨).

(١) سورة الأنفال: الآية: ١٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الأنفال: الآية: ٣٠.

(٤) سورة الأنعام: الآية: ١٢٣.

(٥) سورة النساء: الآية: ١٤٢.

(٦) سورة فاطر: الآية: ١٠.

(٧) سورة البقرة: الآية: ١٠.

(٨) سورة الأنفال: الآية: ٦٢.

٧- وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمَنَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (١).

ثالثاً: استخدام القرآن لأساليب أخرى متنوعة:

١- قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (٢).

٢- وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (٣).

٣- وقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (٤).

٤- وقال تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴿٥٥﴾﴾ (٥).

٥- وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (٦).

٦- وقال تعالى: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (٧).

٧- وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (٨).

(١) سورة الأنفال: الآية: ٢٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ٥٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية: ٩٩.

(٤) سورة النحل: الآية: ٢٦.

(٥) سورة الرعد: الآية: ٣٣.

(٦) سورة الأنبياء: الآية: ٧٠.

(٧) سورة الصافات: الآية: ٩٨.

(٨) سورة الطور: الآية: ٤٢.

ب - دراسة لبعض هذه الأساليب

أولاً: دراسة ألفاظ المكر ومشتقاته:

إن الكلام السابق عن كيد الكفار وأشكاله يستدعي منا الوقوف على ما يماثل هذا الكيد من المكر والخديعة والخيانة ذلك من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة، ولتكون البداية بقوله - تعالى - : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (٤٦) (١) قال ابن كثير: «وروى العوفي (٢) عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (٤٦) يقول: «ما كان مكرهم لتزول منه الجبال»، وكذا قال الحسن البصري (٣)، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضرَّ ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبنال ذلك عليهم. قلت - أي ابن كثير - : ويشبه هذا قول الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٤٤) (٤).

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة (٥) عن ابن عباس ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (٤٦) يقول شركهم

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.

(٢) عطية بن سعد بن جنادة، أبو الحسن، صدوق يخطيء كثيراً، وكان شيعياً مدلساً. مات سنة ١١١هـ. التقريب ص ٣٩٣.

(٣) الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، ثقة فقيه فاضل مشهور، كان يرسل كثيراً ويدلس، رأس الطبقة الثالثة مات سنة ١١٠هـ. التقريب ص ١٦٠ رقم ١٢٢٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٣٧.

(٥) علي بن أبي طلحة، سالم مولى بني العباس، أرسل عن ابن عباس، ولم يره. قال الحافظ: صدوق قد يخطيء. مات سنة ١٤٣هـ. التقريب ص ٤٠٢.

كقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ . . . ﴾ الآية^(١)، وهكذا قال الضحاك^(٢) وقتادة^(٣).

قال ابن عاشور: «وانتصب ﴿مكرهم﴾ الأول على أنه مفعول مطلق لفعل ﴿مكروا﴾؛ لبيان النوع، أي المكر الذي اشتهروا به، فإضافة مكر إلى ضمير هم من إضافة المصدر إلى فاعل. وكذلك إضافة (مكر) الثاني إلى ضمير (هم) ثم قال: وقرأ الجمهور ﴿لتزول﴾ بكسر اللام وينصب الفعل للمضارع بعدها فتكون (إن) نافية ولام ﴿لتزول﴾ لام الجحود أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم وما هو عليه بالذي تزول منه الجبال، وفي هذا تعريض بأن الرسول ﷺ والمسلمين الذي يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنهم كالجبال الرواسي.

وقرأ الكسائي^(٤) وحده بفتح الأول من ﴿لتزول﴾ ورفع اللام الثانية على أن تكون إن مخففة من إن المؤكدة وقد أكمل أعمالها واللام فارقه بينها وبين النافية فيكون الكلام إثباتاً لزوال الجبال من مكرهم، أي هو مكر عظيم لتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول، أي جديرة، فهو مستعمل في معنى الجدارة والتأهل للزوال لو كانت زائلة وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد من نوعه على نحو قوله - تعالى -: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٨٣٩).

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم الخراساني المفسر، صدوق كثير الإرسال، من الطبقة الخامسة. مات بعد المائة. طبقات المفسرين (١/٢٢٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/٨٤٠).

(٤) هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي، لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام لابنًا كساءً، وهو من القراء السبعة المشهورين، توفي سنة ١٨٩هـ. مناهل العرفان في علوم القرآن (١/٤٦٢)، ومعرفة القراء الكبار (١/١٠٠)، والنشر (٢/١٧٢)، والأعلام (٥/٩٤).

الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾^(١). وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أن الآية لها اتصال بما قبلها؛ فهي تتحدث عن الذين جحدوا دين الله وآذوا رسله حينما يشاهدون العذاب يطلبون من الله أن يؤخرهم إلى أجل كي يجيبوا دعوته ويتبعوا رسله، فالله - تعالى - يبين لهم ما كانوا فيه من ظلم وطغيان حتى أدّى بهم إلى إنكار البعث وأعمالهم طغيانهم وكفرهم عن التبصر والتبين بما فعله الله - تعالى - بمن سبقهم من الذين ظلموا أنفسهم، ولم يستفيدوا بسبب ظلمهم وطغيانهم بما ضربه الله لهم من الأمثلة ويخبر القرآن أنهم ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أي: كفرهم وعنادهم، وذلك معلوم عند الله لا تخفى عليه خافية. ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ ﴾ أي: يعلم ما دبّروا سرًا وجهارًا، فهو - سبحانه وتعالى - من ورائهم محيط لا يعجزونه، ويخبر القرآن على أن مكرهم هذا مكر أليم فيه خبث وتبيت وشدة وقوة، حتى أن من شدته وقوته أنه ﴿ لِيَتَزَوَّلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ﴿٤٦﴾ فيمن فتح اللام، وهي قراءة صحيحة، وهذا وصف في القرآن صحيح وليس في كلام الله تخير، فالقرآن يخبر أن مكر هؤلاء مكر تكاد الجبال تزول من شدته لهوله وقوته وحبكه وتواصله وشدة إيذائه، والآية فيها تثبيت للنبي ﷺ وللمؤمنين من أمته كي لا يخيفهم ولا يفرعهم مكر الماكرين لهم مهما كان قويًا شديدًا، والله قضى بأنه موهن كيد الكافرين وبأنه معزٌ دينه وناصر رسله وأوليائه، ولكن قد يطول زمن المكر ويملي الله ويظيل له في حباله وليس معنى ذلك أن الله أهمله، ولكنه التمحيص والاختبار للمؤمنين، ولذلك حين تطول الأيام بمكر الكافرين وتزداد شدته قد يتسرب إلى بعض النفوس أنه لا أمل، ولذلك جاءت الآية المعقبة بعد وصف هذا المكر بما تقدم بالنهي

(١) سورة مريم، الآية: ٩٠.

عن أن وعد الله رسله تخلف، فقال - تعالى - : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِيهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ ﴿٥٧﴾ وهذا الحسبان من الناس الذي ورد النهي عنه بغير تعنيف في دائرة الإحساس البشري بفداحة الخطب وهول المصاب من قوة الكافر وتطاوله وشدته وجبروته وقوة مكره، ولكن الله - تعالى - يبين أنه - جل وعلا - عزيز غالب غير مغلوب، ذو انتقام يعزُّ أوليائه ويتقمم من أعدائه، ولكنه يمهل ولا يهمل؛ ابتلاءً واختباراً وما أشبه حال المسلمين اليوم بحال من واجهوا هذا المكر الذي قص عنه القرآن؛ لأنه تكاد الجبال أن تزول منه، ولسائل أن يسأل كيف يمكن لتدبير بشري أن يزيل الجبال الرواسي التي عجزت عنها الرياح المدمرة والبحار الهائجة والنيران الملتهبة؟ والإجابة على هذا بيّنة، وهي أنه لو أتيح لمسلم أن يطلع على وثائق وأسرار و أخبار ما دبّره أعداء الله ويدبرونه من شرٍّ وكيد لدين الله وجنده لأبصر حقيقة وواقعا أن الآية القرآنية تحكي حقاّ وصدقًا أمرًا واقعاّ موجودًا غير متخيل. والقرآن حينما يبين هذه الصورة من مكر الكافرين فليس المراد من وراء ذلك تشييط المؤمنين أو تخويفهم، بل المراد أن يكون المؤمن على بصيرة من إمكانات عدوه المادية والعقلية، فأغبي الناس هو من يستهين بخصمه أو يستخف بعدوه وليأخذ المؤمنون في ضوء ذلك بما تيسر لهم من الأسباب جهادًا في سبيل الله ودفاعًا عن دينه وذودًا عن حرّماته، لا أن يناموا ويلقوا سلاحهم قائلين: هذا مكر تزول منه الجبال، فكيف لنا بالثبات أمامه! بل على المسلمين أن يأخذوا من الأهبة والعدة ما يكفي لردع كيد هؤلاء الكفار مهما كلف ذلك من ثمن وتضحيات،

وقال - تعالى - لنبية ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١).

قال ابن كثير: «أي المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٢) أي: في كيدك، ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب»^(٣).

قال ابن عاشور: «كانت الرحمة غالبية على النبي ﷺ والشفقة على الأمة من خلاله، فلما أُنذر المكذبون بهذا الوعيد تحركت الشفقة في نفس الرسول ﷺ فربط الله على قلبه بهذا التشجيع أن يحزن عليهم إذا أصابهم ما أُنذروا به. وكان من رحمته ﷺ حرصه على إقلاعهم عمًا هم عليه من تكذبه والمكر به فألقى الله في روعه رباطة جأش بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٣)، كما أن في ذلك ترسيخًا لبناء شخصية المؤمن في مواجهة هذا المكر فالمؤمن ليس معنيًا في التفكير في هذا المكر والرد عليه بمكر مثله؛ لأن الله لم يكلفه ذلك، وإنما هو معنيٌّ بالرد عليه من طريق الاعتصام بربه واللجوء إليه والإقبال عليه والتمسك بحبله المتين وشرعه القويم مع الأخذ بأسباب القوة المادية وحمل النفس على ذلك وحمل النفس على ذلك، والله - تعالى - مع أنه أعلم نبيه بمكر الكافرين في دار الندوة إلا أنه لم يكلفه ليفكر في هذا المكر ويرد عليه بمكر، وإنما كلفه بأخذ الأسباب مستعينًا بالله - تعالى - قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ

(١) سورة النمل، الآية ٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/٢٦).

يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
 الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾^(١) ولا نتكثر بتكرار ما ورد فيما يتصل بهذه الآية
 فيما يأتي من مباحث هذه الرسالة. والقرآن الكريم بين أن المكر
 السيء لا يحق إلا بأهله، قال - تعالى -: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
 لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إِيحَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا
 نُفُورًا ﴿٤٧﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ
 تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾^(٢).

قال ابن كثير: ﴿ومكر السيء﴾ أي: ومكروا بالناس في
 صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: وما
 يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم^(٣).

قال ابن أبي حاتم^(٤): «ذكر علي بن الحسين^(٥)، حدَّثنا ابن
 أبي عمر^(٦)، حدَّثنا سفيان^(٧)، عن أبي زكريا^(٨) الكوفي عن رجل

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٨٩٣). المحرر الوجيز (٤/٤٤٣).

(٤) ابن أبي حاتم: عبدالرحمن بن محمد بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي
 الرازي أبو محمد، حافظ للحديث. الأعلام (٣/٣٢٤). انظر: تذكرة الحفاظ
 (٣/٤٦)، وفوات الوفيات (١/٢٦٠).(٥) علي بن الحسين بن الجنيد الرازي أبو الحسن. قال ابن أبي حاتم: ثقة صدوق. الجرح
 والتعديل (٦/١٧٨)، تذكرة الحفاظ (٢/٦٧١).(٦) ابن عمر محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، صدوق، صنف المسند ولازم ابن عيينة،
 وقال أبو حاتم: كانت فيه غفلة. مات سنة ٢٤٣ هـ. التقريب ص ٥١٣.(٧) سفيان بن عيينة بن أبي عمران، ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ
 فقيه إمام حجة. مات في رجب سنة ١٩٨ هـ وله ٩١ سنة. التقريب ٢٤٥.(٨) أبي زكريا الكوفي عبدالله الخزاعي، أبو يحيى الشامي، ثقة فقيه عابد. مات سنة ١١٩ هـ.
 التقريب ص ٣٠٣ رقم ٣٣٢٤.

حدّثه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياك ومكر السوء؛ فإنه لا يحق المكر السيء إلا بأهله، ولهم من الله طالب»^(١). وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله - تعالى - ﴿وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢) ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٣) ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾^(٤)، وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، أي لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٥)، أي ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾^(٦)، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد. والله أعلم»^(٧).

وفي هذا بشارة للمسلمين في كل زمان ومكان على أن مكر أعدائهم لا يحق إلا بهم فهو مكر سيء وهو مكر قضى الله عليه بالبوار مصداقاً لقوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَمَكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوَّرُ﴾^(٨)، وفي هذا تسلية للمؤمنين وتأنيس لقلوبهم التي قد تستوحش من قلة السالكين طريق الإيمان ومن كثرة الكافرين ومكرهم والمفتونين بهم وإنها لتربية قرآنية جميلة جليلة تصاحب المؤمن في حياته كلها تملؤه يقيناً وإيماناً وقوةً واستعلاءً

(١) إسناده ضعيف؛ فيه رجل مبهم.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٣) سورة يونس، الآية ٢٣.

(٤) سورة الفتح، الآية ١٠.

(٥) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٦) سورة الرعد، الآية ١١.

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/٨٩٤).

(٨) سورة فاطر، الآية ١٠.

على المكر الكافر وإن زالت منه الجبال الرواسي، فإن قدم المؤمن لا تزول ولكنها تثبت لتدوس في النهاية بأمر الله على هذا المكر فتحيلها إلى تراب، وما كان تراب ومن مادة التراب فهو وإن تعاضم مصيره إلى التراب، وما كان من نور مصدرًا وتوجهًا وقولاً وعملاً فهو لن يكون إلا نورًا، ولذلك فإن البون شاسع والمسافة بعيدة وبعيدة جدًا بين ارتفاع النور وتألقه وانتشاره في الأفق وبين من يحاول إطفاء هذا النور بغمه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١). والقرآن الكريم يبين أن الله يزين للكفار المكر ويدفعهم إليه فيظنوا أنهم قد استوثقوا أمرهم وتمكنوا من غيرهم وما علموا أن ذلك استدراج لهم من الله حيث صددهم عن طريقه القويم وسبيله المستقيم، وهم في ذلك على ضلال بعيد لا هادي من ورائه. قال - تعالى - : ﴿أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢).

قال ابن كثير: «قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله - تعالى - : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾ (٣) الآية، ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه: أنه لما زين لهم ما هم فيه وأنه حق دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم، أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣)، كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ

(١) سورة الصف، الآية ٨.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٣.

(٣) سورة فصلت، الآية ٢٥.

شَيْئًا»^(١) وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٢) ﴿٣٧﴾. ولكي يطمئن المؤمنون وهم يسرون على طريق الإقرار بوحدانية الله والتصديق بموعده أعلمهم الله في كتابه بأن المكر كله لله فهو الذي يعلم ما تكسب كل نفس فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا تخفى عليه خافية في ملكوته وهو بكل شيء عليم.

قال - تعالى - : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾^(٤) ﴿٤٢﴾. قال ابن كثير: «يقول - تعالى - : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين. ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: أنه تعالى عالمٌ بجميع السرائر والضمائر وسيجزى كل عامل بعمله ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ﴾، والقراءة الأخرى: الكافر ﴿لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾^(٥) أي: لن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، والله الحمد والمنة»^(٥).

قال ابن عاشور: «وتقديم المجرور في قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للاختصاص، أي: له لا لغيره؛ لأن مكره لا يدفعه دافع. ثم قال: وأكد مدلول الاختصاص بقوله ﴿جَمِيعًا﴾، وهو حال من المكر»^(٦).

(١) سورة المائدة، الآية ٤١.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧٩٩/٢).

(٤) سورة الرعد، الآية ٤٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٨٠٦/٢).

(٦) التحرير والتنوير (١٧٣/١٣).

ولذلك فإن مكر الكافرين مهما عظم واشتد فإنه إلى بوار ودمار؛ لأنه في مقابلة مكر الله العزيز الجبار القوي القهار، قال - تعالى -: ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾^(١). قال ابن كثير: «تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح - عليه السلام - من لقيه غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين»^(٢).

قال الرازي: «وقد اختلفوا في مكر الله - تعالى - على وجوه.

أحدها: أن مكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة، روي أنه كان لصالح - عليه السلام - مسجد في الحجر^(٣) في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله - تعالى - صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة.

وثانيها: جاءوا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله - تعالى - الملائكة ملء دار قوم صالح قدمغوم بالحجارة، يرون الأحجار ولا يرون رامياً.

وثالثها: أن الله - تعالى - أخبر صالحاً بمكرهم فتحرز عنهم،

(١) سورة النمل، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٨٨).

(٣) الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. معجم البلدان (١/٢٢١).

فذاك مكر الله - تعالى - في حقهم»^(١).

وقد تكرر في القرآن بيان عاقبة كيد الكائدين ومكر الماكرين؛ وما ذاك إلا تعزية لعباد الله المؤمنين ليثبتوا ويصبروا ويصابروا حتى يأتي وعد الله، وفي نفس الوقت هي إنذار لمن يريد الكيد بعباده أن ينزجر ويتعظ. وتظل هذه السُّنة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ليهلك من هلك بعد بيان هذه الآيات عن بينة، وينجو من وفقه الله وهداه عندما تدبّر كتاب ربه وأخذ بالأسباب الموصلة إلى طريق النجاة. فهذا نمروذ أقيمت عليه الحجج ورأى البراهين الواضحة، ومع ذلك مكر بنبي الله فكان عاقبته العذاب في الدنيا قبل الآخرة.

قال الله - تعالى - : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢). قال ابن كثير: قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾، قال: هو النمروذ الذي بنى الصرح، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد نحوه. وقال عبدالرزاق^(٣)، عن معمر^(٤)، عن زيد بن أسلم^(٥): أول جبار كان في الأرض النمروذ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره. فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من

(١) التفسير الكبير (١٧٤/٢٤).

(٢) سورة النحل، الآية ٢٦.

(٣) عبدالرزاق بن همام الصنعاني ثقة حافظ، عمي في آخر عمره فتغير وكان يتشيع. مات سنة ٢١١هـ. التقريب ص ٣٥٤.

(٤) معمر بن راشد الأزدي، ثقة ثبت فاضل إلا أن في روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئاً، وكذا فيما حدث به بالبصرة. مات سنة ١٥٤هـ. التقريب ص ٥٤١.

(٥) زيد بن أسلم العدوي، مولى عمر، ثقة عالم وكان يرسل، من الثالثة. مات سنة ١٣٦هـ. التقريب ص ٢٢٢. والإسناد إلى زيد صحيح.

جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جبارًا أربعمائة سنة فعذبه الله كَمُلِكِهِ، ثم أماته، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء، الذي قال الله - تعالى - : ﴿ فَآقَ اللَّهُ بَنِيَنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾^(١). قال الرازي: «اعلم أن المقصود من الآية المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار. وفي المراد بالذين من قبلهم قولان:

القول الأول - وهو قول الأكثر من المفسرين - : أن المراد منه نمرود بن كنعان، بنى صرحًا عظيمًا ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل فرسخان، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء.

والقول الثاني - وهو الأصح - : أن هذا عامٌّ في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٨٧٨). التفسير الكبير (٢٠/١٧).

(٢) التفسير الكبير (١٩/١٧).

ثانيا - دراسة ألفاظ الخداع ومشتقاته:

ومما يتصل بموضوع الكيد والمكر ما جاء من ألفاظ الخداع والخيانة ومشتقاتهما في آيات القرآن الكريم. وقد جاءت ألفاظ الخداع ومشتقاتها في ثلاث آيات من كتاب الله - تعالى -:

الأولى: في قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ (١). قال ابن عطية: «واختلف المتأولون في قوله - تعالى -: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾، فقال الحسن بن أبي الحسن: «المعنى يخادعون رسول الله، فأضاف الأمر إلى الله تجوزاً لتعلق رسوله به، ومخادعتهم هي تحيلهم في أن يفشى رسول الله والمؤمنون لهم أسرارهم فيتحفظون مما يكرهونه ويتنبهون من ضرر المؤمنين على ما يحبونه». وقال جماعة من المتأولين: «بل يخادعون الله والمؤمنين، وذلك بأن يظهروا من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر ليحقنوا دماءهم ويحرزوا أموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا وفازوا، وإنما خدعوا أنفسهم لحصولهم في العذاب وما شعروا لذلك» (٢).

والثانية: قول الله - تعالى -: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (٣).

والثالثة في المشركين، وهو قوله - تعالى -: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨ - ١٠.

(٢) المحرر الوجيز (١/٩٠).

(٣) سورة النساء، الآية ١٤٣.

يُخَدِّعُونَكَ فَإِنَّكَ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴿١﴾ .

وهذه الآيات الكريمة الثلاث تدل بوضوح على أن من لوازم الكفر والنفاق الخداع أي أنه ما وجد كافر أو منافق إلا وهو مخادع لله ولرسوله وللمؤمنين .

قال أبو السعود: ﴿ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ (٢) فالتعرض حال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقه، وهو حال من ضمير يخادعون أي يفعلون ما يفعلون والحال أنهم ما يضررون بذلك إلا أنفسهم؛ فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم، أو ما يخدعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها في مهاوي الردى (٣)

قال ابن كثير: ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي: بإظهارهم ما أظهره من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليهم كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال - تعالى -: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْطِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْطِفُونَ لِكُرِّهِمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٤) . ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ ومن القراء من قرأ: ﴿ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد، قال ابن كثير: «فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٢ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٩ .

(٣) إرشاد العقل السليم (١/٤٩) .

(٤) سورة المجادلة، الآية ١٨ .

وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقيّة؟ قيل: لا تمتنع العرب أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقيّة لينجو مما هو له خائف مخادعًا، فكذلك المنافق سمي مخادعًا لله وللمؤمنين بإظهاره ما ظهر بلسانه تقيّة بما يخلص به من القتل والسبي والعذاب العاجل وهو لغير ما أظهر مستبطن وذلك من فعله وإن كان خداعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه من فعله خادع؛ لأنه لا يظهر له بفعله في ذلك بها أنه يعطيها أمّيتها، ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها حياض عطبها، وجرعها به كأس عذابها ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه ظنًا منه مع إساءته إليها في أمر معادها أنه إليها محسن كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٩) إعلامًا منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم بإسخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين. ولكنهم على عمى من أمرهم مقيمين^(١).

والخداع هو مكر وكيد من حيث أن صاحبه يخفي مراده ويظهر خلاف ذلك غير أنه قد يقل خطرًا عن آثار الكيد والمكر، ولذلك فإنه يوجد تلازم بين شخصية الماكر والمخادع من حيث أنهما يريدان أمرًا ويظهران خلافه، ولذلك جاءت صفة الخداع مقترنةً بشخصية المنافقين غالبًا، وهذا ما دلّت عليه الآيات الكريمة الثلاث.

والآية الثانية: في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٤) مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٧٥).

لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾^(١). قال ابن عطية: «ومخادعة المنافقين هي لأولياء الله - تعالى-؛ إذ يظنون غير أولياء، ففي الكلام حذف مضاف، والزام ذنب اقتضته أفعالهم، وإن كانت نياتهم لم تقتضه؛ لأنه لا يقصد أحد من البشر مخادعة الله - تعالى-». وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: منزل الخداع بهم، وهذه العبارة عن عقوبة سمّاها باسم الذنب، فعقوبتهم في الدنيا ذلّهم وخوفهم وغمّ قلوبهم وفي الآخرة عذاب جهنم. وقال السدي وابن جريج^(٢) والحسن وغيرهم من المفسرين: «إن هذا الخداع هو أن الله - تعالى- يعطي لهذه الأمة يوم القيامة نورًا لكل إنسان مؤمن أو منافق فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا، فإذا جاؤوا إلى الصراط طفيء نور كل منافق، ونهض المؤمنون بذاك، فذلك قول المنافقين: انظرونا نقتبس من نوركم وذلك هو الخداع الذي يجري على المنافقين»^(٣).

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ ولا شك أن الله لا يخادع؛ فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرًا، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر - تعالى- عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال - تعالى-: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ...﴾ الآية^(٤). وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: هو

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٤٢، ١٤٣.

(٢) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي، مولاهم المكي، ثقة فقيه فاضل وكان يدلس ويرسل، من السادسة. التقريب ص ٣٦٣ رقم ٤١٩٣.

(٣) المحرر الوجيز (٢/١٢٧).

(٤) سورة المجادلة، الآية ١٨.

الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة»^(١).

والآية الثالثة: في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ جَنَّحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْجَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنُصْرِهِ وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢). يقول الله - تعالى - مخبراً رسوله ﴿ وَإِنْ جَنَّحُوا ﴾ أي: إن مال المشركون ﴿ لِلْسَّلَامِ فَأَجْجَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي: للمسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فَأَجْجَحْ لَهَا ﴾ أي: فمل إليه واقبل منهم ذلك ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله؛ فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعةً ليتقووا ويستعدوا ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ أي: كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما آتاه به من المؤمنين المهاجرين والأنصار»^(٣).

قال ابن عطية: «﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ يريد بأن يظهرُوا له السلم ويبطنوا الغدر والخيانة أي فاجنح وما عليك من نيّاته الفاسدة ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ أي: كافيك ومعطيك نصرةً وإظهاراً، وهذا وعد محض ﴿ آتَاكَ بِنُصْرِهِ ﴾ معناه: قواك ﴿ وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يريد بالأنصار؛ بقريئة قوله: ﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية. وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في حرب بعاث، فألف الله - تعالى - قلوبهم على الإسلام وردهم متحابين في الله»^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٨٦٣).

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٦١، ٦٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/٥٠٦) مختصراً.

(٤) المحرر الوجيز (٢/٥٤٨). وسوف يرد في كيد اليهود يوم بعاث الذي كان بين الأوس والخزرج.

ثالثاً - دراسة ألفاظ الخيانة ومشتقاتها

وأما لفظ الخيانة وما اشتق منه فقد جاء في مواضع من القرآن الكريم نجتزىء منها ما يلي :

الآية الأولى : قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾^(١).

١ - قال الإمام الطبري : « ﴿ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ يقول : ولا تكن لمن خان مسلماً أو معاهدًا في نفسه أو ماله ﴿ خَصِيمًا ﴾ تخاصم عنه وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ ﴾ يا محمد وسله أن يصفح عن عقوبة ذنبك في مخاصمتك عن الخائن (من خان مالا لغيره) وقد قيل : إن النبي ﷺ لم يكن خاصم عن الخائن ولكنه همَّ بذلك فأمره الله بالاستغفار مما همَّ من ذلك»^(٢).

٢ - قال القرطبي^(٣) : «نهى الله - عز وجل - رسوله عن عضد أهل التهم والدفاع عنهم بما يقوله خصمهم من الحجة، وفي هذا دليل على أن النيابة عن المبطل والمتهم في الخصومة لا يجوز. فلا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. وقال العلماء : لا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق منهم فريقاً عنهم ليحموهم ويدافعوا عنهم فإن هذا قد وقع

(١) سورة النساء، الآية ١٠٥.

(٢) جامع البيان (٥/٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) القرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي المالكي، أبو عبد الله، مصنف التفسير المشهور الجامع لأحكام القرآن. قال الذهبي : إمام متقن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة اطلاعه ووفور فضله. طبقات المفسرين (٢/٧٠). وتوفي القرطبي - رحمه الله - سنة ٦٧١هـ.

في عهد النبي ﷺ، وفيهم نزل قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾^(١) والخطاب للنبي ﷺ، والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه؛ لوجهين:

أ - أحدهما أنه - تعالى - أبان ذلك بما ذكره بعد بقوله: ﴿هَاتَتْهُمُ هَتُورًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢).

ب - والآخر: أن النبي ﷺ كان حكماً فيما بينهم، ولذلك كان يعتذر إليه ولا يعتذر هو إلى غيره، فدل على أن القصد لغيره^(٣).

٣ - ويقول الفخر الرازي: «﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾» معنى الآية: ولا تكن لأجل الخائنين مخاصماً لمن كان بريئاً من الذنب يعني لا تخاصم اليهود لأجل المنافقين^(٤).

٤ - قال الألويسي^(٥): «﴿وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾» هو بنو أبيرق أو طعمة ومن يعينه أو هو من يسير بسيرته، واللام للتعليل، وقيل بمعنى (عن) أي لا تكن لأجلهم أو عنهم ﴿خَصِيمًا﴾ أي: مخاصماً للبراء^(٦).

(١) سورة النساء، الآية ١٠٧.

(٢) سورة النساء، الآية ١٠٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣٧٧/٥).

(٤) مفاتيح الغيب، للرازي (٣٤/١١).

(٥) الألويسي: محمود شكري بن عبدالله بن شهاب الدين محمود الألويسي الحسيني، أبوالمعالي، مؤرخ عالم الأدب والدين، من دعاة الإصلاح، له عدة مؤلفات، منها «بلوغ الأدب في أحوال» و«عقدة الدرس شرح مختصر نخبة الفكر» و«صب العذاب على من سب الأصحاب». مات سنة ١٣٤٢ هـ. الأعلام (١٧٢/٧).

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٤٠/٣) لأبي الثناء، شهاب الدين السيد محمود أفندي الألويسي البغدادي. مطبعة دار الفكر.

٥ - قال ابن الجوزي^(١): « وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١١٥﴾ » قال الزجاج^(٢): « لا تكن مخاصماً ولا دافعاً عن خائن » واختلفوا هل خاصم عنه أم لا؟ على قولين:

أحدهما: (أنه قام خطيباً فعذره)

الثاني: (أنه همَّ بذلك ولم يفعله) قال القاضي أبو يعلى^(٣): «وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لأن الله عاتب نبيه على مثل ذلك»^(٤).

٦ - قال الواحدي^(٥) - رحمه الله - في هذه الآية: «أنزلت كلها في قصة واحدة، وذلك أن رجلاً من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق، أحد بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جار يقال له قتادة بن النعمان^(٦)، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل

(١) ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي بن محمد، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، الإمام العلامة، حافظ الطرق، وواعظ الآفاق، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم من التفسير والحديث والفقهاء والوعظ والزهد والتاريخ والطب وغير ذلك، عرف جدهم بالجوزي لجوزة كانت في دارهم بواسطة لم يكن بها جوزة سواها. طبقات المفسرين (٢٧٦/١) ..

(٢) الزجاج: الإمام، نحوي زمانه، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد السري الزجاج البغدادي مصنف كتاب معاني القرآن. توفي سنة ٣١١هـ. السير (٣٦٠/١٤).

(٣) القاضي أبو يعلى: محمد بن الحسين بن محمد، خلف الفراء، عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون، من أهل بغداد، له تصانيف عديدة، وكان شيخ الحنابلة. الأعلام (٩٩/٦).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (١٩٢/٢)، للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، مطبعة دار المكتب الإسلامي.

(٥) الواحدي: علي بن أحمد بن محمد بن علي الإمام أبو الحسن الواحدي النيسابوري، كان أوحده عصره في التفسير، صنف التفاسير الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز. توفي سنة ٤٦٨هـ. طبقات المفسرين (٣٩٤/١).

(٦) قتادة بن النعمان بن زيد بن سواد بن ظفر الأوسي. قال البخاري: له صحبة وشهد بدرًا، =

الدقيق ينثر من خرق الجراب حتى انتهى وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما أخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إليّ طعمة بن أبيرق وشهد له ناس من اليهود على ذلك فقال بنو ظفر - وهم قوم طعمة -: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فكلّموه في ذلك وسألوه (أن يجادل عن صاحبهم) وقالوا: إذا لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبريء اليهود، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل - وكان هواه معهم - وأن يعاقب اليهود، حتى أنزل الله - تعالى -: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ الآية كلها. وهذا قول جماعة من المفسرين والمحدثين^(١).

الآية الثانية: قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾^(٢).

١ - قال ابن كثير: «يخبر الله - تعالى - أنه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه وأتابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم كما قال - تعالى -: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾^(٣) وقال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾^(٤) وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا

= وذهبت عنه يوم أحد فجاء النبي ﷺ فردها. أعطاه النبي ﷺ عرجون فأضاء له وأمره أن يضرب به سواء في بيته قبل أن يتكلم لأنه شيطان. عاش ٦٥ سنة. الإصابة (١٣٩/٨).

(١) أسباب نزول القرآن (٢١٠ - ٢١١)، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق السيد أحمد صقر. الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٧هـ، مطبعة دار القبلة.

(٢) سورة الحج، الآية ٣٨.

(٣) سورة الزمر، الآية ٣٦.

(٤) سورة الطلاق، الآية ٣.

يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أي: لا يحب من اتصف بهذا: (وهي الخيانة في العهود والمواثيق التي لا يفي بما قال والكفر الجحد للنعم فلا يتعرف بها)^(١).

٢ - قال الزمخشري: «خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم (وهم الخونة والكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها)»^(٢).

٣ - قال الرازي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ﴾ ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم وإن كان في الحقيقة أن يدفع بأس المشركين، فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفة ثم قال: وفي هذه الآية بشارة المؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم، أما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ فالمعنى أنه يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب صدّهم، وهو الخوّان الكفور: أي خوان في أمانة الله كفور لنعمته، ونظيره قوله - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾^(٣) قال مقاتل^(٤): «أقروا بالصانع وعبدوا غيره، فأئى خيانة أعظم من هذا»^(٥).

٤ - قال البغوي^(٦): ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ يعني خوان في أمانة الله

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٠).

(٢) الكشاف (٣/١٥٩) مختصراً.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٧.

(٤) مقاتل بن حيان النبطي، صدوق فاضل من السادسة. مات سنة ١٥٠هـ. التقريب ص ٥٤٤ رقم ٦٨٦٧.

(٥) مفاتيح الغيب (٣٩/٢٣، ٤٠).

(٦) البغوي: الحسين بن محمد بن علي الأصبهاني، كثير الحديث صاحب معرفة وإتقان، له =

كفور لنعمته. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «خانوا الله فجعلوا معه شريكًا وكفروا نعمه». قال الزجاج: «من تقرب إلى الأصنام بذبيحة وذكر عليها غير الله فهو خَوَّانٌ كفور»^(١).

٥ - قال الشوكاني: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ﴾:

أ - قيل: إن إيراد هذه الصيغة للمبالغة.

ب - وقيل: للدلالة على تكرار الواقع، والمعنى: يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين.

ج - وقيل: يعلي حجتهم.

د - وقيل: يوفقهم.

والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين، وأنه المتولي للمدافعة عنهم، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ مقررمة لمضمون الجملة الأولى: فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة بأنهم مبعوضون إلى الله غير محبوبين له، وإيراد صيغتي المبالغة: للدلالة على أنهم كذلك في الواقع لإخراج من كان دون خيانتهم، أو كفر دون كفرهم^(٢).

٦ - قال الشيخ السعدي: «هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدفع عنهم كل مكروه ويدفع عنهم - بسبب إيمانهم - كل شر من شرور الكفار وشرور ووسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ويحمل عنهم عند نزول

= مصنفات، منها شرح السنة، والجمع بين الصحيحين، والمصابيح. مات سنة ٥١٦هـ -
بمرور الروز وبها كانت إقامته. طبقات المفسرين (١/١٦٠) رقم ١٥٣.

(١) معالم التنزيل (٣/٢٨٩) للبخاري، مطبعة دار المعرفة.

(٢) فتح القدير (٣/٤٥٦) مختصرًا.

المكارة ما لا يتحملوه، فيخفف عنهم غاية التخفيف، وكل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه فمستقلٌ ومستكثر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿٢٨﴾ أي: خائن في أمانته التي حملة الله إياها فيبخر حقوق الله عليه ويخونها ويخون الخلق ﴿كَفُورٍ﴾ ﴿٢٨﴾ لنعم الله يوالي الله عليه الأمان ويتولى منه الكفر والعصيان فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقته وسيجازه على كفره وخيانتة، ومفهوم الآية أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه»^(١).

الآية الثالثة: قوله - تعالى -: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْيسِيَةً يَجْرِفُونَ الْكَلِمَةَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾. قال ابن كثير: «﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ أي: بسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم: أي أبعدهم عن الحق وطردهم عن الهدى وجعلنا قلوبهم قاسية أي: فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿يَجْرِفُونَ الْكَلِمَةَ عَن مَّوَاضِعِهَا﴾ أي: فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل - عيادًا بالله من ذلك - ﴿وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: وتركوا العمل به رغبةً عنه، وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله - تعالى - التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصار إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمه ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٢٣) للشيخ السعدي، مطبعة دار المدني.

(٢) سورة المائدة، الآية ١٣.

وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر كما قال بعض السلف: «ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه». وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) يعني به الصفيح عن أساء إليك، قال قتادة: هذه الآية: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ منسوخة^(٢) بقوله - تعالى -: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٣).

قال القرطبي: ﴿عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ والخائنة الخيانة، قال قتادة: «وهذا جائز في اللغة ويكون مثل قولهم قائله بمعنى قيلولة، وقيل: هو نعت لمحذوف، والتقدير: فرقة خائنة.

وقد تقع خائنة للواحد كما يقال رجل نسابة وعلامة فخائنة على هذا للمبالغة. يقال: رجل خائنة إذا بالغت في وصفه بالخيانة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿عَلَى خَائِنَةٍ﴾ على معصية، وقيل: كذب وفجور وكانت خيانتهم نقضهم العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ كيوم الأحزاب^(٤) وغير ذلك من همهم بقتله وسبه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فاعف عنهم لم يخونوا فهو استثناء متصل من الهاء والميم في ﴿خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ في معناه قولان:

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٥٤).

(٢) سورة التوبة، الآية ٢٩.

(٣) يوم الأحزاب: المراد بها غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق. وقعت في شوال سنة خمس من الهجرة وسميت بالأحزاب لأن اليهود حذبوا مشركي الجزيرة على حرب النبي ﷺ، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم. انظر: سيرة ابن هشام (٣/١٦٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٦/١١٦).

أ - فاعف عنهم واصفح مادام بينك وبينهم عهد وهم أهل ذمة .

ب - والقول الآخر: أنه منسوخ بآية السيف، وقيل بقوله - عز وجل -: ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ... ﴾^(١) .

قال السيوطي^(٢): «فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿ فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ ﴾ قال: هو ميثاق أخذه الله على التوراة فنقضوه. وقال قتادة في قوله - تعالى -: ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ نسوا كتاب الله بين أظهرهم وعهدهم الذي عهده إليهم وأمره الذي أمرهم به، وضيعوا فرائضه وعطلوا حدوده وقتلوا نسله ونبذوا كتابه. ويقول ابن مسعود - رضي الله عنه -: إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها. وقال مجاهد: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ يقول: على خيانة وكذب وفجور وفي قوله: ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ قال: لم يؤمر يومئذ بقتالهم فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح ثم نسخ ذلك في براءة^(٣) بقوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾^(٤). قال القاسمي^(٥): ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أي: خيانة على أنها مصدر (لاغية وكاذبة) أو طائفة

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٨ .

(٢) السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف. كان يلقب بابن الكتب؛ لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب. من كتبه الإتقان في علوم القرآن، والألفية في المصطلح، وتدريب الراوي، والدر المنثور في التفسير بالمأثور. توفي سنة ٩١١هـ. الأعلام (٣/٣٠١).

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للحافظ جلال الدين أبي الفضل، عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي (٣/٤١، ٤٢) مطبعة دار الفكر، الطبعة الثانية.

(٤) سورة التوبة، الآية ٢٩ .

(٥) القاسمي: محمد جمال الدين القاسمي، علامة الشام، صاحب تفسير محاسن التأويل، يقع في سبعة عشر جزءاً. مات سنة ١٣٣٢هـ. انظر: مقدمة تفسير القاسمي.

خائنة يعني أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يتركونها أو يكتُمونها فلا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم المؤمنون منهم^(١).

قال الرازي: «﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنُهُمْ﴾ فيه مسألتان:

١ - الأول: بتكذيب الرسل وقتل الأنبياء.

٢ - الثاني: بكتمانهم صفة محمد ﷺ.

٣ - الثالث: مجموع هذه الأمور.

ب - المسألة الثانية في تفسير اللعن وجوه:

١ - الأول: قال عطاء^(٢): لعناهم أي أخرجناهم من رحمتنا.

٢ - الثاني: قال مقاتل: مسخناهم حتى صاروا قردة وخنزير.

٣ - الثالث: قال ابن عباس: ضربنا الجزية عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وفي الخائنة وجهان:

أ - الأول: (إن الخائنة بمعنى مصدر) ونظيره كثير كالكافية والعافية

قال - تعالى -: ﴿فَأَهْلِكُوا بِالطَّائِفَةِ﴾^(٣) أي: بالطغيان، وقال

- تعالى -: ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾^(٤) أي: كذب.

ب - الثاني: (أن يقال الخائنة صفة) والمعنى تطلع على فرقة خائنة

أو نفس خائنة وقيل أراد الخائن والهاء للمبالغة كعلامة ونسابة. ثم

قال - تعالى -: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾^(٥).

أ - وهم الذين آمنوا كعبدالله بن سلام^(٥) وأصحابه.

(١) محاسن التأويل، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (١٣٣/٦) مطبعة دار الفكر، الطبعة الثانية.

(٢) عطاء بن أبي مسلم، أبو عثمان الخراساني، واسم أبيه ميسرة، صدوق كثيرًا ويرسل ويدلس، من الخامسة. مات سنة ١٣٥هـ. التقريب ص ٣٩٢ رقم ٤٦٠٠.

(٣) سورة الحاقة، الآية ٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٣

(٥) عبدالله بن سلام، الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف بني الخزرج، مشهور له أحاديث =

ب - وقيل يحتمل أن يكون هذا القليل من الذين بقوا على الكفر لكنهم بقوا على العهد ولم يخونوا فيه .

ثم قال : « **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ** » وفيه قولان :

أ - الأول أنه منسوخ بآية السيف ؛ وذلك لأنه عفو وصفح عن الكفار ولا شك أنه منسوخ بآية السيف .

ب - القول الثاني : أنه غير منسوخ^(١) .

قال الشيخ السعدي : « **فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ** » أي بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات :

الأولى : أن « **لَعَنَهُمْ** » أي طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم الذي هو سببها الأعظم .

الثانية : قوله « **وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً** » أي : غليظة لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والتذر فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف ، وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده معها الهدى والخير إلا شراً .

الثالثة : أنهم « **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** » أي : ابتلوا بالتغيير والتبديل فيجعلون الكلام الذي أراد الله له معنى غير ما أراد الله ولا رسوله .

الرابعة : أنهم « **وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** » فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل على موسى فنسوا حظاً منه ، وهذا شامل لنسيان علمه وأنهم نسوه وضاع منهم ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منهم لهم وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك فلم يوفقوا

= فضل . مات بالمدينة سنة ٤٣هـ . التقريب ص ٣٠٧ رقم ٣٣٧٩ . الإصابة في تمييز الصحابة (٣٢٠/٢) لابن حجر .
(١) مفاتيح الغيب (٩٢/١١) مختصراً .

للقيام بما أمروا به، ويستدل على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه بما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أي خيانتته لله ولعباده المؤمنين، ومن أعظم الخيانة منهم: كتمهم الحق عن من يعظّمهم ويحسن فيهم الظن وإبقاؤهم على كفرهم فهذه خيانة عظيمة وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم فكل من لم يقم بما أمر الله وأخذ به عليه الالتزام بأن له نصيباً من اللعنة والقسوة والابتلاء بتحريف الكلم وأنه لا يوفقه للصواب ونسيان حظّ مما ذكر به وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله - تعالى - ما ذكروا به ﴿ حَظًّا ﴾؛ لأنه هو أعظم الحقوق وماعداه فإنما هي حظوظ دنيوية كما قال - تعالى - : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (١). وقال الله - تعالى - في الحظّ النافع (٢) : ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣).

(١) سورة القصص، الآية ٧٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٤٦٧).

(٣) سورة فصلت، الآية ٣٥.

الفصل الثاني «حديث السنة عن الكيد وتوابعه»

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: دراسة الأحاديث دراسة موضوعية وحديثية.

المبحث الثاني: أساليب السنة في الحديث عن الكيد.

المبحث الأول

(دراسة الأحاديث دراسة موضوعية وحديثية)

إن من سنن الله الكونية في خلقه على هذه الأرض أن تظل المدافعة بين الحق والباطل والمعروف والمنكر، والخير والشر إلى قيام الساعة، ولقد وردت أحاديث كثيرة تبين هذا الأمر الذي ورد ذكره في كثير من الآيات كما ذكرنا سابقاً، ولقد كان الكيد بأهل الإيمان يتخذ صوراً متعددة، ومن جهات عدة مما جعل أهل الإسلام يتكبدون كثيراً من المصاعب لرد الكيد عنهم أو دفع أكبر قدر منه. ولقد كان الرسول ﷺ القدوة في التعامل مع كل جهة بما يناسبها، ومع كل نوع بما يستحق وسوف يأتي بيان ذلك فيما يلي:

١ - كيد إبليس:

لقد كان العدو الأول في هذه المكائد إبليس - عليه لعنة الله -، فما من طريق إلا وسلكه لإيقاع عباد الله في الهلكة، والأشد من ذلك أن هذا العدو لا يُرى ولا يمكن رصده بسهولة، ولا يكل، ولا يمل من تتبع المؤمن حتى يظفر منه ولو بالشيء اليسير، ولقد شكى الصحابة ما يجدونه في صدورهم من الإثم الذي لا يتجرأ أحد منهم على ذكره، فبيّن لهم النبي ﷺ أنه لا يضر ذلك الكيد ما لم يتجاوز حديث النفس.

فعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء، لأن يكون حممه أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(١).

عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء، لأن أخرّ من السماء أحب إليّ من

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في الأدب، باب في رد الوسوسة (٧٥١/٢) رقم (٥١١٢)، وإسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩٦٣/٣).

أن أتكلمه؟ قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(١). فالشيطان حريص على أن يغري الإنسان ويفتنه ببعض مفاتن الدنيا، فإن ظل حديث نفس، ولم يعمل بذلك، كتبها الله له حسنة، وذلك كما ورد في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه - تبارك وتعالى - قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك: فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها، كتبها الله - عز وجل - عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همَّ بسيئة فلم يعلمها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعلمها، كتبها الله سيئة واحدة»^(٢). فقال - سبحانه وتعالى - في السيئة التي همَّ بها ثم تركها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، فأكدّها بكاملة، وإن عملها، كتبها سيئة واحدة، فأكدّ تقليلها بواحدة، ولم يؤكدّها بكاملة، فله الحمد والمنة، سبحانه لا نحصي ثناء عليه^(٣) فجوده لا ينقطع، ورحمته لا تبطئ، وكرمه وعطاؤه لا يحصى.

٢ - كيد الكافرين بنبي الله إبراهيم - عليه السلام -:

لو تتبعنا الأحاديث التي وردت في المكاييد، وعلى من وقعت، نجدها أكثر ما تحدث على أنبياء الله، وعباده الصالحين ومنهم خليل الرحمن، إبراهيم - عليه السلام -، الذي حدث له من المكاييد ما هو بحاجة إلى بحث منفرد، فعن أبي هريرة - رضي الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٩٧ (٣/٣٥١)، وإسناده صحيح، وصححه الشيخ أحمد شاکر - رحمه الله -.

(٢) رواه البخاري في الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو سيئة، رقم ٤٦٩١، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب، رقم ١٣١.

(٣) الوافي في شرح الأربعين النووية، تأليف مصطفى البغا ص ٣٢٩، مكتبة دار التراث.

عنه - قال: ولم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات،
ثنتين منهن في ذات الله - عز وجل -: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(١) وقوله: ﴿بَلْ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى
جبار من الجبابرة، فقبل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن
الناس، فأرسل إليه يسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى
سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن
هذا سأل عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما
دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ. فقال: أدعي الله ولا أضرك،
فدعت فأطلق فدعا بعض حجبه فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان،
إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأوماً
بيده: مهيم؟^(٢) قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره،
وأخدم هاجر. قال أبوهريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء^(٣) وفيه
أبلغ الدليل وأوضحه على أن الله - تعالى - يغار على أعراض أوليائه
المؤمنين وعباده الصالحين. فيدفع عنهم أذى الأشرار، والكفار،
والفجار، في أشد اللحظات وأدقها وأحرجها، فإبراهيم في هذا
الموقف كان من حيث القوة المادية أضعف شيء بالنسبة لهذا
الجبار، فلا نصير له من قوة مادية يمكن أن تحول بينه وبين أذى
هذا الفاجر، ولذلك فإن إبراهيم وهو النبي الكريم لابد وأن يكون
قد استشعر ضعفه وحاجته المطلقة إلى الله وإلى عون الله ونصرته،
فكذلك الحال بالنسبة إلى زوجة سارة، فجاء عون الله لهما سريعاً
وغوثة مديداً، وهكذا كلما كان المؤمن لا يولي على شيء من أمر
الدنيا وإنما يتعلق بالله وجنابه الكريم أملاً وطمعاً، وافتقاراً

(١) تقدم المعنى ص ١١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في أحاديث الأنبياء، باب قوله - تعالى -: ﴿وَأَتَّخِذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾، رقم ٣٣٥٨، فتح الباري (٦/٤٤٧).

واضطرابًا، كلما كان عطاء الله له سريعًا كثيرًا، والأمثلة والشواهد على هذا سوى قصة إبراهيم - عليه السلام - زوجه كثيرة وكثيرة، يخرج إبراهيم من قومه طريدًا شريدًا بعد أن حاولوا إحراقه بالنار، فلم يمكن الله لهم ذلك، فكان الإخراج بعد أن يثس حتى من إيمان أبيه أقرب الناس إليه، ولم يؤمن معه إلا قليل، فإذا به وهو غريب لا مجير ولا نصير، إذا به يفاجأ بجبار يسأله عن ترافقه، لكن إبراهيم علم أنه لا يستطيع بالأسباب المادية أن يدافع أو يقاوم فلجأ إلى مسبب الأسباب - سبحانه -، وظل يناجيه ويسأله، فرد الله كيد الفاجر، وأكرمه بهاجر، وهذا فضل الله يؤتيه من كان قريبًا منه، سائرًا على شرعه، مستنًا بسنة نبيه ﷺ.

٣ - كيد الكافرين بالنبي ﷺ

وتمضي المكاييد على أنبياء الله، ومن آبائهم وأزواجهم وأبنائهم يلاقون الإعراض والتكذيب. فالنبي ﷺ يخرج مهاجرًا إلى المدينة بعيدًا عن قومه، لكن نعمة الكفر أبت عليهم إلا الكيد به، ومحاربتة، والعداوة له، بل لقد أجموا الأوس والخزرج على حربته، فباء كيدهم بالفشل، فلجأوا لليهود ليفتكوا به فكان هلاكهم وإخراجهم. قال أبو داود - رحمه الله -: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، عن عبدالرزاق، عن معمر، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان، من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم أويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبدالله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي

ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم». فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ، تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة^(١) والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين (خَدَم)^(٢) نساءكم شيء، وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابتهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر^(٣)، ولكن الله نصر عبده وأعز جنده. ولقد شرع لنا النبي ﷺ الطريقة الصحيحة في رد الكيد من أول خطوة يخطوها إلى دار هجرته، فمع توكله التام على ربه، إلا أنه جهَّز الركاب والرفيق والدليل والطعام، بل لقد كان متحرِّياً لكيد عدوه كل يوم. فعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ، قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين - ثم ساق ما لقي أبوبكر - رضي الله عنه - من أذى قريش، ثم صحبته في هجرته ﷺ. ومما ذكرته فعل أخيها، حيث قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبوبكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام

(١) الحلقة: السلاح، وقيل: أراد بها الدرع. لسان العرب (٦٥/١٠).

(٢) قال في القاموس: «الخَدَمَة - محرّكة -: ... الخلاخل والساق. جمعه خُدَمٌ وخدام، ككتاب ومعظم موضع الخلاخل...» ص ١٤٢١. وانظر: معالم السنن، للخطابي، (٢٣٤/٤)، طبعة مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٧هـ.

(٣) رجال سند أبي داود كلهم رجال الصحيحين إلا محمد بن داود بن سفيان، وقد قال الحافظ فيه: محمد بن داود بن سفيان: مقبول، من الحادية عشرة، روى له أبو داود. التقريب رقم ٥٨٦٨، ص ٤٧٧. وقد صحح الحديث الألباني (٥٨٣/٢).

وهذا الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الخراج، في باب خبر بني النضير (١٥٦/٣)، وهو في اختصار المنذري (٢٣٤/٤) مع معالم السنن، طبعة جلاله الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله -.

شاب ثَقَفٌ لَقِنٌ، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كباتت، فلا يسمع أمرًا يكتدان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام^(١)، وهكذا ينبغي لحماية الإسلام وقادته أن يتابعوا عن كثب سير الأحداث، وكيد الأعداء؛ حتى يتخذوا التدابير الكافية لرده أو التخفيف منه، مع لزومهم الالتجاء إلى ربهم - سبحانه عز وجل - الذي تكفل لأولياته بالنصر، ولأعدائه بالهلكة.

٤ - الوعيد الشديد لمن كاد أهل المدينة:

ومن إعزاز الله وكرمه لنبيه وأصحابه وأهل الإيمان من بعده، أن يجعل المدينة حرماً آمناً، بل توعد الله - سبحانه وتعالى - من أراد أهلها بسوء أن يهلكه الله ويذهب أثره كما يذهب أثر الملح إذا أذيب في الماء، وهذا فيه بيان لعظمة الله وقدرته في أخذه للكافرين الكائدين بسبب فعلهم. فعن عائشة^(٢) - هي بنت سعد - قالت: سمعت سعداً - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»^(٣). قال ابن حجر: «إلا انماع» أي: ذاب. وفي رواية مسلم: «من أراد أهل المدينة بسوء، أذابه الله كما يذوب الملح في الماء»^(٤). وفي حديث آخر له: «ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء»^(٥). قال عياض: هذه الزيادة

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، رقم ٣٩٠٥ فتح الباري (٢١٧/٧).

(٢) عائشة بنت سعد بن أبي وقاص الزهرية المدنية، ثقة من الرابعة. عمّرت، أدركها مالك، ووهم من زعم أن لها رؤية. التقريب ٤٧٠.

(٣) أخرجه البخاري، في فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة، رقم ١٨٧٧، فتح الباري (١١٢/٤).

(٤) رواه مسلم (١٣٨٧).

(٥) رواه مسلم (١٣٦٣).

ترفع إشكال الحديث الآخر، وتوضح أن هذا حكمه في الآخرة. وفي النسائي: «من أخاف أهل المدينة ظالمًا لهم، أخافه الله، وكانت عليه لعنة الله^(١)، هكذا يكون نصر الله لعباده وأوليائه بعد أخذهم بالأسباب تجدهم رافعين أكف الضراعة إلى ربهم أن يؤيدهم وينصرهم ويدفع عنهم كيد عدوهم.

٥ - دعاء النبي ﷺ ربه بالمكر بالأعداء:

لقد كان دأبه ﷺ مع ربه - سبحانه عز وجل - التضرع والالتجاء والاعتصام، فهو ﷺ يمثل كمال العبودية مع كمال الذل وصدق التضرع، وكان - عليه الصلاة والسلام - يستنصر بربه ويستدفع به كيد الكائدين ومكر الماكرين. ومما ورد في دعائه ما رواه ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يدعو: «رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهداي إلي، وانصرني على من بغى علي. اللهم اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطوعاً، إليك مخبتاً^(٢) أو منياً. ربّ تقبل توبتي، واغسل حوبتي وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة^(٣) قلبي^(٤). هكذا ينبغي على دعاة الإسلام أن لا يغتر أحدهم بإعداده المادي وإن كان ذلك من

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (٤٨٣/٢). وصححه الألباني في الصحيحة (٣٨٣/٥).

(٢) الإخبات: الخشوع والتواضع. النهاية (٤/٢).

(٣) السخيمة: الحقد في النفس. النهاية (٣٥١/٢).

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، رقم ١٥١٠ (٤٧٤/١).

والترمذي في سننه، رقم ٣٥٥١ (٥١٧/٥) وقال: حديث حسن صحيح.

والنسائي في السنن الكبرى، رقم ١٠٤٤٣ (١٥٥/٦).

وابن ماجه في سننه رقم ٣٨٣٠ (١٢٥٩/٢).

وأحمد في المسند (٢٢٧/١).

والحاكم في المستدرک (٧٠١/١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الواجبات، لكن الدعاء والالتجاء هو الأساس الذي ينبغي أن يغرس في النفوس، فلا مفر ولا ناصر إلا الله، فكيف ينصر من غفل عنه.

٦ - الخيانة من صفات المنافقين:

الخيانة داء يصيب بعض النفوس الدنيئة التي تريد الوصول إلى شهواتها بكل وسيلة، سواءً كان ذلك في المعاملات، أو الأخلاق والسلوك، أو العبادات، ولقد وردت نصوص الكتاب والسنة ببيان ذلك، ومما يشير إلى ذلك ما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١). فالحديث بين أن الخيانة قد تكون بالقول أو النية أو العقل. قال ابن حجر: ووجه الاقتصار على العلامات الثلاث أنها منه على ما عداها؛ إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول والعقل والنية، فنه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد العقل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف^(٢)، وفي هذا دلالة على أن الله - عز وجل - يحب أن يكون عباده المؤمنون على صفات حميدة في أقوالهم ونياتهم، وأفعالهم لا يناقض بعضها بعضاً. وقد يظهر في مجتمعات المسلمين من يظهر من الأقوال والأفعال ما يبين صلاحه وصدقه؛ لكي ينال من المسلمين، أو يطلع على سرائرهم أو يبتز أموالهم، لذا وجب على أهل الإسلام أن يستخدموا فراستهم في معرفة العدو من الصديق، والهدي الظاهري، والأعمال الظاهرية ليست وحدها يُقَوَّمُ بها الأشخاص، والشاعر يقول:

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الفتح (١/١١١).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١/٩٠).

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم^(١)

وكل كلمة تحمل رداء قلب صاحبها، والوجه، والعين تتكلم وإن لم تنطق، وتزداد فراسة المؤمن بزيادة تقواه، والخونة لهم كلمات وأخطاء في نظراتهم وكلماتهم، وحركاتهم، وانفعالاتهم تبدو منها أعاصير الخيانة، والمؤمن لا بد أن يكون طاهرًا نقيًا في ظاهره وباطنه، فلا انتقاص، ولا ازدراء، ولا امتهان للآخرين، بسبب لون أو جنس أو طبقة؛ لأن هذه نقيصة، وهي داخلة في مسمى الخيانة، والمسلم لا يكون مسلمًا إذا وقع في صفة من هذه الصفات الثلاث؛ لأن هذه الصفات قبيحة، وهي تناقض الإسلام. فلا يمكن أن يكون إيمان بدون أمانة، ولا يمكن أن يجتمع الإيمان مع الخيانة، ولعل ما يبين ذلك ما ورد في الحديث الشريف الذي يرويه أبوهريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع الصدق والكذب جميعًا، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعًا»^(٢). وليس معنى ذلك أن المؤمن لا يقع في الخيانة، بل قد يحصل له ذلك، ولكن يستحل ذلك بنوع من التأول وقد حدث ذلك في عهد النبي ﷺ من بعض أصحابه من البدرين عندما سئل عن سبب ذلك تبين أن الصحابي كان مجتهدًا فلم يحالفه الصواب في اجتهاده، لذلك عذره النبي ﷺ، كما ورد في الحديث الذي يبين الحادثة بالتفصيل. فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: بعثني رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام^(٣)

(١) من معلقة زهير بن أبي سلمى. انظر: شرح القصائد السبع الطوال ص ٢٨٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤١/٣).

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزيز بن قصي بن كلاب، أبو عبد الله، القرشي الأسدي، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قتل سنة ٣٦هـ بعد منصرفه من وقعة =

وأبا مرثد الغنوي^(١) - وكلنا فارس -، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(٢)؛ فإن بها امرأة من المشركين معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة^(٣) إلى المشركين». قال: فأدركناها تسير على جمل لها حيث قال لنا رسول الله ﷺ. قال: قلنا: أين الكتاب الذي معك؟ قالت: ما معي كتاب، فأنخنا بها، فابتغيناه في رحلها فما وجدنا شيئاً. قال صاحبها: ما نرى كتاباً. قال: قلت: لقد علمت ما كذب رسول الله ﷺ، والذي يُحلف به لتخرجن الكتاب أو لأجردنك. قال: فلما رأيت الجد مني أهوت بيدها إلى حُجْزَتِها^(٤) - وهي محتجزة بكساء - فأخرجت الكتاب. قال: فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ما حملك يا حاطب على ما صنعت؟» قال: ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، وما غيرت ولا بدلت؛ أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس من أصحابك هناك إلا وله من يدفع الله به عن أهله وماله. قال: «صدق، فلا تقولوا له إلا خيراً». قال عمر بن الخطاب: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، دعني فأضرب عنقه: قال: فقال: «يا عمر وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة». قال: فدمعت عينا عمر. وقال: الله ورسوله

= الجمل. التقريب ٢١٤، رقم ٢٠٠٣.

(١) أبو مرثد الغنوي، كنان بن الحصين، سكن الشام، وروى عن النبي ﷺ. الإصابة ١٠٢٣ (١٥/١٢).

(٢) روضة خاخ: موضع بين الحرمين بالقرب من حمراء الأسد من المدينة. معجم البلدان (٣٣٥/٢).

(٣) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعيب بن سهل اللخمي، اتفقوا على شهوده بدرًا، وثبت في الصحيحين. الإصابة رقم ١٥٣٤ (١٩٢/٢).

(٤) قال في القاموس: «حَجَزَةٌ: كلما تشد به وسطك لتشمر به ثيابك، والحُجْزَةُ بالضم: معقد الإزار، والحجزة من السراويل موضع التكة...» ص ٦٥٣، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة. والمعنى أنها أخرجته من حزامها الذي في وسطها.

أعلم^(١).

وحدث في قصة أبي لبابة^(٢) عندما أشار لليهود بالذبح ما يؤكد على أن المسلم قد يقع في الخطأ، لكن لا يمكن أن يقع في الخيانة متعمداً فعلها، وقد يقع من المسلم التجاوز بسبب علة قاهرة، فالشرع جعل لذلك مخرجاً وقُعدت في ذلك قواعد، ومنها: الضرورات تبيح المحظورات، وما حصل لعمار - رضي الله عنه - ونزول القرآن في أمره يزيد الأمر وضوحاً. قال - تعالى -: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

وقد ورد في سبب نزل الآية: «لأن المشركين عذبوا عمار بن ياسر^(٤)، وأمره بأن يسب النبي ﷺ، وفعل ذلك فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: يارسول الله، ما تركت حتى سببتك وذكرت آلتهم بخير. قال: «وكيف تجد قلبك» قال: مطمئناً بالإيمان^(٥). وقلب المؤمن وعاء لا يمكن أن يجتمع فيه الطيب والخبيث، والطهر والنجاسة، كما ورد في الحديث عن أبي أمامة^(٦) قال: قال رسول

- (١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب (من نظر من يحذر على المسلمين ليتبين أمره)، رقم ٦٢٥٩، الفتح (٤٩/١١). ومسلم في فضائل الصحابة، باب (من فضائل أهل بدر - رضي الله عنهم -، وقصة حاطب بن أبي بلتعة)، رقم ١٦١ (٢٤٩٤) (٤/١٩٤١).
- (٢) أبولبابة بن عبدالمنذر الأنصاري المدني، اسمه بشير، وقيل: رفاعة بن المنذر، صحابي مشهور، وكان أحد النقباء، وعاش إلى خلافة علي. التقريب ص ٤٠٨، رقم ٤٨٣٦.
- (٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
- (٤) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك العنسي، أبواليقظان، مولى بني مخزوم، صحابي جليل مشهور، من السابقين الأولين، بدرى قتل مع علي بصفين سنة ٣٧هـ وله ثلاث وتسعون سنة. التقريب ٤٠٨، رقم ٤٨٣٦.
- (٥) انظر: تفسير القرآن العظيم (٩١١/٣).
- (٦) أبوأمامة: صُدِّي - بالتصغير - ابن عجلان الباهلي، صحابي مشهور، سكن الشام، ومات بها سنة ٨٦هـ. التقريب ٢٧٦، رقم ٢٩٢٣.

الله ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب»^(١)، ولا يمكن أن يطبق هذا الدين - ويظهر بمظهره الصحيح حتى يصلح الظاهر والباطن معاً، والتفريط سواء كان في النواحي العقدية، أو في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو في جزئية من جزئيات هذا الدين إنما هو من صفات الخونة، وكل خيانة مهما استهان بها الناس تمثل مسماراً يخرق سفينة النجاة في الدنيا قبل الآخرة. وفيما يلي بعض ما ورد في أحاديث الرسول ﷺ، حيث يبين لنا فيها طرق الخيانة، ومحاولة الابتعاد عنها: والدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ للبعد عن هذه الصفة ما رواه أبو هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع؛ فإنه بشس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بثست البطانة»^(٢)، وهو - سبحانه قد اصطفاهم وطهرهم -، ومع ذلك كان النبي ﷺ يستعيذ ويلتجىء بربه من الوقوع في هذه الخصلة باطناً أو ظاهراً. قال الطيبي^(٣): «في

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٥)، وأورده ابن عدي في الضعفاء، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، عن النبي ﷺ، وقال: وهذا الحديث عن الأعمش، عن أبي إسحاق غريب. ورواه - أيضاً - عن ابن عمر، وفي إسناده عبيد الله بن الوليد، وهو ضعيف. وقال الهيثمي: وفيه انقطاع أي حديث الأعمش، عن أبي أمامة. ورواه البزار وأبو يعلى بلفظ: «يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب». وقال المنذري: رواه رواة الصحيح. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر: سنده قوي. انظر: الكامل في الضعفاء، لابن عدي (٤٤/١)، فيض القدير، للمناوي (٤٦٣/٦) (٢٤١)، وضعفه الألباني في «السنة» (١١٤، ١١٥).

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة، باب الاستعاذة، رقم ١٥٤٧ (٤٨٣/١)، وإسناده صحيح. انظر: فيض القدير (١٥٠/٢)، وحسنه الألباني (٢٨٨/١).

(٣) الطيبي: الحسن بن محمد بن عبد الله، شرف الدين، الإمام المشهور العلامة. قال ابن حجر: كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن، مقبلاً على نشر العلم، متواضعاً، شرح «الكشاف» وأجاب عما يخلف فيه الزمخشري أهل السنة، صنع في المعاني كتاباً سماه «التبيان» وتفسير القرآن وشرح مشكاة المصابيح، مات سنة ٧٤٣هـ. طبقات المفسرين (١٤٧/١) رقم ١٤١.

قوله ﷺ «وأعوذ بك من الخيانة» هي مخالفة الحق بنقض العهد في السر. والأظهر أنها شاملة لجميع التكاليف الشرعية^(١)، لذا كان النبي ﷺ معلماً للصحابة البعد عن هذه الخصلة الذميمة حتى مع الخونة من أعداء الدين، ليس هذا فحسب، بل مع من ارتكب أعظم جرم في حق نفسه وهو ارتداده عن دين الله، فعن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة، اختبأ عبدالله بن سعد بن أبي السرح^(٢) عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله بايع عبدالله، فرفع رأسه فنظر ثلاثاً، كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله؟». فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»^(٣). قال الخطابي^(٤) عند قوله ﷺ «أن تكون له خائنة الأعين»: «هو أن يضم في قلبه غير ما يظهره للناس، فإذا كف لسانه وأوماً بعينه إلى ذلك فقد خان، وقد كان ظهور تلك الخيانة من قبيل عينه، فسميت خائنة الأعين»^(٥).

(١) انظر: عون المعبود، شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب، محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية (٤٠٦/٤) الطبعة الثانية، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(٢) عبدالله بن سعد بن أبي السرح، بن الحارث القرشي، صحابي مات سنة تسع وخمسين. الإصابة (١٠٠/٦)، رقم ٤٧٠٢.

(٣) أخرجه أبوداود في الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، رقم ٤٣٥٩ (٥٣٢/٢)، وإسناده حسن، وقد تقدّم.

(٤) الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، أبوسليمان، فقيه محدث من أهل بست، من بلاد كامل، من نسل زيد بن الخطاب. معالم السنن في شرح أبي داود، وإصلاح غلط المحدّثين، وغريب الحديث، توفي سنة ٣٨٨هـ، في بست. الأعلام (٢٧٣/٢).

(٥) عون المعبود (١٤/٢).

٧ - حرمة خيانة المسلم:

لقد وجه النبي ﷺ المسلمين على التعامل الصحيح مع بعضهم البعض، وبين وأنذر أمته من الوقوع فيما حرم الله - عز وجل - على عباده المؤمنين، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله. كل المسلم على المسلم حرام، عرضه، وماله، ودمه. التقوى ههنا. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

قال صاحب التحفة عند قوله: «المسلم أخو المسلم»: «أي: فليتعامل عمل المسلمين فيما بينهم، وليتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك من صفاء القلوب والنصيحة بكل حال»^(٢). ولم ينس الإسلام مصنع الرجال، وصانعة الأبطال من أن يظن بها أو يتخونها زوجها تلك التي جعل القرآن منهجها والسنة النبوية طريقها، كيف يكون للشيطان سبيل عليها حتى تقع في مستنقع الرذيلة والخسة، وقد أكرمها ربها بذلك المسلم الحافظ لدينه ونفسه - أيضاً - من ذلك، فعن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم أو يلتمس عثراتهم»^(٣). كيف يمكن أن تستقر البيوت وتهدأ النفوس وزوج يظن في زوجته ويتلصص عليها؟. إن ذلك بلا شك لا يحدث في بيوت أهل الإيمان، وإنما يحدث في أوكار أهل

(١) رواه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، رقم ١٩٢٧ (٤/٢٨٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وله أصل في الصحيح.

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للإمام محمد عبدالرحمن المباركفوري (٦/٥٤)، طبعة دار الفكر.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب كراهة الطروق، رقم ١٩٢٨ (١٨٤).

الفجور والعصيان، وما يتطرق لنفسية أن تنحى هذا المنحى إلا لأنها وقعت في الرذيلة وقاست الناس بمقياسها لا بمقياس أهل الإيمان. فإذا فاء الناس إلى دينه وتربوا من معينه الصافي فإن ذلك كفيل بأن يعيشوا في رخاء وهناء، وفي سكينة ووفاء، وصحبة وإخاء.

٨ - التحذير من خيانة الإنسان نفسه:

لقد علم القرآن الصحابة - رضوان الله عليهم -، وحذرهم من داء الخيانة حتى مع أنفسهم، وخفف وعفا عنهم ليستفيد أهل الإسلام من بعدهم ويسيروا على هدي من ربهم، فعن البراء^(١) - رضي الله عنه - لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(٢).

إن الإنسان قد يترك هذه الصفة خوفاً من العقاب أو لوم الناس، أو لينال ثناء ومدحاً من الناس. لكن ثمة بعض العبادات من الممكن أن يخدع المخادع فيها أهل الإيمان، ولا يطلع عليه في هذا الأمر سوى الله - سبحانه عز وجل - . ولقد كانت هذه العبادة في أول فرضية الصيام، فعن ابن عباس، قال الله - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾^(٣). قال: فكان الناس على عهد النبي ﷺ إذا صلوا العتمة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه

(١) البراء بن الحارث بن عدي بنجشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن عمر بن مالك الأوسي الأنصاري، يكنى أبا عمار، من كبار الصحابة، توفي سنة اثنتين وسبعين للهجرة. الإصابة رقم ٦١٥ (١/٢٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نَسَائِكُمْ﴾ الفتح (١٨١/٨) رقم ٤٥٠٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

فجامع امرأته وقد صلى العشاء، ولم يفطر، فأراد الله - عز وجل - أن يجعل ذلك يسراً لمن بقي ورخصة ومنفعة، فقال - سبحانه -: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١)، وكان هذا مما نفع الله به الناس، ورخص لهم ويسراً، وكان في ذلك تربية للنفوس أن يكون خوفها من الله في السر والعلن.

٩ - الخيانة في النصيحة:

لقد جعل الإسلام للنصحية شأنًا عظيمًا، وأنزلها منزلة لائقة بها، فالمؤمن ناصح والدين النصيحة، ولا يشتمل قلب المؤمن على غش أو خيانة، بل إن شأن المؤمن كله صفاء ظاهرًا وباطنًا، وقد جاء قول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفتى بغير علم، كان إثمه على من أفتاه». زاد سليمان المهري^(٢) في حديثه: «ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد في غيره فقد خانته»^(٣) قال القاري: «ومن أشار على أخيه» المعنى أن من أشار على أخيه وهو مستشير وأمر المستشار المستشار بأمر يظن أن المصلحة فيه غير ما أشار إليه فقد خانته؛ إذ ورد أن المستشار مؤتمن، ومن غشنا فليس منا^(٤).

هكذا يربي الإسلام أتباعه حتى في مجال النصح والإرشاد أن لا يغرر المسلم بأخيه المسلم، بل لا بد أن يكون حريصًا على

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سليمان بن داود بن حماد بن سعد المهري، أبو الربيع. قال النسائي: ثقة، ولد ٧٨هـ، وتوفي سنة ٢٥٣هـ. تهذيب التهذيب (٤/١٦٤).

(٣) أخرجه أبوداود في العلم، باب التوقي في الفتيا، رقم ٣٦٥٧ (٢/٣٤٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب اجتناب الرأي والقياس، رقم ٥٣ (١/٢٠)، وأحمد في المسند رقم ٨٢٤٢ (٢/١٢٣).

(٤) عون المعبود (١٠/٩١).

مصلحة أخيه، ويحب له ما يحب لنفسه. وجاء قوله ﷺ: «الدين النصيحة»^(١) شاملاً لهذه المعاني وغيرها ومبيناً أن الدين لا يقوم أمره إلا على أساس من النصح والتناصح بين أبناء المسلمين.

١٠ - خيانة الإمام للمؤمنين في الصلاة:

للإمام الذي يؤم المسلمين شأن في الإسلام كبير، والإمام في الصلاة منصب في الإسلام عظيم يتخير لها أهل العلم والقرآن والحلم والصلاح والفضل والعقل، وأفضل ما عند المسلم صلواته بعد توحيد الله، والذي يؤم المسلمين إماماً لهم في الصلاة ينبغي أن يدرك مسئوليته والموقع الذي يحتله، فتكون نفسه تسع إخوانه المصلين وذلك من شأنه أن يتفقد أحوالهم، ويسأل عنهم ليكون ذلك دافعاً له إلى أن يدعو لهم في صلاته؛ لأنه وهم كنفس واحدة، فالإمام لا يعيش لنفسه بل يعيش لها ولإخوانه المسلمين من المؤتمين به من المصلين، ومن ثم كان غير لائق وغير مقبول من يؤم المسلمين في الصلاة أن يدعو لنفسه ويترك إخوانه من المسلمين فلا يشركهم في دعائه، وقد وصفت السنة مثل هذا المسلك لأنه مسلك إمام خان من صلى خلفه، فعن ثوبان^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن: لا يؤم رجل قومًا فيخص نفسه بالدعاء دونهم، فإن فعل فقد خانهم، ولا ينظر في قعر بيت قبل أن يستأذن فإن فعل فقد دخل، ولا يصلي وهو حقن حتى يتخفف»^(٣)

(١) رواه مسلم (٥٥). وبوب له البخاري في كتاب الإيمان (٢٠/١) شرح السندي.

(٢) ثوبان بن بجدد، أبو عبدالله، مولى النبي ﷺ، خرج إلى الشام ونزل الرملة ثم حمص، وكانت وفاته سنة ٥٤هـ. تهذيب التهذيب (٢٨/٢).

(٣) أخرجه أبوداود في الطهارة، باب أيصلي الرجل وهو حاقن، رقم ٩٠، ٩١ (٧٠/١). والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في كراهية أن يخص الإمام نفسه بالدعاء، رقم ٣٥٧ =

قال أبو الطيب: «معناه تخصيص نفسه بالدعاء في الصلاة والسكوت عن المقتدين»^(١) فالإسلام يريد أن يكون المسلمون يدًا واحدةً وبنياتًا محافظًا على قوته وصلابته يحافظ كل منهم على مصلحة أخيه ومشاعره، ومن أمثلة ذلك المجاهد يخرج هاديء البال قرير العين بأهله غير خائف لأنه تركها في مجتمع مسلم جعلها الإسلام في الحرمة كحرمة أمهاتهم فقد ورد في الحديث عن سليمان بن بريدة^(٢) عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء. فما ظنكم»^(٣).

ولم يقف النص عند حد الحرمة بل تعداه إلى التهديد والوعيد الشديد لمن قام بهذا الأمر حتى يوم القيامة، إذا الناس في ذلك الوقت بحاجة إلى حسنة واحدة، وإذا به يقف أمام ذلك المجاهد الذي غبر قدمه وسال دمه في ميادين الجهاد موقف الخائن في أعز شيء عند ذلك الشهم وهو عرضه، فما ظنك؟ هل يعفو عنه أو يأخذ حسناته كلها وقد أذن له ربه في ذلك، ولما كان الإمام شريكاً لمأموميه في الصلاة وهي شراكة معنوية فقد جاءت السنة تنهى أن يستأثر بشيء دون شركائه من دعاء ونحوه، وقد جاء النهي - أيضاً -

(١) (١٨٩/٢). وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء، رقم ٩٢٣ =

(٢) (٢٩٨/١). وحسنه الترمذي، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» ص ١١.

(٣) عون المعبود (١/١٦١).

(٢) سليمان بن بريدة بن الحصيب الأسلمي المروزي، أخو عبدالله، ولدا في بطن واحد، ثقة، مات سنة خمس ومائة، وله تسعون سنة. تهذيب التهذيب (٤/١٥٣)، التقريب رقم ٢٥٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين، وإثم من خانهم فيهم، رقم ١٣٩ (١٨٩٧) (٣/١٥٠٨).

عن خيانة الشريك لشركائه في الأمور المادية فقد تواردت الأحاديث مبينة قبح هذه الصفة وخستها وفي المقابل تبين وضاعة الأمانة وحسنها كيف لا والله ثالث اثنين قامت العلاقات المالية منهما على مبدأ الأمانة التي قل ما توجد عند كثير ممن تضعف نفوسهم في هذا الجانب، فعن أبي هريرة رفعه، قال: إن الله - تعالى - يقول: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانته خرجت من بينهما»^(١) وتقاس الرجال وتعرف معادنها في هذا الجانب وهكذا كان عمر - رضي الله عنه - يقول: «هل جرّبتَه بالمسكوك»^(٢) وذوات الخلخال^(٣) فكم من الناس تجده مصلياً، صائماً باكيًا فما أن يجد فرصة على شريك في مال إلا واستغلها، وأنشأ أحقاداً، وضغائن ودماءً، وفتناً لا يمكن حلها. أما المؤمن فيعيش هادي النفس قرير العين راضياً بما كتب الله له، مباركاً له فيه، ناشراً رداء المحبة بينه وبين إخوانه ممن يتعامل معهم في هذا الميدان. أما من كانت الخيانة صفته يفقد مصداقيته، ويقلل من قدره، ويثقله وزره وترد شهادته، فإنه ولخطر الخيانة وأثرها السيء على المجتمع بما ينشأ عنها من آثار لا يعلم مداها إلا الله فقد حجّم الإسلام دور الخائن في المجتمع الإسلامي تحجيماً يتناسب مع خسته ودنائه فلم يجعله

(١) أخرجه أبوداود في البيوع، باب في الشركة، رقم ٣٣٨٣ (٢/٢٧٦)، وهو حديث ضعيف، وقد بين الحافظ عله في التلخيص (٣/٤٩)، وضعفه الألباني - أيضاً - في الإرواء (١٤٦٨). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. المستدرک (٢/٥٢)، وأقره المنذري في الترغيب (٣/٣١).

(٢) قال في القاموس: السكة بالكسر: حديدة منقوشة يضرب عليها الدراهم... والسكى الدينار... ص ١٢١٧ مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧هـ.

(٣) قال في القاموس: «والخلخال ويضم وكبلبال: حلي معروف، والمخلخل موضعه من الساق، وتخلخلت لبسته...» ص ١٢٨٦ الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة.

والمعنى: هل جرّبتَه بالدراهم والنساء...؟

أهلاً أن تقبل شهادته، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه^(١) عن جده أن رسول الله ﷺ رد شهادة الخائن والخائنة، وذي الغمر على أخيه، ورد شهادة القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم.

قال أبوداود: الغمر: الحنة والشحناء، والقانع: الأجير التابع مثل الأجير الخاص^(٢) لقد وقف الشارع حتى في الشهادة من الخائن وقفة الرد وعدم القبول؛ لأن هذه الصفة تقدر في صاحبها فيصبح ليس له دور في المجتمع المسلم «والخيانة تكون في حقوق الله كما تكون في حقوق الناس دون اختصاص» فمن خان الله فمن باب أولى أن يخون عباده ومن لم يخف الله لم يخف غيره وإن الشارع الحكيم جعل من يطلب الولاية على الناس وهو غير أهل لها من أخون الخونة؛ لأنه سوف يقوم بتضييع الأمة لذا جاء الحديث بإلجام كل من يتطلع للولاية بغير حق، فعن أبي موسى^(٣) قال: انطلقت مع رجلين إلى النبي ﷺ فتشهد أحدهما ثم قال: جئنا لتستعين بنا على عملك، وقال الآخر مثل قول صاحبه، فقال النبي ﷺ: «إن أخونكم عندنا من طلبه» فاعتذر أبو موسى إلى النبي ﷺ وقال: لم أعلم لما جاء له، فلم يستعن بهما على شيء حتى مات^(٤). وأتت الأحاديث

(١) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاص: صدوق، من الخامسة. التقريب رقم ٥٠٥، وأبوه صدوق ثبت سماعه من جده. التقريب رقم ٢٨٠٦. وجده مقبول، من الثالثة. التقريب، رقم ٦٠٣٧.

(٢) أخرجه أبوداود، رقم ٣٦٠٠ (٢/٣٢٩). وأحمد في مسنده (٢/٢٠٤)، وإسناده حسن، وقوّاه الحافظ في التلخيص (٤/١٩٨)، وحسنه الألباني في الإرواء (٢٦٦٩).

(٣) أبو موسى: عبدالله بن قيس بن سليم بن خضار الأشعري، صحابي مشهور، مات سنة ٥٠هـ. التقريب ص ٣١٨، رقم ٣٥٤٢.

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة (١٣/١١٢). ومسلم في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة، رقم ١٧٣٣. وأبوداود، رقم ٢٩٣٠ (٢/١٤٥)، واللفظ له.

في هذا الأمر مبينة للمسلمين خطر التطلع لهذا الأمر بدون وجه حق؛ لأنه مظنة الفتن والاختلاف والتفرق، فكان النبي ﷺ يحذر منها بعدة طرق فتارة يقول ﷺ: «يا عبدالرحمن بن سمرة^(١): لا تسأل الإمارة، فإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأتت الذي هو خير وكفر عن يمينك»^(٢) وجاء عنه - أيضاً - ما يحذر من الحرص على الإمارة والسعي من أجلها قوله ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»^(٣) فالإمارة إذا لم يعمل الإنسان فيها بما ينبغي فسوف تكون هلاكاً له في دنياه وآخرته. كيف لا ونحن نرى في التاريخ الإسلامي ما حدث للأمة عندما أصبح هذا الأمر عند كثير من الناس مطلب يحرصون عليه ويفنون أعمارهم وأموالهم، وأولادهم، من أجل الوصول إليه، ثم تكون نهاية الأمر عجز وخور، أو كسل وانهزام، أو ظلم وعدوان، لذا كان حري بأبناء الأمة أن يكونوا بعيدين كل البعد عن التنافس في ذلك، وإنما كان ينبغي تنافسهم في درجات الآخرة. قال النووي^(٤): «هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولاسيما لمن كان فيه ضعف، وهو في حق من

(١) عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس العبشمي، أبوسعيد، صحابي من مسلمة الفتح، سكن البصرة ومات بها سنة ٥٠هـ. التقريب ص ٣٤٢، رقم ٣٨٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من سأل الإمارة وكل إليها، رقم ١٧٤٧، الفتح (١٣٢/١٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، رقم ٧١٤٧، الفتح (١٣٤/١٣).

(٤) النووي: يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسن، الشافعي، أبوزكريا، محيي الدين، علامة بالفقه والحديث، من مري حورات بسورية، له مصنفات عدة، منها: الأربعين النووية ورياض الصالحين والمناهج في شرح صحيح مسلم، مات سنة ٦٧٦هـ. الأعلام (١٤٩/٨).

دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل فإنه يندم على ما فرط منه إذا جوزي بالخزي يوم القيامة، وأما من كان أهلاً وعدل فيها فأجره عظيم كما تظاهرت به الأخبار، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم ولذلك امتنع الأكابر منها والله أعلم، والذي يناله المتولي من النعماء والسراء دون ما يناله من البأساء والضراء، إما بالعزل في الدنيا فيصير خاملاً، وإما بالمؤاخذه في الآخرة وذلك أشد، فلا ينبغي لعاقل أن يفرح بلذة يعقبها حسرات، وما حرص الناس على الولاية إلا وكانت السبب في اقتالهم، فسفكت الدماء، واستبيحت الأموال والفروج، وعظم الفساد في الأرض^(١) فكيف بمن خان وغش، فإن النصوص قد بينت مآله ومصيره، حيث يقول الرسول ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحه، لم يجد رائحة الجنة»^(٢)، وفي حديث آخر: «ما من والٍ يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاشٌّ لهم، إلا حرم الله عليه الجنة»^(٣)

١١ - أداء الأمانة حتى مع الخونة:

تظل الشخصية الإسلامية سامية الأخلاق، ثابتة المبادئ، عادلة في الأحكام في عسرها ويسرها، في فرحها وغضبها، حتى مع أعدائها، فهي تسير وفق منهج الله وشرعه، فلا مراوغة ولا خيانة؛ لأن دينها حق، والله تكفل بحفظه إلى قيام الساعة، لذا فهي بعيدة عن كل صفة ذميمة حتى مع من خانها، وقد بين ذلك رسول الله

(١) انظر: فتح الباري (١٣/١٣٤، ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم ٧١٥٠، الفتح (١٣/١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم ٧١٥١، الفتح (١٣/١٣٦).

ﷺ، في الحديث الذي يرويه يوسف بن ماهك المكي^(١)، قال: كنت أكتب لفلان نفقة أيتام كان وليهم فغالطوه بألف درهم، فأذاها إليهم، فأدركت له من مالهم مثليها، قال: قلت: أقبض الألف الذي ذهبوا به منك؟ قال: لا، حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(٢)، وحاصله أن الأمانة لا تُخان أبداً؛ لأن صاحبها إما أمين أو خائن، وعلى التقديرين لا تخان، وفي هذا دليل على أن الخائن لا يجوز أن يكافأ بمثل فعله^(٣) حتى لا تتفشى هذه الصفة القبيحة بين المسلمين، بل حتى لا نكون ممن وصفهم النبي ﷺ في الحديث الذي يرويه عمران بن الحصين^(٤) - رضي الله عنهما - قال: قال النبي ﷺ: «إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدري أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة. قال النبي ﷺ: «ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يقفون، ويظهر فيهم السمن»^(٥). وقد حدث ما أخبر عنه ﷺ، فظهرت البدع وتفشى الكذب، وكثرت الخيانات، وأصبح المسلم الحق غريباً في هذه الحياة، فهنيئاً لمن ثبت على أمر الله ولم تغره الدنيا بمفاتها، ولم

(١) يوسف بن ماهك بن بهز الفارسي المكي، ثقة، من الثالثة. التقريب، رقم ٧٨٧٨.

(٢) أخرجه أبوداود في البيوع، باب (الرجل يأخذ حقه من تحت يده)، رقم ٣٥٣٤ (٣١٢/٢). وله شواهد، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٢٣).

(٣) انظر: عون المعبود (٤٥٠/٩).

(٤) عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، أسلم عام خيبر وصحب وكان فاضلاً، مات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة. التقريب، رقم ٥١٥٠.

(٥) أخرجه البخاري في الشهادات، باب (لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد)، الفتح رقم ٢٥٦١ (٣٠٦/٥). ومسلم في فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، رقم ٢١٤ (١٩٦٤/٤)، والسياق له.

تثنه البلياء، وقام بأمر ربه، وسار على شرعه، فإن عاقبته إلى خير، وأمره فيه الرشد مهما كثر أهل الباطل وانتفش باطلهم.

١٢ - خيانة حواء:

ولقد أتت النصوص مشيرة إلى النساء الحذر من خيانة أزواجهن للوقوع في الشهوات المحرمة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يَحْنَز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»^(١). قال ابن حجر: فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينت لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة، ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو القول، وليس المراد بالخيانة ارتكاب الفواحش - حاشا وكلاً - ولكن لما مالت إلى الشهوة شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم، عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها. ولو تتبعنا الأحاديث الواردة في الكيد وما هو في معناه، لتبين لنا عظمة هذا الدين وأنه حق من عند الله؛ فما ترك صغيرة ولا كبيرة فيها مصلحة لهذا الإنسان إلا وتعرض لها وعالجها بما يكون فيه صلاحه وسعادته. فتأتي الأوامر والنواهي كلها بما فيه الخير للبشرية جمعاء على هذه الأرض، ولو تتبعنا الأحاديث التي ورد فيه لفظ خدع

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قوله - تعالى -: ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ نَلْبِيكَ لَيْلَةً ﴾، الفتح رقم ٣٣٩٩ (٦/٤٩٥). ومسلم في الرضاع، باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر، رقم ١٤٧٠ (٢/١٠٩٢).

قال في القاموس: خَنَزَ اللحم كفرح خنوزًا، وخنزًا: أنتن، فهو خَنَزٌ وخَنَزٌ...، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

لوجدنا بعضاً من هذه المعالم التي تحفظ للصغير والكبير والفظن والبسيط حقوقهم ومصالحهم.

١٣ - خداع الضعفاء من الخيانة:

فهذا رجل كان يخدع في البيع في عهد الرسول ﷺ فيبين له الرسول ﷺ الطريق الأسلم حتى لا تضيع حقوقه، عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلاً^(١) ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع في البيوع، فقال: «إذا بايعت فقل: لا خلافة»^(٢) قال ابن حجر: «أي لا خديعة في الدين؛ لأن الدين النصيحة» زاد ابن إسحاق: «ثم أنت بالخيار في كل سلعة ابتعتها ثلاث ليالٍ، فإذا رضيت فأمسك، وإذا سخطت فاردد» وفي هذا حظ للمتبايعين على أداء النصيحة، كما ورد في حديث: «فإن صدقا وبيئًا، بورك لهما في بيعهما»^(٣) بهذا يريد الإسلام أن يعيش الناس في سلام ووثام ومحبة، لا في خداع وغبن وضغينة وفتنة.

١٤ - الترغيب في الأمانة والترهيب من الخيانة:

ثم تأتي البشائر في الأحاديث لأهل الصدق وتبين صفاتهم، وتأتي النذارة - أيضاً - للمخادعين وتبين صفاتهم ومآلهم، فعن عياض بن حمار المجاشعي^(٤) أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في

(١) الرجل هو منقذ بن عمر. انظر: الفتح (٤/٣٩٥).

(٢) لا خلافة: وارد مورد الشرط أي إن ظهر في العقد خداع فهو غير صحيح. انظر: الفتح (٣٥٢/١٢). والحديث أخرجه البخاري في البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيوع، رقم ٢١١٧، الفتح (٤/٣٩٥). ومسلم، كتاب البيوع، باب من يخدع في البيع ٤٨ (١٥٣٣) (٣/١١٦٥).

(٣) انظر: فتح الباري (٤/٣٩٦).

(٤) عياض بن حمار المجاشعي، صحابي سكن البصرة، وعاش إلى الخمسين. التقريب ص ٤٣٧، رقم ٥٢٧٤.

خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا. كل مال نحلته عبداً حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً. فقلت: رب إذا يثلغوارأسي فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسنفق عليك، وابعث جيشاً نبعت خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب والشنظير^(١) الفحاش» ولم يذكر أبوغسان^(٢) في حديثه: «وأنفق فسنفق عليك»^(٣). يأتي الحديث فيكون رادعاً للنفس السوية من الوقوع في هذه الصفة القبيحة التي لا يليق أن تكون بين المجتمعات المسلمة. وعندما ورد قول النبي ﷺ: «الخدیعة فی النار»^(٤) و «من

(١) الشنظير: الفاحش البذي. لسان العرب (٤/٤٣١).

(٢) أبوغسان: مالك بن عبد الواحد المسمعي، البصري، ثقة، من العاشرة، مات سنة ٢٣٠هـ. التقريب ٥١٧، رقم ٦٤٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة، باب (الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار)، رقم ٦٣ (٢٨٦٥) (٤/٢١٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب (النجش) تعليقا. قال الحافظ: رواه ابن عدي في الكامل وإسناده لا بأس به. (٤/٣٥٥).

عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) كان لهذا الحديث الأثر الكبير في نفوس الرعييل الأول، وكان رادعاً لهم من الولوج في هذا الأمر، كما ورد ذلك في حديث قيس بن سعد بن عبادة^(٢) قال: لولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المكر والخديعة في النار» لكنت أمكر الناس^(٣)، والوفاء يكون مع المسلمين ومع أهل الذمة من الكفار، أو من لهم عهد مع المسلمين، فلا بد من الوفاء لهم بذلك؛ لأن هذا دين وشرع يجب اتباعه حتى وإن مالت النفس إلى خلافه.

١٥ - الحرب خدعة:

قد يكون التعامل بالحسنى مع العدو في حدود الشرع دافعاً له على قبول الحق والدخول في دين الله، أما من وقف محارباً لجنود الله، فقد سقط حقه، ووجب خداعه وقتله أو رقه وحل ماله ودمه وولده وعرضه، فعن جابر بن عبد الله^(٤) - رضي الله عنهما - قال: قال النبي ﷺ: «الحرب خُدَعَةٌ»^(٥). قال ابن حجر: «وفي التحريض على أخذ الحذر في الحرب، والندب إلى خداع الكفار». قال النووي: واتفقوا على خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن

(١) أخرجه البخاري في الصلح، باب (إذا اصطلحوا على صلح جور) (٣٠١/٥).

(٢) قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، صحابي جليل، مات سنة ٦٠هـ. التقريب ص ٤٥٧، رقم ٥٥٧٦.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل وإسناده لا بأس به. انظر: فتح الباري (٣٥٦/٤).

(٤) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، صحابي ابن صحابي، غزا تسعة عشر غزوة، ومات بالمدينة، بعد السبعين. التقريب ص ١٣٦، رقم ٨٧٠.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد، باب (الحرب خدعة)، رقم ٣٠٣٠، الفتح (١٨٣/٦). ومسلم في الجهاد، باب (جواز الخداع في الحرب)، رقم ١٧، ١٨. قال في القاموس: «والحرب خُدَعَةٌ» مثلثة وكهزمة، وروي بهن جميعاً أي تنقضي بخدعة» ص ٩١٨، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

يكون فيه نقض عهد أو أمان، فلا يجوز^(١) لذا وردت أحاديث وجهها النبي ﷺ لأمرء المجاهدين في سبيل الله أن يراقبوا الله - عز وجل - ويتقوه في كل عمل من أعمالهم، وأن يكونوا جنود لله - عز وجل - بغيتهم هداية الناس، لا استئصالهم وقتلهم. وأن يقتلوا من كان محاربًا، أمّا النساء والولدان فإن النبي ﷺ نهى الصحابة عن قتلهم، بل إن انتهى الرجال عن حرب دعاة الإسلام، فإن الإسلام قد أباح لهم العيش في حماه ولو كانوا كفارًا، مقابل أن يدفعوا الجزية؛ ليتمكن المسلمون من أن يدفعوا الأعداء ويحرسوا الدين، فعن سليمان بن بريدة^(٢)، عن أبيه قال: «ان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تفلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله، الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنمة والفىء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا، فاسecten بالله وقتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله

(١) انظر: فتح الباري (٦/١٨٣).

(٢) سليمان بن بريدة بن الحصيب الأسلمي، المروزي، قاضيها، ثقة، من الثالثة، مات سنة ١٠٥هـ. التقریب ص ٢٥٠، رقم ٢٥٣٨.

وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا في ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا في ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»^(١). بل لقد وقى النبي ﷺ العهد والميثاق مع قريش وهو يرى بعض أصحابه وقد لاقوا من قريش أشد أنواع العذاب، وما كان يزيد على أن يوصيهم بالصبر ويبشرهم بالفرج، ولم ينقض العهد أو يغدر بهم، فعن المسور بن مخرمة^(٢) ومروان بن الحكم^(٣)، قالوا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً - فساق الحديث بطوله - وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل^(٤) اصبر واحتسب؛ فإن الله - عز وجل - جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه عهداً، وإننا لن نغدر بهم... الحديث»^(٥). قال ابن حجر: وفي رواية: فأوصاه رسول الله ﷺ. قال: فوثب عمر مع أبي جندل، يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر فإنما هم مشركون، وإنما دم أحدهم كدم كلب، قال: ويدني قائمة

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب تأمير الإمام على البعوث، رقم ٣ (١٧٣١) (١٣٥٦/٣).

(٢) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الأزهرى، أبو عبدالرحمن، له ولأبيه صحبة، مات سنة ٦٤ هـ. التقريب ص ٥٣٢، رقم ٦٦٧٢.

(٣) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو عبدالملك، الأموي المدني، ولي الخلافة في آخر سنة ٦٤، ومات سنة خمس، لا تثبت له صحبة. التقريب ٥٢٥، رقم ٦٥٦٧.

(٤) أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي، استشهد باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. الإصابة (٦٤/١١)، رقم ٢٠٣.

(٥) أخرجه البخاري في الشروط، باب (الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط)، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢، الفتح (٣٨٨/٥).

السيف منه. يقول عمر: رجوت أن يأخذه مني فيضرب به أباه، فضن الرجل - أي بخل بأبيه ؛ ونفذت القضية. قال الخطابي: تأول العلماء ما وقع في قصة أبي جندل على وجهين: أحدهما أن الله أباح التقية للمسلم إن خاف الهلاك، ورخص له أن يتكلم بالكفر مع إضمار الإيمان إن يم يمكنه التورية.

والوجه الثاني: أنه إنما رده لأبيه، والغالب أن أباه لا يبلغ به الهلاك وإن عذبه أو سجنه، فله مندوحة بالتقية - أيضًا -، وأما ما يخاف عليه من الفتنة فإن ذلك امتحان من الله يبتلي به صبر عباده المؤمنين.

واختلف العلماء هل يجوز الصلح مع المشركين على أن يرد إليهم من جاء مسلمًا من عندهم إلى بلاد المسلمين أم لا؟ فقول: نعم، على ما دلت عليه قصة أبي جندل، وأبي بصير^(١). وقيل: لا، وأن الذي وقع في القصة منسوخ، وأن ناسخه حديث: «أنا بريء من مسلم بين مشركين»، وهو قول الحنفية، وقال الشافعية: ضابط الجواز الرد أن يكون المسلم بحيث لا تجب عليه الهجرة من دار الحرب^(٢). وفي العموم فلا بد للمسلم أن يوفي بالعهود والعقود والمواثيق، ما لم تخالف في ذلك كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، بل لقد ظل أصحاب النبي ﷺ حافظين للعهود والمواثيق مع أعدائهم مما حدى بكثير منهم الدخول في دين الله، عندما رأى المنهج السوي

(١) أبو بصير، عتبة بن أسيد الثقفي، كان يكثر أن يقول

الحمد لله العلي الأكبر
من ينصر الله فسوف ينصر

كتب النبي ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدموا عليه، وورد الكتاب وأبو بصير يموت، فمات وكتاب النبي ﷺ في يده، فدفعه أبو جندل مكانه وصلى عليه. الإصابة (٦/٣٧٥)

رقم ٥٣٨٩.

(٢) فتح الباري (٥/٤٠٧).

الواضح الذي لا يمكن أن يصدر من بشر، وإنما هو وحي من الله - عز وجل -، طبَّقه الرعيل الأول، فكان مشعل نور وخير وهداية للبشرية، ففتح الله به قلوب الناس وعقولها؛ لأنه وفى بعهودها وعقودها، وهذا ما كانت البشرية تبحث عنه في ذلك الظلام الدامس، بل لقد كان الصحابة يذكر بعضهم بعضاً بالوفاء بالعهود مع الأعداء مهما حصل منهم، فعن سليم بن عامر^(١)، عن رجل من حمير، قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقض العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون^(٢)، وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء ولا غدر، فنظر فإذا عمرو بن عبسة^(٣)، فأرسل إليه معاوية^(٤) فسأله فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها»^(٥)، أو ينبذ إليهم على سواء»^(٦) فرجع معاوية. هكذا كان الحال مع الأقوياء: وفاء لا غدر، وكذلك مع الضعفاء، فالرسول عندما ذكر له فعل ذلك الغادر مع العجوز بين حرمة ذلك الأمر وأنه لا يكون إلا في المجتمعات التي تلوث

(١) سليم بن عامر الكلامي، أبوبكر الحمصي، ثقة، من الثالثة، مات سنة ١٣٠هـ. التقريب ص ٢٤٩، رقم ٧٥٢٧.

(٢) برذون: والبراذين من الخيل من كان من غير نتاج العراب. لسان العرب (١٣/١٥).

(٣) عمرو بن عيبة بن عامر بن خالد السلمي، أبونجيج، صحابي مشهور أسلم قديماً، وهاجر بعد أحد ونزل الشام. التقريب ص ٤٢٤، رقم ٥٠٧٠.

(٤) معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية الأموي، أبو عبدالرحمن، الخليفة، صحابي، أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي، مات سنة ٦٠هـ. التقريب ص ٥٣٧، رقم ٦٧٥٨.

(٥) الأمد: الغاية. النهاية (٦٥/١).

(٦) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب (في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحو عدوه ليقرب منهم فيغير بعد المدة عليهم)، رقم ٢٧٥٩ (٩٢/٢).

والترمذي وقال: حسن صحيح، باب (ما جاء في الغدر)، رقم ١٥٨٠ (١٢١/٤). والنسائي في الكبرى (٢٢٣/٥).

بنجاسة الجاهلية، فعن جابر قال: لما رجعتُ إلى رسول الله ﷺ مهاجرةً الحبشة، قال: «ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ قال فتية منهم: بلى يا رسول الله. بينما نحن جلوس، مرّت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا عُدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا. قال: يقول رسول الله ﷺ: «صدقت. صدقت. كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»^(١). بل لقد كان الرسول الله ﷺ حتى مع من كان حديث عهد بإسلام لا يقبل منه شيئاً فيه رائحة الغدر، وإن كان ذلك الغدر قبل إسلامه؛ لأنه يريد الطهارة للمؤمنين في جميع أمورهم، فعن المسور بن مخرمة قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بذى الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة، وساق الحديث قال: وسار النبي ﷺ حتى إذا كان الثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حَلْ حَلْ خلأت^(٢) القصواء - مرتين - فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون بها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٤٠١٠ (١٣٢٩/٢)، وإسناده حسن، وحسنه الألباني، وقال البوصيري: وإسناده حسن، وسعيد بن سويد مختلف فيه (٣٦٨/٢).

(٢) خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب، ويقال: خلأت الناقة، وألح الحمل، وحرن الفرس. لسان العرب (٥٨/٢). وقال في القاموس: وحلحل بالإبل قال لها: حلّ حلّ منوتين أو حلّ مسكنة. ص ١٢٧٥، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

فوئبت، فعدل عنه حتى نزل بأقصى الحديدية على ثميد^(١) قتل الماء، فجاءه بدليل بن ورقاء الخزاعي^(٢) ثم أتاه يعني: عروة بن مسعود^(٣) فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة^(٤) قائم على النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فضرب يده بنعل السيف وقال: آخر يدك عن لحيته، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر أو لست أسعى في غدرك؟ وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غدرٍ لا حاجة لنا فيه... الحديث^(٥)». فرغم حاجتهم للمال في تلك الظروف الصعبة إلا أنه يابى أن يأخذ ذلك المال حتى يزيل من نفوس المؤمنين التطلع لمثل هذه الأموال، بل ليجعل أنفسهم تسمثر حتى من ذكرها؛ ليظهر للبشرية جمعاء طهر هذا الدين، وعفاف أهله عن الدنيا.

١٦ - غدر الأعداء بالمؤمنين:

ومع طهر ذلك المجتمع وصفائه إلا أن أهل الشرك لم يستحووا من غدره والنيل منه، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي

(١) ثميد: أي حفيرة فيها ماء قليل. لسان العرب (١/٢٢١).

(٢) بدليل بن ورقاء الخزاعي، له صحبة، سكن مكة. الإصابة (١/٢٣٢) ٦١١.

(٣) عروة بن مسعود بن معتب الثقفي، وهو عم والد المغيرة بن شعبة، قيل إنه المراد بقوله ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَبَاتِ عَظِيمٍ﴾ ورأيت عيسى فإذا أقرب من عروة رماه رجل من ثقيف بسهم على سطح داره وهو يؤذن فقتله، طلب أن يدفن مع الشهداء في الطائف. انظر: الإصابة (٦/٤١٧).

(٤) المغيرة بن شعبة بن مسعود الثقفي، صحابي مشهور، ولي إمرة البصرة، مات سنة ٥٠هـ. التقريب ٦٨٤٠.

(٥) أخرجه البخاري في الشروط، باب (الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط)، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢ (٥/٣٨٨) وقد تقدم.

ﷺ أتاه رِغْلٌ وذكوانٌ وعُصَيَّةٌ وبنو لِحْيَانٍ، فزعموا أنهم أسلموا، واستمدوه، فأمدهم النبي ﷺ بسبعين من الأنصار. قال أنس: كنا نسميهم القراء يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم. ففقت شهراً يدعو على رِغْلٍ وذكوانٍ وبنو لِحْيَانٍ^(١). وقد أهلكهم الله بدعاء النبي ﷺ عليهم، ومضى الأصحاب - رضوان الله عليهم - في تبليغي دين الله عزوجل دون خوف أو وجل أو غدر، ويقابلهم الأعداء بالغدر بعد العهد، وبالخيانة بعد العقد، وهذا حالهم إلى قيام الساعة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: بعث النبي ﷺ سرية، وأمر عليهم عاصم بن ثابت^(٢) - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب^(٣) - فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان^(٤) ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائه رام فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدَـفِـدٍ^(٥)، وجاء القوم فأحاطوا بهم. فقالوا: لكم العهد والميثاق إن

(١) رواه البخاري (٤٠٩٠)، في كتاب الجهاد والسير باب (العون بالمدد) (١٨٠/٦) فتح الباري.

(٢) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري. قال النبي ﷺ لمن معه كيف تقاتلون؟ فرد عاصم: إذا كان القوم قريباً من مأتى ذراع كان الحي وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف، فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا بالسيوف، وكانت المجالدة فقال النبي ﷺ: «هكذا نزلت الحرب. من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم». الإصابة (٢٦٧/٥)، رقم ٤٣٤٠.

(٣) عاصم بن عمر بن الخطاب، ولد في حياة النبي ﷺ، مات سنة ٧٠هـ. التقريب ص ٢٨٦، رقم ٣٠٦٩.

(٤) عسفان: سميت عسفان لتعسف السيل فيها، وهي قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وهي حد تهامة. معجم البلدان (١٢١/٤).

(٥) فدغد: الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع. النهاية (٤٢٠/٣).

نزلتهم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر. اللهم أخبرنا نبيك. فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب^(١) وزيد^(٢) ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر... الحديث^(٣).

١٧ - غدر النصارى بالمسلمين:

في غدر الكفرة على اختلاف نحلهم آيات تتلى، وأحاديث تروى تبين ذلك الأمر ليكون المسلم مستعدًا حتى لا يقع في شراكتهم أو على الأقل أن يقلل من الأضرار الناتجة عنهم، فعن عوف بن مالك^(٤) قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك^(٥) - وهو في قبة من آدم - فقال: «اعدد ستًا بين يدي الساعة: مَوْتِي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مَوْتَان يأخذ فيكم كقَعَّاسِ الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون

(١) خبيب بن عدي بن مالك الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا، قتله قريش في مكة في قتله للحارث بن عامر يوم بدر، وحولوا وجهه عن القبلة بعد موته مرًا حتى عجزوا فتركوه. الإصابة (٨٠/٣) رقم ١٤٩٨.

(٢) زيد بن الدثنة بن معاوية الأنصاري البياض، شهد بدرًا وأحدًا، وأسر يوم الرجيع، فبيع بمكة من صفوان بن أمية فقتله سنة ٣هـ. الإصابة (٥٣/٤) رقم ٢٨٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب (غزوة الرجيع ورعل وذكوان ويثر معونة)، رقم ٤٠٨٦، الفتح (٤٣٧/٧).

(٤) عوف بن مالك الأشجعي، أبو حماد، صحابي مشهور من مسلمة الفتح، سكن بغداد ومات سنة ٧٣هـ. التقريب ٤٣٣، رقم ٥٢١٧.

(٥) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ. معجم البلدان (١٤/٢). وهي الآن مدينة كبيرة شمال المدينة المنورة

فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً^(١).
 ويفسر هذا الحديث ويفصل ما أخرجه أبو داود في الحديث الذي
 يرويه عن حسان بن عطية^(٢) قال: مال مكحول^(٣) وابن أبي زكريا^(٤)
 إلى خالد بن معدان^(٥) وملت معهم فحدثنا عن جبير بن نفيير^(٦)، عن
 الهدنة قال: قال جبير: انطلق بنا إلى ذي مخبر^(٧) رجل من أصحاب
 النبي ﷺ، فأتيناه فسأله جبير عن الهدنة، فقال: سمعت رسول الله
 ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً
 من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا
 بمرج^(٨) ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول:
 غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر
 الروم وتجمع للملحمة^(٩). ومعنى «غلب الصليب» أي دين النصارى
 قصداً لإبطال الصلح أو لمجرد الافتخار وإيقاع المسلمين في الغيظ،

- (١) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب (ما يحذر من الغدر)، رقم (٣١٧٦)، الفتح (٢٧٧/٦).
- (٢) حسان بن عطية المحاربي، مولاهم، ثقة فقيه عابد، مات سنة ١٢٠هـ. التقريب، ص ١٥٨، رقم ١٢٠٤.
- (٣) مكحول الشامي، أبو عبد الله، ثقة كثير الإرسال، مات مائة وبضعة عشر. التقريب، ص ٥٤٥، رقم ٦٨٧٥.
- (٤) ابن أبي زكريا: عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، أبو يحيى الشامي، ثقة فقيه عابد، مات سنة ١١٩هـ. التقريب ص ٣٠٣، رقم ٣٣٢٤.
- (٥) خالد بن معدان الكلاعي، ثقة عابد يرسل كثيراً، مات سنة ٨٠هـ. التقريب ص ١٩٠، رقم ١٦٧٨.
- (٦) جبير بن نفيير بن مالك بن عامر الحضرمي، ثقة جليل، مات سنة ٨٠هـ. التقريب ص ١٣٨.
- (٧) ذو مخبر الحبشي، صحابي نزل الشام، وهو ابن أخ النجاشي. التقريب ٢٠٣، رقم ١٨٥٠. الإصابة (٢٢٠/٣).
- (٨) المرج: الأرض الواسعة ذات نبات كثير. النهاية (٣١٥/٤).
- (٩) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب (ما يذكر من ملاحم الروم)، رقم ٤٢٩٢ (٥١٢/٢)، وإسناده صحيح، وصححه الألباني (٨٠٩/٣) في صحيح سنن أبي داود.

فيكسر المسلم الصليب، فتنقض الروم العهد، ويكرم الله تلك العصاة بالشهادة^(١).

١٨ - الغدر ليس من صفات الرسول ﷺ:

ولقد شهد الأعداء والأصدقاء على وفاء من هو القدوة الأولى أنه لا يغدر، وهكذا يكون حال كل ما أحب الرسول ﷺ، وأراد أن يحدو حدوه ويستن بسنته.

فهذا أبوسفيان رغم عداوته للنبي ﷺ إلا أنه يشهد أمام قيصر بوفاء الرسول ﷺ؛ خشية أن يورث عنه الكذب، ويحاول النيل من النبي ﷺ في كلمة ليس لها أصل وإنما هي دعوى لم تحدث من خير خلق الله لا قبل ذلك الوقت ولا بعده، ولقد شهد كل منصف بوفائه وعدله ولم يغطي سجايه الطيبة العطرة عن قوم من أهل الشرك إلا العصبية العمياء، والاستكبار الذميم، ومتابعة كبرائهم وضلالهم في قدحه والخط من قدره حتى مع القياصرة والأكاسرة، ومحاولة طمس هذا الدين في كل موقف، وفي كل ميدان، وبأدنى حيلة. قال ابن عباس: فأخبرني أبوسفيان بن حرب، أنه كان بالشام... (ثم ذكر أسئلة قيصر لأبي سفيان) ثم قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة نحن نخاف أن يغدر... الحديث^(٢) ولم تكن هذه الكلمة قيصر من الشهادة له بالنبوة، حيث قال في نهاية الحديث: «وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أعلم أنه منكم، وإن يك ما قلت حقًا، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت

(١) انظر: عون المعبود (٣٩٩/١١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والمسير، باب (دعاء النبي ﷺ الناس إن الإسلام والنبوة وأن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله)، رقم ٢٩٤١، الفتح (١٢٨/٦).

قدميه . . . الحديث». و شاء الله أن يعلي دينه وينصر رسوله ﷺ لما كان يتحلى به من مكارم الأخلاق، حتى كان خلقه القرآن، كما وصفته عائشة - رضي الله عنها -، بل لقد كان المجتمع كله يعلم صدقه ووفاءه، وكان الجميع من أهل الفطر السليمة يتعجبون ممن يرميه بصفة ذميمة، فعن عائشة قالت: ابتاع رسول الله ﷺ من رجل من الأعراب جزورًا - أو جزائر - بوسق من تمر الذخرة، وتمر الذُّخْرَةُ العَجْوَةُ^(١)، فرجع به رسول الله ﷺ إلى بيته، والتمس له التمر، فلم يجده فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له: «يا عبدالله، إنا قد ابتعنا منك جزورًا - أو جزائر - بوسق من تمر الذخرة، فالتمسناه فلم نجده» قال الأعرابي واغدراه. قالت: فنهمة^(٢) الناس وقالوا: قاتلك الله، أيغدر رسول الله ﷺ؟ قالت: فقال رسول الله ﷺ: «دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالاً... الحديث»^(٣) كيف لا يكون وفيًا وقد رباه ربه حتى كان خلقه القرآن، كيف لا يكون كذلك وهو المعلم والمربي الأول لأصحابه على الوفاء وعدم الغدر، بل لقد روي من الأحاديث التي تحذر من الغدر ما تقشعر منه الأبدان، فكان القدوة التي يجب أن تحتذى في الوفاء، وفي أحاديثه الرادعة ذكرى لأهل الألباب والثُّهَى، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى

(١) قال في القاموس: «ذخره كمنعه ذخراً بالضم وادخره: اختاره واتخذته والذخيرة ما ادخر... وموضع ينسب إليه التمر...» ص ٥٠٦، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة. وقال: «والعجوة بالحجاز المخشي وتمر بالمدينة...» ص ١٦٨٨، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) النهمة والنهم: صوت وتوعد وزجر. القاموس ص ١٥٠٤. الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة ١٤٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/٦). والحاكم في المستدرک، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: في إسناده يحيى بن سلام وهو ضعيف، ولم يخرج له أحد في البيوع (٣٧/٢)، رقم ٢٢٣٦، من ١٠٧. ولكن يحيى بن سلام تابعه إبراهيم بن سعد الزهري وهو ثقة.

بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»^(١) قال ابن حجر: «أعطى بي ثم غدر» التقدير: أعطى يمينه بي أي عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقضه^(٢). إن كل من آمن بالله ليقف أمام هذا الحديث خائفًا وجلًا أن يكون الله خصمه يوم القيامة، بل إن من دلائل صحة الإيمان أن لا ينقض المسلم عهدًا عقده على نفسه وجعل الله بينه وبين من عاهده.

١٩ - فضيحة الغادر يوم القيامة:

إن من يريد الستر في الآخرة وأن لا يفتضح أمام الأنبياء والصدّيقين والشهداء ويؤمن بذلك لا يمكن أن يقدم على هذه الصفة الذميمة، وقد ورد في الحديث الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء ينصب يوم القيامة بغدرته»^(٣). وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامّة»^(٤). إن الإنسان ليستحي أن يفتضح بين آحاد الناس، فكيف يرضى لنفسه أن يفتضح أمام الأنبياء؟ إنه لا يقوم بذلك إلا من ضعف يقينه وقل خوفه ورائت على قلبه المعاصي، فأصبح يرى المنكر معروفًا والمعروف منكراً، ولا يمكن أن يفيق من ذلك إلا أن تدركه رحمة ربه.

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب (إثم من باع حرًا)، رقم ٢٢٢٧، الفتح (٤/٤٨٧).

(٢) فتح الباري (٤/٤٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في الجزية، باب (إثم الغادر للبر والفاجر) (٣١٨٨).

قال في القاموس: النهيم والنهيم: صوت وتوعد وزجر وقد نهيم بينهم... ص ١٥٠٤، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد، باب (تحريم الغدر) (٤٤/١٢).

المبحث الثاني

(أساليب السنة في حديثها عن الكيد وما يلحق به)

أسلوب السنة في حديثها عن الكيد وما يلحق به

لقد أوتي الرسول ﷺ جوامع الكلم، وعبر عن الكيد والمكر بأساليب متنوعة ومختلفة، وسوف أجمع من تلك الأساليب ما يوضح الصورة ويعطي فكرة عن هذا الموضوع، وذلك بجمع الأشباه والنظائر واستخلاص النتائج على النحو التالي:

أولاً: أسلوب التعبير عن الخيانة المطلقة:

مثل قوله ﷺ:

- ١ - «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله...»^(١)
- ٢ - «اللهم إني أعوذ بك من الجوع؛ فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئس البطانة»^(٢).
- ٣ - «رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر هدائك لي...»^(٣).

ثانياً: الخيانة المقرونة بالأمانة:

مثل قوله ﷺ:

- ١ - «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(٤).
- ٢ - «لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع الصدق والكذب جميعاً، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعاً...»^(٥)
- ٣ - «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من

(١) انظر: ص ٢٠٥.

(٢) انظر: ص ٢٠٣.

(٣) انظر: ص ١٩٨.

(٤) انظر: ص ١٩٩.

(٥) انظر: ص ٢٠٠.

خانك...»^(١).

٤ - «إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون...»^(٢).

ثالثًا: الخيانة في المشورة:

مثل قوله ﷺ:

١ - «ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد في غيره فقد خانته»^(٣).

رابعًا: الخيانة والخديعة في الحرب:

مثل قوله ﷺ:

١ - «الحرب خدعة»^(٤).

٢ - «اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله واغزوا ولا تفلوا ولا تغدروا لا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا...»^(٥).

٣ - «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدًا، وإنا لن نغدر بهم...»^(٦).

٤ - «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدن أن تكيدوا به أنفسكم...»^(٧).

٥ - «ثم تكون بينكم وبين بني الأصفر هدنة، فيغدرون بكم»^(٨).

٦ - «فعند ذلك تغدر الروم وتجتمع للملحمة...»^(٩).

(١) انظر: ص ٢١٤.

(٢) انظر: ص ٢١٤.

(٣) انظر: ص ٢٠٧.

(٤) انظر: ص ٢١٨.

(٥) انظر: ص ٢١٩.

(٦) انظر: ص ٢٢١.

(٧) انظر: ص ١٩٥.

(٨) انظر: ص ٢٢٧.

(٩) انظر: ص ٢٢٧.

خامسًا: الخيانة في الولاية والأمانة:

مثل قوله ﷺ:

١ - «ما من والٍ يلي رعية فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرّم الله عليه الجنة»^(١).

٢ - «إن أخونكم عندنا من طلبه»^(٢).

٣ - «لا يؤم رجل قومًا فيخص نفسه بالدعاء دونهم، فإن فعل فقد خانهم...»^(٣).

٤ - «ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»^(٤).

سادسًا: الخديعة في المعاملات:

مثل قوله ﷺ:

١ - «إن الله يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانته خرجت بينهما...»^(٥).

٢ - أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع في البيع، فقال ﷺ: «إذا بايعت فقل: لا خلافة»^(٦).

سابعًا: الخيانة الزوجية:

مثل قوله ﷺ:

١ - نهى الرسول ﷺ أن يطرق الرجل أهل ليلًا؛ يتخونهم أو

(١) انظر: ص ٢١٣.

(٢) انظر: ص ٢١١.

(٣) انظر: ص ٢٠٨.

(٤) انظر: ص ٢٣٠.

(٥) انظر: ص ٢١٠.

(٦) انظر: ص ٢١٦.

يلتمس عثراتهم...»^(١).

٢ - لولا حواء، لم تخن أنثى زوجها الدهر...»^(٢).

ثامناً: عاقبة الخيانة في الدنيا والآخرة:

مثل قوله ﷺ:

١ - «لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»^(٣).

٢ - «ومن أخاف أهل المدينة ظالماً لهم، أخافه الله، وكانت عليه لعنة الله»^(٤).

٣ - «ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم، إلا وقف يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء»^(٥).

٤ - «رد رسول الله ﷺ شهادة الخائن والخائنة...»^(٦).

٥ - «المكر والخديعة في النار»^(٧).

٦ - «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»^(٨).

وبهذا نكون قد أتينا على جميع أساليب الخيانة والخديعة وتوابع ذلك في السنة النبوية، وجمعنا بين أشباه ذلك ونظائره في صيغ مناسبة. والله أعلم.

(١) انظر: ص ٢٠٥.

(٢) انظر: ص ٢١٥.

(٣) انظر: ص ١٩٧.

(٤) انظر: ص ١٩٧.

(٥) انظر: ص ٢٠٩.

(٦) انظر: ص ٢١١.

(٧) انظر: ص ٢١٨.

(٨) انظر: ص ٢٣٠.

الفصل الثالث

كيد المشركين بالرسول ﷺ

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث.

تمهيد: حالة العرب قبل الإسلام.

المبحث الأول: كيد المشركين بشخص الرسول ﷺ.

المبحث الثاني: كيد المشركين بأهل الرسول ﷺ.

المبحث الثالث: كيد المشركين بأصحاب الرسول ﷺ.

المبحث الرابع: أنماط من كيد المشركين في الحياة العامة.

المطلب الأول: كيد المشركين السياسي.

المطلب الثاني: كيد المشركين الاقتصادي.

المطلب الثالث: كيد المشركين الإعلامي.

تمهيد: حالة العرب قبل الإسلام:

إن الباحث الذي إذا أراد أن يبرز أمراً ما، لابد له من معرفة تامة بما يحيط به، وبما هو مرتبط به، وإننا عندما ندرس كيد المشركين بالنبي ﷺ فإن ذلك يتطلب منا وقفةً، ونظرةً فاحصة في أحوال هؤلاء القوم قبل بعثة النبي ﷺ في النواحي الاعتقادية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لذا سوف نورد ذلك فيما يلي:

أولاً: الناحية العقديّة:

أ - موقفهم من الإيمان بالله - تبارك وتعالى - وصفاته:

كان أهل مكة على الحنيفية ملة إبراهيم - عليه السلام -، ثم بعد توالي القرون أدخل عمرو بن لحي^(١) الأصنام إلى مكة، ففشت في العرب عبادة الأصنام، واستشرى الشرك بالله - تبارك وتعالى - . قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾^(٢) ، ومع شركهم بالله فقد كانوا يقرون بتوحيد الربوبية . قال - تعالى - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(٣) ، ثم مع هذا يعللون شركهم بالله وعبادة الأصنام بأنها تقربهم إلى الله - تبارك وتعالى - كما زعموا . قال الله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(٤) .^(٥)

(١) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من قحطان . أول من غير دين إسماعيل، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان . الأعلام (٨٤/٥) .

(٢) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١٨٧/٢) .

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦ .

(٤) الزلف، والزلفة، والزلفى: القرية والدرجة والمنزلة، وأزلف الشيء: قربه . لسان العرب (١٣٨/٩) .

(٥) سورة الزمر، الآية: ٣ .

ولقد بين الله - سبحانه وتعالى - لهم في كتابه أن الرب الذي خلقهم وهياً لهم المعاش هو الذي ينبغي أن يعبد، إلا أنهم أصروا على عنادهم وشركهم. قال - تعالى - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(١) ، ولهذا حصل عند المشركين التناقض؛ حيث أقروا بتوحيد الربوبية الذي يبنى عليه توحيد الألوهية، إلا أنهم حادوا عن الطريق وجعلوا حجارة لا تضر ولا تنفع وسائط بينهم وبين خالقهم.

كما زعموا أن بين الجن وبين الله نسبة. قال - تعالى - : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾^(٢) .

قال مجاهد والسدي ومقاتل: القائل ذلك كنانة وخزاعة، قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم^(٣) .

وذكر القرطبي أن أكثر أهل التفسير يرون أن الجنة ها هنا الملائكة. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله - تعالى - ، فقال أبوبكر - رضي الله عنه - : فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن، وكذا قال قتادة وابن زيد.

قال ابن عباس: زعم أعداء الله أنه - تبارك وتعالى - هو وإبليس إخوان. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(٤) .

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١ .

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٥٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/١٣٤). قال في القاموس: والسراة أعلى كل شيء... والمروءة في شرف... والسراة اسم جمع، وسروات وهي سرية من سريرات وسرايا... ص ١٦٨٠، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧ .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/٣٩) .

ب - موقفهم من الملائكة :

ومن العرب من كان يعبد الملائكة من دون الله، ويسميتها بنات الله. قال - تعالى - : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾^(١). وقال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ أَلْذَكِّرْوْهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تَلَكَّ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾^(٢).

قال ابن كثير: ذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب:

أولاً: جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً، تعالى وتقدس.

ثانياً: جعلوا ذلك الولد أنثى.

ثالثاً: ثم عبدوهم من دون الله - تعالى وتقدس -.

ثم قال: وكل منم كافٍ في التخليد في نار جهنم^(٣).

ج - إنكارهم للرسول :

لقد استنكرت قريش أن يبعث الله رسولاً من البشر، لذا كان موقفهم مع الرسول ﷺ موقف التكذيب رغم معرفتهم بصدقه وأمانته. قال - تعالى - : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَجْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾^(٤).

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٣، ١٥٤.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٢. قال في القاموس: «وقسمة ضأزى ويثلث لغة في ضيزى أي ناقصة، وضأز: جار...» ص ٦٦١، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣٨/٦).

(٤) سورة يونس، الآية: ٢.

د - إنكارهم البعث :

كانت قريش تنكر البعث، والجزاء والحساب، ولقد سجل عليهم القرآن ذلك في كثير من الآيات. قال - تعالى - : ﴿ قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ مَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ (١) . وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢) .

قال العاصي بن وائل للنبي ﷺ، وقد أتى له بعضهم قد رمّ وبلي، ففته أمام النبي ﷺ، وقال: هل يحيي الله هذا بعد ما رم؟ قال له النبي ﷺ: «نعم. ويبعثك، ويدخلك النار» (٣) .

هـ - الاستقسام بالأزلام :

ومن عوائدهم الاستقسام بالأزلام (٤)، وكانوا يأترون بما يظهر لا يخالفونه.

قال ابن كثير: وقد كانت العرب في جاهليتهم يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قدامح ثلاثة، على أحدها مكتوب افعل، وعلى الآخر لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا جالها فطلع سهم الأمر فعله أو النهي تركه، وإذا طلع الفارغ أعاده (٥).

(١) سورت ق، الآيات: ١ - ٣ .

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٤ .

(٣) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢٩/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي .

(٤) الأزلام: الرُّلْمُ والرُّلْمُ واحدُ الأزلام: وهو القدامح التي كانت في الجاهلية عليها مكتوب الأمر والنهي، افعل ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وعاء له، فإذا أراد سفرًا أو زواجًا أو أمرًا مهمًا أدخل يده فأخرج منها زلماً، فإذا خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عنه ولم يفعله. النهاية (٣١١/٢) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٨/٢) .

ثانيًا: وكانوا بمعتقداتهم هذه يتحركون من خلال سلطان سياسي واجتماعي واقتصادي. فكانت لهم قوتهم السياسية المتمثلة في هيمنتهم على مكة والحرم والبيت والحج، وكانت القبائل تنظر إلى قريش نظرة تعطيها معنى السلطان السياسي، وفي جانب الاقتصاد كانوا يسيطرون على التجارة بين مكة والشام وطرق القوافل من وإلى مكة في تعامل ربوي صارخ. وفي الجانب الاجتماعي كانت لهم تركيبتهم الاجتماعية التي تشمل عاداتهم وتقاليدهم في أفراحهم وأحزانهم وأنكحتهم وفي نظرتهم إلى الآخرين من غيرهم، فجاء الإسلام يلغي كل سيء ومحرم في هذه المظاهر كلها، سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، ويبقي على الصالح منها فلم يعجب كفار قريش ذلك، وأحسوا أن السلطان سيسحب منهم، كما عبر عن ذلك أبو جهل حين قال: تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه^(١).

فكان الكيد والإيذاء للإسلام ولرسوله ﷺ ولأهله، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٣٧).

المبحث الأول

- كيد المشركين بشخص الرسول ﷺ، ويشتمل على ما يلي:
- ١ - إيذاء المشركين للرسول ﷺ.
 - ٢ - تكذيب المشركين بالرسول ﷺ.
 - ٣ - محاولة المشركين قتل الرسول ﷺ.

١ - إيذاء المشركين للرسول ﷺ :

إن من سنن الله في الأرض الصراع بين الحق والباطل إلى قيام الساعة، وإن أهل الباطل غالبًا ما يحاولون النيل من أهل الحق لذواتهم، وإنما لما عندهم من الحق، وسيظل ذلك إلى قيام الساعة، ولقد كان أشد الناس بلاء في هذا الأمر الأنبياء - عليهم السلام -.

ولقد لقي النبي ﷺ من الابتلاء والعنت ما تنوء بحمله الجبال. وإليك غيض من فيض مما كان يفعله أهل الباطل به :

فمن ذلك ما لقيه النبي ﷺ من الإيذاء في مكة ما لم يجده في المعارك الدامية مثل معركة أحد، ومثل ما لقيه في الطائف حيث قال: «عرضت نفسي على ابن عبدياليل بن عبدكلال^(١) فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(٢)، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة أظلتني، فنظرت فإذا جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك،

(١) ابن عبدياليل بن عبدكلال. قال ابن حجر: اسمه كنانة، ويقول: الذي عند أهل النسب: عبدياليل مسعود. وكان من أكابر أهل الطائف من ثقيف. فتح الباري (٦/٣٨٨).

(٢) قرن الثعالب: هو قرن المنازل. ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة منها وأصله الجبل الصغير المستطيل المنقطع عن الجبل الكبير. سبل الهدى والرشاد (٢/٤٤٢).

إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين^(١). قال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(٢).

وقبل هذا لقي الرسول ﷺ الكثير من قومه، ولكن حرصه ﷺ على هداية القوم كانت أكبر من تلك الصعوبات التي واجهها، وكان على رأس أولئك القوم أبوجهل - لعنه الله -.

فقد ورد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال أبوجهل: هل يعفر^(٣) محمد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم. قال: واللات والعزى، لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص^(٤) على عقبه، ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» فأنزل الله - لا ندري أفي حديث أبي هريرة أو شيء بلغه -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا نَطَعُهُ ﴿٥﴾﴾. قال: وأمره بما أمره به. زاد في رواية: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿٧﴾﴾ يعني قومه^(٦)، ومع ما رأى أولئك القوم من الدلائل والآيات الواضحة الدالة على

(١) الأخشبان: ثنية أخشب، وأخشب من الجبل الخشن الغليظ. والأخشبان جبلان يضافان تارة إلى مكة... أحدهما أبوقبيس، والآخر قعيقعان، ويقال هما: أبوقبيس، والجبل الأحمر المشرف هناك. معجم البلدان (١/١٤٦، ١٤٩).

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين... (٢٨٣/٤)، عن عائشة، مرفوعاً. ومسلم في الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (٣/١٤٢٠) رقم ١٧٩٥.

(٣) يعفر: يريد بن سجوده على التراب. النهاية (٣/٢٦٢).

(٤) ينكص: من النكوص وهو الرجوع إلى الوراء، وهو القهقرة. النهاية (٥/١١٦).

(٥) سورة العلق، الآيات: ٦ - ١٩.

(٦) رواه مسلم في صفات المنافقين، باب قوله - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾﴾ أن رآه استغنى ﴿٧﴾. (٤/٢١٥٤) رقم ٢٧٩٧، عن أبي هريرة، مرفوعاً.

صدقه إلا أنهم يمعنون ويزدادون في غيهم، وعنادهم وإيذائهم.
 فهذا عقبة بن أبي معيط^(١) يأتي له في صلاته ويحاول النيل
 منه ﷺ بغية التخلص منه، ومن الإسلام الذي جاء به. فعن عروة
 ابن الزبير^(٢) - رضي الله عنهما - قال: سألت عبدالله بن عمر^(٣) عن
 أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ. قال: رأيت عقبة بن أبي
 معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداؤه على عنقه، فخنقه
 خنقاً شديداً، فجاء أبوبكر حتى دفعه عنه، ثم قال: أتقتلون رجلاً أن
 يقول ربي الله؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم^(٤).

ولقد بلغت قريش في إيذائها بالنبي ﷺ كل مبلغ، وتفنتت في
 طرق إيذائه حتى بلغ بهم الأمر إلى وضع سلا الجزور^(٥) على ظهره
 وهو يصلي.

فعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ كان
 يصلي عند البيت، وأبوجهل وأصحاب له جلوس، فقال أبوجهل:

(١) عقبة بن أبي معيط بن أبي عمر بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف، كان من الذين يؤذون
 النبي ﷺ، وأسر يوم بدر، وأمر النبي ﷺ بقتله بعرق الظبية، والذي تولى قتله عاصم بن
 ثابت الأنصاري، وقيل: قتله علي بن أبي طالب. سيرة ابن هشام (١/٣٢٢).

(٢) عروة بن الزبير بن العوام، هو ابن حوارى النبي ﷺ، وابن عمته صفية، الإمام العالم
 أبو عبدالله، القرشي الأسدي المدني الفقيه، أحد الفقهاء السبعة، توفي سنة ٩٣هـ. سير
 أعلام النبلاء (٤/٤٢١).

(٣) عبدالله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي المكي، ثم المدني، الإمام القدوة، أسلم
 وهو صغير ثم هاجر مع أبيه، واستصغر يوم أحد، فأول غزواته الخندق، وممن بايع
 تحت الشجرة. توفي سنة ٧٣هـ، وعمره ٨٧ سنة. سير أعلام النبلاء (٣/٢٠٣).

(٤) سورة غافر، الآية: ٢٨، والحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب
 (قول الرسول ﷺ: لو كنت متخذاً خليلاً)، (٤/١٩٧)، عن عبدالله بن عمر.

(٥) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه. النهاية، لابن الأثير
 (٢/٣٩٦).

قال في القاموس: «السلى: جلدة فيها الولد من الناس والمواشي»، ص ١٦٧٢، وقال:
 «والجزور: البعير أو خاص بالناقة» ص ٤٦٥، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، فلو كانت لي منعة طرحته عن ظهر الرسول ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت - وهي جويرية - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم - وكان إذا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً - ثم قال: اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات - فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة^(١)، وشيبة بن ربيعة^(٢)، والوليد بن عتبة^(٣)، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع ولم أحفظه. قال: فوالذي بعث محمداً بالحق لقد رأيت الذي سمى صرعى، ثم سحبوا إلى القلب^(٤) - قلب بدر - «وفي رواية ذكر السابع عمارة ابن الوليد^(٥)»^(٦).

(١) عتبة بن ربيعة بن عبدشمس القرشي، وكان من أشرف قريش، وكان أحد الذين شاركوا في اجتماع دار الندوة في شأن الرسول ﷺ، وقتل في غزو بدر مبارزة. سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥).

(٢) شيبة بن ربيعة أخو عتبة بن ربيعة، من أشرف قريش، قتله حمزة بن عبدالمطلب في المبارزة يوم بدر. سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥).

(٣) الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس، قتله علي بن أبي طالب مبارزة يوم بدر. سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥).

(٤) القلب: هو البئر قبل أن تطوى. لسان العرب (١/٦٨٩).

(٥) عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، هو الذي عرضته قريش على أبي طالب ليأخذه بدل الرسول ﷺ، بعثته قريش للنجاشي في شأن المهاجرين إلى الحبشة. ابن هشام (١/٢٧٩)، البداية والنهاية (٣/٧٤).

(٦) رواه البخاري في الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عفيه صلاته (١/٦٥)، عن ابن مسعود، مرفوعاً، وفي ستر المصلي، والجهاد، و فضائل =

٢ - تكذيب المشركين للنبي ﷺ:

ولقد سبق ذلك الإيذاء تكذيبهم بما جاء به النبي ﷺ رغم أن ما جاء به بين واضح، وقد أظهر لهم من الآيات ما يكفي لكي يصدقوه ويتبعوه، بل لقد كانت له مكانة كبيرة في قومه، كيف لا وهم يلقبونه بالصادق الأمين، لكن الحسد الذي ملأ قلوبهم ونفوسهم منعهم من التصديق بالحق الذي جاء به.

عن علي بن أي طالب - رضي الله عنه - أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن تكذب بما جئت به، فأنزل الله فيهم: ﴿فَاتَّبَعُوا لَآيِكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾^(١).

٣ - محاولة قتل المشركين للنبي ﷺ:

عندما فشل أهل الشرك في صد النبي ﷺ عن ما يدعو إليه، وصل بهم الأمر إلى محاولة التخلص منه بقتله، وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان، والأمر الذي يدعو إليه النبي ﷺ، وكل من أتى بعده من أهل الدعوة طريق مليء بالمتاعب والمخاطر والأشلاء

= أصحاب النبي ﷺ. ومسلم في الجهاد والسير (١٤١٨/٣)، رقم ١٧٩٤، عن ابن مسعود، مرفوعاً بلفظ البخاري، والنسائي في الطهارة، باب فرث ما يؤكل لحمه يصيب الثوب (١/١٦١)، رقم ٣٠٧، عن ابن مسعود، مرفوعاً بنحوه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣. والحديث أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنعام (٥/٢٦١)، رقم ٣٠٦، عن علي، مرفوعاً.

ومن طريق ناجية، مرفوعاً، فذكر نحوه قال الترمذي: وهذا أصح. والحاكم في المستدرک في التفسير (تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٥)، عن علي، مرفوعاً بنحوه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال الذهبي: ما خرجه لناجية شيئاً.

قال العلامة أحمد شاكر - رحمه الله - في عمدة التفسير (٥/٢٥): «فالوصل زيادة من ثقتين فهي مقبولة على اليقين وكلام الذهبي صحيح، ولكن ناجية تابعي ثقة، والحديث صحيح وإن لم يكن على شرطهما». انظر: جامع الأصول (٢/١٣٢).

والأشواك. قال - تعالى - : ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ .

ولقد حدثت عدة محاولات جماعية لقتل النبي ﷺ بغية التخلص منه حتى لا ينتشر ما جاء به من الهدى والنور.

ومن تلك المحاولات محاولة جماعية لقتل النبي ﷺ تداول فيها كبار القوم الرأي في كيفية التنفيذ، وساعدهم في ذلك إبليس - عليه اللعنة - . قال - تعالى - : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ...﴾^(١).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة^(٢) ليتشاوروا فيها في أمر الرسول ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل^(٣) عليه بت^(٤) فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد^(٥) سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم لسمع ما تقولون وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً!!!

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) دار الندوة: بمكة أحدثها قصي بن كلاب بن مرة لما تملك مكة وهي دار كانوا يجتمعون فيها للمشاورة. معجم البلدان (٢/٤٨٣).

(٣) جليل: أي مسن. النهاية (١/٢٨٨).

(٤) بَتٌ: كساء غليظ مربع. النهاية (١/٩٢). بَتٌ: بفتح الموحدة وتشديد المثناة.

(٥) قال ذلك لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من تهامة؛ لأن هواهم مع محمد. الروض الأنف (٤/٢٠٠). ونجد: الأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها العراق والشام. وحد نجد من ناحية الحجار: ذات عرق. معجم البلدان (٥/٢٦٢).

قالوا: أجل فادخل، فدخل وقد اجتمع فيها أشرف قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا، فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابًا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيرًا، والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره إلى من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلاوشكوا أن يشبوا عليكم فينزعه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم^(١): نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، وإذا غاب عنا وفرغنا منه أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال مما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم فيأخذ أمركم.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أن نأخذ من كل قبيلة فتى

(١) هو أبو الأسود، ربيع بن عامر.

شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا^(١) فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعًا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل^(٢)، فعقلناه لهم.

فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا أرى غيره، فتفرق القوم وهم على ذلك وهم مجمعون عليه.

فأتى جبريل - عليه السلام - رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت فيه، فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي، وتسج^(٣) ببردي هذا» وكان رسول الله ﷺ ينام في برده^(٤) ذلك إذا نام^(٥). فحفظ الله رسوله ﷺ، وجعل الذلة والمهانة والرغام على من أراد قتله، والكيد به.

ومع هذا لم ينج النبي ﷺ - أيضًا - من محاولات فردية - أيضًا - لقتله، ولكن الله - عز وجل - يكلؤه ويحفظه.

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد^(٦)، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدرکتهم القائلة

(١) الوسيط: الشريف. النهاية (١٨٤/٥).

(٢) العقل: الدية. النهاية (٢٧٨/٣).

(٣) تسجى بالثوب: تغطى. النهاية (٣٤٤/٢).

(٤) برده: الشملة المخططة. وقيل: كساء أسود مربع النهاية (١١٦/١).

(٥) سيرة ابن هشام (١٢٤/٢).

(٦) وذكر القصة ابن القيم في زاد المعاد، وعزاه لابن هشام، وقال: رجاله ثقات غير شيخ =

في واد كثير العضاء^(١)، فنزل رسول الله ﷺ وتفرَّق الناس في العضاء يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله فما هو ذا جالس». فلم يعاقبه رسول الله ﷺ^(٢).

ابن إسحاق.

قال صاحب الفتح الرباني: أوده الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، ويقية رجاله رجال الصحيح. الفتح الرباني (٢٧٨/٢٠).

(١) العضاء: جمع عضة، كل شجر يعظم وله شوك. لسان العرب (٥١٧/١٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب (غزوة ذات الرقاع) (٤٢٦/٧) فتح الباري.

ومسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة الخوف (٥٧٦/١)، عن جابر بمثله زاد صلاة الخوف، مع اختلاف يسير.

المبحث الثاني كيد المشركين بأهل الرسول ﷺ

ويشتمل على ما يلي :

أولاً: كيد المشركين ببنات النبي ﷺ .

ثانياً: كيد المشركين بزواج النبي ﷺ خديجة - رضي الله عنها - .

تمهيد:

اقتضت حكمة الباري - سبحانه - أن تكون القوامة في الحياة للرجال على النساء؛ لحاجتهن الماسة للحماية والشفقة والعطف، وصون العرض والشرف.

وقد كان العرب في الجاهلية يدركون بعضاً من هذه المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، فنجد مثل عترة^(١) يقول:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتني

حتى يوارى جارتني مأواها

كما كانت فيهم الحمية والغيرة على هذا النوع الضعيف، ولكن هذه المعاني تبددت بعد أن أصبحت المعركة بين الحق والباطل، فحين أشرقت الأرض بنور الإسلام، ودوّى صوته في شعاب مكة، تزلزلت الأرض تحت أقدام المشركين وانبروا يصدون عن الطريق المستقيم من آمن يبغونها عوجاً، وتفننوا في مقاومة الحق وأهله، حتى تخلوا عن مبادئهم الأولى في الحفاظ على أعراض الآخرين ومقدراتهم الشخصية، فأذوا رسول الله ﷺ، واستطالوا على عرضه بأبي هو وأمي، سواء في زوجاته أو بناته، وفيما يلي إشارات إلى بعض هذه المعاني.

(١) عترة بن شداد الشاعر الجاهلي المعروف بشجاعته، وهو من قبيلة بني عيس، وأحد أصحاب المعلقات السبع. قيل: توفي قبل البعثة بثمان سنين. الشعر والشعراء، لابن قتيبة.

أولاً: كيد المشركين بنات النبي ﷺ:

أ - كيدهم برقية^(١) وأم كلثوم^(٢) - رضي الله عنهما -:

ذكر ابن إسحاق أن قريشاً سعت في تطليق بنات النبي ﷺ من أزواجهن، وكان الرسول ﷺ قد زوج ابني أبي لهب من بنتيه رقية وأم كلثوم^(٣).

فلما بادى قريشاً بأمر الله وبالعداوة، قالوا: إنكم قد فرغتم محمداً من همه، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن، فمشوا إلى أبي العاصي^(٤) فقالوا له: فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت، قال: لا والله، إني لا أفارق صاحبتني، وأحب أن لي بامرأتي امرأة.

وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره خيراً فيما بلغني.

ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب^(٥) فقالوا له: طلق بنت محمد،

(١) رقية بنت الرسول ﷺ، تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل الهجرة، ففارقها قبل الدخول، وأسلمت مع أمها وأخواتها، ثم تزوجها عثمان وهاجر معها إلى الحبشة. توفيت والمسلمون في بدر. سير أعلام النبلاء (٢/٢٥٢).

(٢) أم كلثوم بنت الرسول ﷺ، يقال: تزوجها عتبة بن أبي لهب ثم فارقها قبل الدخول، أسلمت وهاجرت بعد النبي ﷺ. وتزوجها عثمان بعد وفاة أختها رقية، وهي بكر، وتوفيت في شعبان سنة ٩هـ. سيرة أعلام النبلاء (٢/٢٥٠).

(٣) قال السهلي: وكانت رقية بنت رسول الله ﷺ تحت عتبة بن أبي لهب، وأم كلثوم تحت عتبية فطلقاهما بعزم أبيهما وأمهما حين نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ فأما عتبية فدعا عليه النبي ﷺ أن يسلط عليه كلباً من كلابه، فافترسه الأسد من بين أصحابه وهم نيام حوله، وأما عتبة ومعتب ابنا أبي لهب، فأسلما ولهما عقب. الروض الأنف (٥/١٩٦).

(٤) أبو العاص زوج زينب بنت الرسول ﷺ، هو ابن الربيع بن عبد العزى القرشي، صهر الرسول ﷺ، أسلم قبل الحديبية بخمسة أشهر، توفي في خلافة الصديق سنة ١٢هـ. سير أعلام النبلاء (١/٣٣٠).

(٥) عتبة بن أبي لهب، تزوج رقية بنت الرسول ﷺ، ثم فارقها بأمر من أبيه قبل الدخول عليها. سيرة ابن هشام (٢/٢٩٤).

ونحن ننكحك أي امرأة من قريش شئت، فقال: إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاصي فارقتها، فزوجوه بنت سعيد بن العاصي وفارقها، ولم يكن دخل بها، وأخرجها الله من يده كرامةً لها وهواناً عليه، وخلف عليها عثمان بن عفان من بعده^(١).

لقد اجتهد القوم في تطليق بنات الرسول ﷺ بالمقال والفعال، حيث كانوا يغرون أزواجهن بأن يزوجهن بمن شائوا من نساء قريش، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى ما هو أشد من ذلك.

ب - كيدهم بزینب^(٢) - رضي الله عنها - :

قال ابن إسحاق: حدثني عبدالله بن أبي بكر^(٣) قال: حدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز بمكة للحوق بأبي لقيتني هند بنت عتبة^(٤) فقالت: يا بنت محمد ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ قالت: ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عمي لا تفعلني، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو بمال تتبلغين به

(١) سيرة ابن هشام (٣٠٦/٢، ٣٠٧)، والروض الأنف (١٦٢/٥).

(٢) زينب بنت سيد ولد آدم، محمد بن عبدالله، القرشية الهاشمية، وهي أكبر بنات الرسول ﷺ، تزوجها أبو العاص بن الربيع، وهي والدة أمامة التي كان الرسول ﷺ يحملها في الصلاة، توفيت سنة ٨هـ وعمرها ٣٠ سنة. الإصابة (٢٧٣/١٢)، سير أعلام النبلاء (٣٣٤/١).

(٣) عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم الأنصاري القاضي، ثقة، من الخامسة، مات سنة ١٣٥هـ وله ١١٠ سنة. التقريب ص ١٦٩.

(٤) هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية، والدة معاوية بن أبي سفيان، أخبارها مشهورة، لاكت قطعة من كبد حمزة، ثم أسلمت يوم الفتح، وقصتها عند بيعة النساء عند قوله: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ فقالت: وهل تزني الحرة؟ وعند ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت: قد ريئناهم صغاراً، وقتلتهم كباراً. الإصابة (١٦٥/١٣).

إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تضطني مني فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، قال: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. قالت: ولكن خفتها، فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت. فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قدم لها حموها كنانة بن الربيع^(١) أخو زوجها بعيراً، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بندي طوى^(٢) فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى^(٣)، الفهري فروعها هبار بالرمح وهي في هودجها، وكانت المرأة حاملاً - فيما يزعمون - فلما ريعت طرحت ذا بطنها وبرك حموها كنانة، ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكرر^(٤) الناس عنه وأتى أبوسفیان في جلة من رجال قريش فقال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف، فأقبل أبوسفیان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابتته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك من ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة،

(١) كنانة بن الربيع بن عبد العزى، أخو أبي العاص بن الربيع، خال الرسول ﷺ، وهو الذي خرج مع زينب بنت الرسول ﷺ حتى أوصلها إلى المدينة. ابن هشام (٢/٢٩٨)، الاستيعاب (٣/١٣٣٠).

(٢) ذي طوى: منهم من يضمها والفتح أشهر، وهو واد بمكة.

(٣) هبار بن الأسود بن المطلب القرشي، صحابي، أسلم عام الفتح، مات بعد سنة ١٥ هـ. الإعلام (٨/٧٠).

(٤) تكرر: أي تراجع، من كررته عني إذا دفعته ورددته. لسان العرب (٥/١٣٧).

وما لنا في ذلك من ثورة^(١)، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحديث الناس أن قد رددناها، فسلها سرًا، وألحقها بأبيها، قال: ففعل.

فأقامت ليالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة^(٢) وصاحبه، فقدا بها على رسول الله ﷺ، وفي رواية أبي هريرة قال: (بعث رسول الله ﷺ سرية وأنا فيها فقال لنا: إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر... فحرقوهما بالنار^(٣)...) وفي هذا دليل على فظاعة ما فعلاه بابنته - رضي الله عنها -.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن أبي حبيب^(٤)، عن بكير بن عبدالله بن الأشج^(٥)، عن سليمان بن يسار^(٦)، عن أبي إسحاق الدوسي^(٧)، عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها، فقال لنا: «إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي سبق معه إلى زينب - قال ابن هشام: وقد سمى ابن إسحاق الرجل في

(١) ثورة: طلب الثأر.

(٢) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، أبو أسامة، مولى رسول الله ﷺ، صحابي جليل مشهور، من أول الناس إسلامًا، استشهد يوم مؤتة في حياة النبي ﷺ سنة ٨هـ. التقريب (٢٢٢ رقم ٢١٢٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٣٠٨-٣١٢).

(٤) يزيد بن أبي حبيب المصري، أوردجاء، ثقة فقيه وكان يرسل، من الخامسة، مات سنة ١٢٠هـ. التقريب ص ٢٥٥ رقم ٢٦١٩.

(٥) بكير بن عبدالله بن الأشج، مولى بني مخزوم، ثقة، من الخامسة، مات سنة ١٢٠هـ. التقريب ص ١٢٨ رقم ٢٦١٩.

(٦) سليمان بن يسار الهلالي، مولى ميمونة، ثقة فاضل، أخذ الفقهاء السبعة، مات بعد المائة. التقريب ص ٢٥٥ رقم ٧٧٠١.

(٧) أبو إسحاق الدوسي، مولى بني هاشم، مقبول، من الثالثة. التقريب ص ٣٩٣. وقال ابن السكن: مجهول. تهذيب التهذيب (٩/١٢).

حديثه، وقال: هو نافع بن عبد قيس^(١) - فحرقوهما بالنار.

قال: فلما كان الغد بعث إلينا، فقال: «إني قد أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما»^(٢).

ج - كيدهم بفاطمة - رضي الله عنها -:

ولقد وجدت فاطمة - رضي الله عنها - ابنته ﷺ من التعب النفسي ما لقيت وهي ترى أباهما وأصحابه وما يلاقون من صنوف الأذى على أيدي المشركين من قريش، كيف لا وهي تميط السلا عن ظهر أبيها، ويبلغ الحق منها مبلغه فأقبلت على قريش تسبهم.

ثانياً: كيد المشركين بزواج النبي ﷺ خديجة^(٣) - رضي الله عنها -:

(١) نافع بن عبد قيس، هو الرجل الآخر الذي كان مع هبار في تزويج زينب، وقد أرسل الرسول ﷺ سرية لقتلهما إن ظفروا بهما. ابن هشام (٣٠٢/٢).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه، في السير، باب في النهي عن التعذيب بعذاب الله (٢٢٢/٢)، عن أبي هريرة، مرفوعاً.

وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٨٩/١٢) رقم ١٤٠٨٨. والحديث فيه أبو إسحاق، وهو مجهول. البداية (٢٣١/٣)، السيرة النبوية، لابن هشام (٣١٢/٢) من طريق أبي إسحاق بسنده إلى أبي هريرة، مرفوعاً به. الروض الأنف (١٦٧/٥).

وفي البخاري في الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله (٢١/٤)، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار» ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: «إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما.

الترمذي في السير (١٣٧/٤)، رقم ١٥٧١، وفي الباب عن ابن عباس، وحمزة بن عمرو الأسلمي.

(٣) خديجة بنت خويلد، أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين، وأم أولاد الرسول ﷺ، وأول من آمن على الإطلاق، توفيت قبل فرض الصلاة، ودفنت بالحجون وعمرها ٦٥ سنة. سير أعلام النبلاء (١٠٩/٢).

ولقد لقيت خديجة زوج النبي ﷺ من العناء والتعب ما لقيت
حينما قاطعت قريش الرسول ﷺ في الشعب، وظلت معه على ذلك
تشد من أزر الرسول ﷺ حتى لقيت ربها قبل الهجرة بثلاث
سنين^(١).

(١) سيرة ابن هشام (٥٧/٢).

المبحث الثالث

كيد المشركين بأصحاب النبي ﷺ.

ويشتمل على ما يلي:

- ١ - كيد المشركين ببلال - رضي الله عنه - .
- ٢ - كيد المشركين بآل ياسر - رضي الله عنه - .
- ٣ - كيد المشركين بأبي بكر - رضي الله عنه - .
- ٤ - كيد المشركين بحمزة - رضي الله عنه - .
- ٥ - كيد المشركين بعاصم ومن معه من الصحابة - رضي الله عنهم - .
- ٦ - كيد المشركين بعبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - .
- ٧ - صور أخرى من كيد المشركين بالصحابة - رضوان الله عليهم - .

تمهيد:

لم يكن الكيد منصباً على النبي ﷺ فحسب، بل تعداه إلى الصحابة - رضوان الله عليهم -؛ طمعاً في إرجاعهم إلى ما كان عليه الآباء والأجداد من جهة، ولإيذاء النبي ﷺ عندما يرى أصحابه يعذبون من جهة أخرى، وليكون ذلك الكيد - أيضاً - صدًا لكل من يفكر في الدخول في هذا الدين، ولقد بلغ كيدهم بالصحابة - رضوان الله عليهم - مبلغاً عظيماً.

يقول خباب بن الأرت^(١): شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء^(٢) إلى حضرموت^(٣) لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون^(٤).

(١) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة التميمي، أبو عبدالله، سبي في الجاهلية فبيع بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية، أسلم سادس سنة، وهو أول من أظهر إسلامه وعذب عذاباً شديداً لأجل ذلك، شهد بدرًا والمشاهد بعدها، نزل الكوفة، ومات بها سنة ٣٧هـ. الإصابة (٧٦/٣) رقم ١٤٨٦.

(٢) صنعاء: موضعان أحدهما باليمن وكان اسمها في القديم أزال، فلما وافتها الحبشة قالوا: نعم فسمي الجبل نعم أي انظر، فلما رأوا مدينتها وجدوها مبنية بالحجارة حصينة، فقالوا: هذه صنعاء أي حصينة، فسميت صنعاء. معجم البلدان (٤٨٢/٣).

(٣) حضرموت: هي ناحية واسعة في شرقي عدن قرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وبها قبر هود - عليه السلام -، وبين حضرموت وصنعاء اثنتان وسبعون فرسخًا. معجم البلدان (٣١١/٢).

(٤) أخرجه البخاري في الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل على الكفر. وأبوداود في الجهاد، باب في الأسير يكره على الكفر (١٠٧/٣) برقم ٢٦٤٩، بلفظ =

١ - كيد المشركين ببلال الحبشي - رضي الله عنه - :

وهذا بلال الحبشي^(١) - رضي الله عنه - : لم يكن له ذنب إلا أن شهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فكان أمية بن خلف بن وهب بن حذاف بن جمح يخرج به إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة^(٢)، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات^(٣) والعزى^(٤)، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. حتى مر أبوبكر بن أبي قحافة - رضي الله عنه - يومًا، وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في جمح^(٥)، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى، فقال أبوبكر: أفعل. عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت. فقال: هو لك.

فأعطاه أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - غلامه ذلك وأخذ

البخاري.

والنسائي، باب لبس البرد (٢٠٤/٨) برقم ٥٣٢٠، عن خباب، وأورد الفقرة الأولى من الحديث فقط.

مجمع الفوائد (٥٦/٨)، عن خباب بن الأرت، به.

(١) بلال بن رباح، مؤذن الرسول ﷺ، وهو ابن أبي عبدالله، مولى أبي بكر، من السابقين الأولين وشهد بدرًا والمشاهد، مات بالشام سنة ١٧هـ. التقريب ص ١٢٩ رقم ٧٧٩.

(٢) أبطح مكة: هو سيل واديها. النهاية (١٣٤/١).

(٣) اللات: اسم صنم كانت تعبده ثقيف بالطائف، هدمها أبوسفیان، والمغيرة بن شعبة. معجم البلدان (٤/٥).

(٤) أخرجه الحاكم في معرفة الصحابة، ذكر مناقب عمار بن ياسر - رضي الله عنه - (٣٨٣/٢)، من طريق ابن إسحاق بمثله.

العزى: قال ابن حبيب: العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان، هدمه خالد ابن الوليد. معجم البلدان (١١٩/٤).

(٥) الجمح: جبل لبني نمير، وهو مجمع من مجامح لصوصهم. معجم البلدان (١٨٦/٢).

بلاياً فأعتقه^(١).

ولم يقف تعذيب قريش عند هذا الحد، بل تعداه إلى غيرهم من الضعفاء الذين لا قوا ما لا قوه من التعذيب.

٢ - كيد المشركين بآل ياسر - رضي الله عنهم -:

قال ابن إسحاق: وكانت بنومخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر عليهم رسول الله ﷺ فيقول - فيما بلغني -:

(١) سيرة ابن هشام (٣٣٩/١، ٣٤٠)، الروض الأنف (١٩٩/٣، ٢٠٠)، والسيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري (١٥٤/١).

أخرجه ابن ماجه في المقدمة، فضل سلمان، وأبي ذر، والمقداد (٥٢/١) رقم ١٥٠، عن ابن مسعود قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمار وأمه سمية، وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسهم أدرعاً من حديد، وحموهم في الشمس، فما من أحد إلا وقد اتاهم ما أرادوا إلا بلاياً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد.

انظر: مصباح الزجاجة في اتباع السنة، باب فضل جماعة من الصحابة (٢٣/١)، عن ابن مسعود، بلفظ ابن ماجه.

قال الهيثمي: هذا إسناد رجاله ثقات، رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، والإمام أحمد.

ابن حبان في صحيحه (الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان) في المناقب (١٠٧/٩) رقم ٧٠٤١، بلفظ ابن ماجه.

والحاكم في المستدرک في معرفة الصحابة (٧١/٣)، عن ابن مسعود، بلفظ ابن ماجه. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وأحمد في المسند (تحقيق الشيخ أحمد شاکر (٣١٩/٥) رقم ٣٨٣٢)، عن ابن مسعود، بلفظ ابن ماجه.

قال العلامة أحمد شاکر: إسناده صحيح.

«صبراً آل ياسر موعدكم الجنة»^(١).

فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام^(٢).

ولقد مر أبو بكر الصديق بجارية بني مؤمل^(٣)، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها لترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها حتى إذا مل قال: إني أعتذر إليك، إني لم أترك إلا ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك، فابتعها أبو بكر فأعتقها^(٤).

وذكر ابن إسحاق أن أبا جهل الذي كان يغري بهم رجالاً من

- (١) أخرجه الحاكم في معرفة الصحابة، ذكر مناقب عمار بن ياسر - رضي الله عنه - (٢/٣٨٣)، من طريق ابن إسحاق بمثله.
- وابن حجر في المطالب العالية في مناقب الصحابة، باب فضل عمار بن ياسر (٤/٨٧) رقم ٤٠٣٤، عن عثمان بن عفان بمثله. وقال «للحارث».
- قال المحققون: قال البوصيري: رواه الحارث بسند منقطع.
- مجمع الزوائد في المناقب، باب فضل عمار بن ياسر وأهل بيته (٩/٢٩٣)، عن عثمان بن عفان بمثله.
- قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.
- وكذلك عن جابر مرفوعاً بمثله، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبدالعزيز المقوم، وهو ثقة.
- أخرجه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٨٨)، عن جابر، مرفوعاً بمثله.
- وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
- قال الدكتور أكرم ضياء العمري في كتاب السيرة النبوية الصحيحة: وقد وردت روايات كثيرة في ألوان العذاب التي لقيها عمار بن ياسر وأهله، وهي تكفي لإثبات وقوع الحادث تاريخياً، وقد ذكر المفسرون أن الآية ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ نزلت في عمار.
- (٢) الروض الأنف (٣/٢٠١)، سيرة ابن هشام (١/٣٤٢).
- (٣) جارية بني مؤمل: كانت من جملة من اشترى أبو بكر بن العبيد، وكانت جارية لنبي مؤمل حي من بني عدي، وكان يعذبها على الإسلام. البداية والنهاية (٣/٥٦)، الروض الأنف (٣/٢٠١، ٢٠٢)، سيرة ابن هشام (١/٣٤٢).
- (٤) الروض الأنف (٣/٢٠١، ٢٠٢)، سيرة ابن هشام (١/٣٤٢).

قريش، كان إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعه، أبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنفيين^(١) رأيك، ولنضعنَّ شرفك^(٢).

هكذا كان يفعل أهل الشرك بأهل الإيمان، وما زالوا إما التشهير والتسفيه، وإما التعذيب الجسدي، أو الإخراج من الديار، أو القتل وما أشبه الليلة بالبارحة، وكأن الشيطان ينقل لأهل الباطل ويوحى لهم بالوسائل التي تتخذ ضد أهل الحق في كل زمان ومكان، وقد بلغ الصبر مبلغه بالصحابة - رضوان الله عليهم - حتى شكوا ذلك للنبي ﷺ كما تقدم^(٣).

لذا ينبغي لمن أراد أن يسلك طريق أهل الإيمان أن يوطن نفسه على تحمل المشاق والصبر على الأذى؛ لأن طريق الإيمان مفروش بالأشلاء والأشواك والبلاء، والمكاره. لأن الجنة حفت بالمكاره فمن صبر ظفر، والنار حفت بالشهوات فمن انساق لها وقع في الهلكة، والمعصوم من ذلك من وفقه الله للطاعة، وجاهد نفسه على الاستقامة وصبر على الأذى حتى يلقي الله فيوفيه حسابه.

٣ - كيد المشركين بأبي بكر - رضي الله عنه -:

ولقد امتدت يد الكيد إلى أبي بكر - رضي الله عنه - خير رجل طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء، مما اضطره إلى الخروج من مكة، فرده ابن الدغنة في جواره، ثم رد جواره، وعاد إليه الأذى من جديد حتى أذن الله في الهجرة إلى المدينة.

(١) فيل رأيه: ضعفه وسخفه. غريب الحديث، للخطابي (٩/٢).

(٢) الروض الأنف (٣/٢٠١، ٢٠٢). سيرة ابن هشام (١/٣٤٢).

(٣) كيد المشركين بأصحاب النبي ﷺ، ص ٢٥٩.

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشيًا، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى بلغ برك الغماد^(١) لقيه ابن الدغنة - وهو سيد القارة - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جارٌّ، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به؛ فإننا نخشى أن يفتن نساتنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر: فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا

(١) برك الغماد: بكسر الغين المعجمة، موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل بلد باليمن. معجم البلدان (١/٤٧٤).

أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً ببناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك؛ فإننا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل، والنبى ﷺ يومئذ بمكة.

فقال النبى ﷺ للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان».

فهاجر من هاجر قبل المدينة. ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهّز أبو بكر قبل المدينة.

فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي».

فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك - بأبي أنت -؟ قال: «نعم».

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر^(١).

٤ - كيد المشركين بحمزة - رضي الله عنه -:

وتواصلت المكائد على أصحاب الرسول ﷺ حتى وصل الأمر

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (٢٥٤/٤)، عن عائشة بلفظه. قال في القاموس: «الرَّسَلُ بالفتح السَّهْل من السير». ص ١٣٠٠.

بالمشركين إلى قتلهم وحربهم؛ حتى يرجع من بقي عن هذا الدين، وليكون ذلك رادعاً لمن يفكر في الدخول فيه، ولقد أدت الوقائع بين كلا الطرفين إلى أن يزداد الكيد، ويزداد التركيز على أصحاب التأثير من هذه الطائفة المؤمنة، ومن بين أولئك الأشاوس عم النبي ﷺ، أبو عمار، حمزة بن عبدالمطلب، حيث طلب جبير بن مطعم من وحشي أن يقتل حمزة بعمه مقابل إغراء كبير وهو أن يكون حرّاً ويخرج من رق العبودية.

فعن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري^(١) - رحمه الله - قال: خرجت مع عبيدالله بن عدي بن الخيار^(٢)، فلما قدمنا حمصاً^(٣)، قال لي عبيدالله: هل لك في وحشي^(٤) نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم.

وكان وَحْشِيٌّ يسكن حمصاً، فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره، كأنه حميت^(٥). قال: فجئنا حتى وقفنا عليه يسير،

(٢) جعفر بن عمرو بن أمية الضمري المدني أخو عبدالمك بن مروان من الرضاعة، ثقة، من الثالثة، مات سنة ٩٥ أو ٩٦. التقريب ٥٦ رقم ٩٤٦.

(٢) عبيدالله بن عدي بن الخيار بن نوفل بن عبدمناف القرشي المدني، قتل أبوه بيدر وكان هو يوم الفتح مميّزاً، فعد من الصحابة لذلك، عدّه العجلي وغيره في ثقات التابعين، مات في آخر خلافة الوليد بن عبدالمك. التقريب ٣٧٢ رقم ٤٣٢٠.

(٣) حمص: بالكسر ثم السكون والهاء، بلد مشهور كبير بين دمشق وحلب نصف الطريق، يذكر ويؤنث. معجم البلدان (٣٤٧/٢).

(٤) وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل، قيل: كان مولى طعيمة بن عديّ، وقيل: مولى أخيه مطعم، وهو قاتل حمزة، شهد اليرموك، ثم سكن حمص ومات بها في خلافة عثمان. الإصابة (٢٩٩/١٠).

(٥) حميت: بمهملة على وزن رغيف، زق كبير، وأكثر ما يقال ذلك إذا كان مملوءاً. فتح الباري (٤٢٦/٧). قال في القاموس: الزق بالكسر السقاء أو جلد يجوز ولا ينفذ للشراب وغيره ص ١١٥٠، الطبعة الثانية، مؤسسة الرمال.

فسلمنا، فرد السلام، قال: وعبيدالله معتمر^(١) بعمامته، ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيدالله: يا وحشي، أتعرفني؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله، إلا أنني أعلم أن عدي بن خيار تزوج امرأة يقال لها: أم قتال بنت أبي العيص، فولدت له غلاماً بمكة، فكنت أسترضع له، فحملت ذلك الغلام مع أمه، فناولتها إياه، فكأنني نظرت إلى قدميك، قال: فكشف عبيدالله عن وجهه، ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي^(٢) بن خيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي، فأنت حر. قال: فلما خرج الناس عام عينين - وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع^(٣) فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور^(٤)، أتحد الله ورسوله؟ قال: ثم شد عليه فكان كأسس الذهاب. قال: وكَمَّنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحررتي فأضعها في ثنته^(٥) حتى خرجت من بين وركيه. قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم مكة فأقامت بمكة حتى فشى فيهم الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله

(١) معتمر: الرجل إذا لف العمامة على رأسه ووجهه. انظر: المصباح المنير ص ٣٩٣.

(٢) طعيمة بن عدي بن خيار من بني نوفل، ومن اجتمعوا في دار الندوة في شأن الرسول ﷺ. سيرة ابن هشام (١٢٢/٢).

(٣) سباع بن عبدالعزى. الفتح (٤٢٧/٧).

(٤) أم أنمار، هي أم سباع، كانت مولاة لشريف بن عمرو الثقفي والد الأخنس، والبظور جمع البظر، وهي لحمة بين شفري المرأة، وهي القلفة التي تقطع في الختان. الفتح (٤٢٧/٧)، المصباح المنير.

(٥) ثنته: عاتته. فتح الباري (٤٢٧/٧). قال الحافظ: «ثنته: بضم المثلة وتشديد النون، وهي العانة» فتح الباري (٣٦٩/٧).

رسلاً، فقيل لي أنه لا يهيج الرسل. قال: فخرجت معهم، حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فما رأيي قال: «أنت وحشي؟» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟» قال: فخرجت، فلما قبض رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب^(١)، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة؛ لعلي أقتله فأكافئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان. قال: فإذا رجل قائم في ثُلْمَةٍ^(٢) جدار، كأنه جمل أورق^(٣)، نائر الرأس. قال: فرميت به بحررتي، فأضعها بين ثدييه، حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووئب رجل من الأنصار^(٤) فضربه بالسيف على هامته. قال: قال عبدالله بن الفضل^(٥): فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وأمير المؤمنين، قتله العبد الأسود^(٦).

وتمضي قافلة الإيمان مع نبيها مبلغة دين الله رغم أنها تنال من العنت ما تنال، وتفقد من صفوفها من كان هم اليد الطولى في الدفاع عن هذا الدين، بل تفقد أقرب الناس إلى النبي ﷺ، وهو

- (١) مسيلمة بن حبيب المالي الكذاب، وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه بني حنيفة، وقد استفحل أمره وظهر بعد وفاة النبي ﷺ، وقتل في وقعة اليمامة سنة ١٢هـ. البداية والنهاية (٣٣٤/٦)، السير (١١/١).
- (٢) ثلثة جدار: أي موضع الكسر منه. النهاية (٢٢٠/١). قال الحافظ: «في ثُلْمَةٍ جدار: أي خلل جدار». فتح الباري (٢٧٠/٧).
- (٣) جمل أورق: أي لونه كلون الرماد. المصباح المنير.
- (٤) هذا الرجل: هو عبدالله بن زيد بن عاصم المازني، وقيل غيره. فتح الباري (٤٢٩/٧).
- (٥) عبدالله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، الهاشمي المدني، ثقة، من الرابعة. التقريب (٥٢٢/١) رقم ٣٥٤٤.
- (٦) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل حمزة (٣٦/٥) رقم ٤٠٧٢، بلفظه. وأحمد في المسند (٥٠١/٣) بلفظه.

عمه الذي كان معيناً له في النوائب، فارساً في كل ميدان، يزود عن هذا الدين وتحسب له الأعداء كل حساب. ثم تخرج كتائب الإيمان تلتمس كل الوسائل لإيصال هذا الدين، ملبية في ذلك كل أمر يأمر به الرسول ﷺ.

٥ - كيد المشركين بعاصم ومن معه من الصحابة - رضي الله عنهم :-

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: بعث النبي ﷺ سرية عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت^(١) - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب -، فانطلقوا، حتى إذا كانوا بين عسفان^(٢) ومكة وذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقترضوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدقد، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا رسولك، فقاتلوهم، فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد، ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فما أعطوهم العهد والميثاق، نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم،

(١) عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح - بالقف والحاء المهملة -، الأنصاري. قال الحافظ في الفتح كذا في الصحيح، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، وفي السيرة أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد، وما في الصحيح أصح.

(٢) عسفان بضم أوله وسكون ثانيه منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وهي على مرحلتين من مكة (سنة وثلاثين ميلاً من مكة). معجم البلدان (٤/١٣٧).

فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخييب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عمار بن نوفل، وكان خييب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرا، حتى إذا أجمعوا على قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحذ بها، فأعارته. قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأته فزعت منه فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك - إن شاء الله -، وكانت تقول: ما رأيت أسيرا قط خيرا من خييب، لقد رأيت يأكُل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله خبيبا، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه، قال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أنا ما بي جزعا من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل، وقال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا. وقال:

وما أبالي حين أقتل مسلما على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده بعد موته، وكان قد قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر، فحمته من رسلهم فلم يقدرُوا على شيء^(١).

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الرجيع (٤٠/٥)، عن أبي هريرة بلفظه. «والدبر بالفتح: جماعة النحل...». القاموس المحيط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ. والمعنى أن الله - تعالى - أرسل كثيرا من النحل حتى حال بينهم وبين عاصم. وفي الجهاد، باب هل يستأمر الرجل ومن لم يستأمر (٢٨/٤)، بمثله. وأبو داود في الجهاد، باب في الرجل يستأمر الرجل ومن لم يستأمر (١١٥/٣) رقم =

وتمضي الأيام، وأهل الإيمان يدافعون، وينافحون عن هذا الدين ابتغاء مرضاة الله.

وفي المقابل يتعرضون للكيد والغدر والقتل في كل لحظة من لحظات حياتهم.

٦ - صور أخرى من كيد المشركين بالصحابة - رضوان الله عليهم :-

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ - يعني في غزوة ذات الرقاع^(١) - فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين فحلف أن لا أنتهي حتى أهرق دماً من أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلاً فقال: «من رجل يكلؤنا؟» فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: «كونا بقم الشعب» فلما خرج الرجلان إلى قم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، فأتى الرجل فلما رأى شخصه، عرف أنه ربيثة^(٢) القوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، ونزعه، حتى رماه بثلاثة أسهم ثم ركع وسجد، ثم أنه صاحبه، فلما عرف أنه قد نذروا به هرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله! ألا أنبهتني أول ما رمى؟ قال: كنت في سورة أقرأها، فلم أحب أن أقطعها^(٣).

= ٢٦٦٠، ٢٦٦١، بمثله مختصراً.

(١) سميت ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها رايهم في قول ابن هشام. ويقال: ذات الرقاع، وذكر غيره أنها أرض فيها بقع سود ويقع بيض كأنها مرقعة برقاع مختلفة، فسميت لذلك ذات الرقاع. الروض الأنف (٦/٢٤١).

(٢) الربيثة: هو العين والطليلة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ولا يكون إلى على جبل أو شرف ينظر منه. لسان العرب (١/٨٢).

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب الوضوء من الدم (١/١٣٦) رقم ١٩٨، وفي سننه =

وتظل المكائد تترى على أصحاب النبي ﷺ، من المشركين، بل لقد كان أكثر ما يدور في خلد هؤلاء المشركين هو النكاية بقرابته أكثر.

فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما كان يوم بدر تقدم عتبة بن ربيعة، وتبعه ابنه، وأخوه، فنادى: من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: ممن أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا. فقال رسول الله ﷺ: قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة اختلف بين عبيدة بن الحارث والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة^(١).

ولقد كان أهل الشرك وما زالوا، رجالاً ونساءً على حد سواء،

عقيل بن جابر بن عبدالله الأنصاري، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات .
وابن خزيمة في صحيحه، في الطهارة، باب ذكر الخبير الدال على أن خروج الدم من غير مخرج الحديث لا يوجب الوضوء (٢٤/١) رقم ٣٦. وإسناده حسن.
الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان، في الطهارة، باب نواقض الوضوء (٢١٢/٢)، بمثله.

الحاكم في المستدرک في الطهارة (١٥٦/١)، عن جابر بمثله، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، فقد احتج مسلم بأحاديث محمد بن إسحاق، فأما عقيل بن جابر فإنه أحسن حالاً من أخويه محمد وعبدالرحمن، وتابعه الذهبي.
وقال صاحب الفتح الرباني (٩٣/٢١) بعد أن أورد الحديث: فخرجه أبوداود، وابن إسحاق، وسنده جيد، ورجاله ثقات.

(١) عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبدمناف القرشي المطلبي، أسلم قديماً، وكان أسن بني عبدمناف حينئذ، وكان مع النبي ﷺ بمكة، ثم هاجر وشهد بدرًا، وبارز فيها شيبه، فجرح فمات، ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ عقد له راية وأرسله في سرية قبل وقعة بدر، فكانت أول راية عقدت في الإسلام. الإصابة (٣٩٦/٦) رقم ٣٥٦٧.
والحديث أخرجه أبوداود في كتاب الجهاد باب (المبارزة) رقم ٢٦٦٥.
وأصله في البخاري في كتاب المغازي باب (قتل أبي جهل) رقم ٣٩٦٥.

يكيدون لهذا الدين، بل كان للنساء الأثر البالغ في الإيقاع بأهل الإيمان والنَّيل منهم بأي وسيلة.

فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده - رضي الله عنهما - قال: كان رجل يقال له: مرثد^(١) بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحمله. قال فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة، في ليلة مقمرة. قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجانب الحائط، فلما انتهت إليَّ عرفتني، فقالت مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمَّ فبت عندنا الليلة. قال: قلت: حرم الله الزنا. قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة^(٢)، فأنتهيت إلى كهف أو غار، فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا فطل بولهم على رأسي، وأعماهم الله عني. قال: ثم رجعوا إلى الإذخر ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله، ويعينني حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقاً؟ فأمسك الرسول ﷺ فلم يرد عليَّ شيئاً، حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد: الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة،

(١) مرثد بن أبي مرثد الغنوي، صحابي، وأبوه صحابي، واسمه كناز بنون ثقيلة وزاي، ابن الحصين، وهما ممن شهدا بدرًا، وتقدم أبوه. قال ابن إسحاق: استشهد مرثد في صفر سنة ثلاث في غزاة الرجيع. الإصابة (١٦٢/٩) رقم ٧٨٧٢.

(٢) الخندمة: جبل في مكة. معجم البلدان (٤٤٩/٢).

(٣) الأذخر: الحشيش الأخضر وحشيش طيب الريح. القاموس المحيط ص ٥٠٦، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك، فلا تنكحها»^(١).

كيد المشركين بعبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - :

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير^(٢)، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -^(٣). قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط. فمن رجل يسمعه موه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعوه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني، فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: يتلو بعض ما جاء به محمد. فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه. فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئت لأغادينهم

(١) سورة النور، الآية: ٣. والحديث أخرجه الترمذي في تفسير سورة النور وقال: هذا حديث حسن غريب. رقم ٣٢٢٧.

(٢) يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عروة، ثقة، من السادسة. تقريب التهذيب ص ٥٩٤ رقم ٧٦٠٨.

(٣) سيرة ابن هشام (٣٣٦/١)، الروض الأنف: أول صحابي جهر بالقرآن (١٤٣/٣). سير أعلام النبلاء (٤٦٦/١)، ذكر رواية ابن إسحاق المختصرة.

قال المحقق في الهامش: أخرجه ابن هشام، وابن حجر في الإصابة (٣٦٩/٢)، ورجاله ثقات. أورده صاحب كنز العمال مقتصرًا على الفقرة الأولى فقط (٤٦٩/١٣)، رقم ٣٧٢٢١ وعزاه لابن عساكر.

بمثلها غداً. قالوا: لا، حسبك؛ قد أسمعهم ما يكرهون^(١).

لم يصنع هذا الصحابي شيئاً سوى قراءته لبعض آيات القرآن الكريم، لكن قول الحق لا يحب أن يسمعه الكبراء الذين تسنم الشيطان على عقولهم، فما كان منهم إلا أن أدموا وجهه - رضي الله عنه - .

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة النور (٣٢٨/٥) رقم ٣١٧٧. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأبو داود في النكاح، باب في قوله تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ (٥٤٢/٢) رقم ٢٠٥١، عن عبدالله بن عمرو مختصراً. النسائي في النكاح، باب تزوج الزانية (٦٦/٦) رقم ٣٢٢٦، عن عبدالله بن عمرو بلفظه. وقال عبدالقادر الأرنبوط في جامع الأصول (٢٤٧/٢): وإسناده حسن.

المبحث الرابع

أنماط من كيد المشركين في الحياة العامة

ويشتمل على المطالب التالية:

- المطلب الأول: الكيد السياسي.
- المطلب الثاني: الكيد الاقتصادي.
- المطلب الثالث: الكيد الإعلامي.

المطلب الأول: الكيد السياسي

تمهيد:

السياسة: هي القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة فعل السائس، يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والولي يسوس رعيته^(١) والساحة السياسية هي ميدان من الميادين الرحبة التي يكسب فيها الخصم أكبر قدر ممكن من صاحبه، ويظل الخصم يقتنص الفرص كي يظفر بخصمه، سواء كانت كلمة أو تصرفاً.

لذا نجد المشركين لم يفهم هذا الأمر مع النبي ﷺ، ولكن مع ذلك كان الله ناصرهم عليهم ومعينه.

أولاً: محاجتهم للرسول ﷺ في ربه:

وأول جولة أرادوها هي سؤاله وتعجيزه في نسب الله - تعالى - . فعن أبي بن كعب^(٢) - رضي الله عنه -، أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ . فالصمد الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ . قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثلته

(١) لسان العرب (٦/١٠٨).

(٢) أبي بن كعب بن قيس بن زيد الأنصاري النجاري، أبو المنذر، سيد القراء. كان من أصحاب العقبة الثانية، وشهد بدرًا والمشاهد. قال له النبي ﷺ: «ليهنك العلم أبا المنذر» وقال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» وكان عمر يسميه سيد المسلمين. اختلف في تاريخ وفاته، وقال الحافظ ابن حجر: وصحح أبو نعيم أنه مات في خلافة عثمان سنة ثلاثين واحتج له بأن زر بن حبيش لقيه في خلافة عثمان. الإصابة (١/٢٦) برقم ٣٢.

شيء^(١)، رغم أنهم أرادوا بذلك التشكيك في ذات الله - عز وجل - ولكن جاء الجواب الأكيد الملمج لهم تمامًا، فلم يحظوا بما يريدون

ثانيًا: دفعهم الناس للتجرؤ على رسول الله ﷺ:

ثم يأتي موقف آخر يريد به المشركون التقليل من شأن الرسول ﷺ، وازدراء الناس له وتجرؤهم عليه.

فقدورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: صنع عقبة بن أبي معيط طعامًا، فدعا أشراف قريش، وكان فيهم رسول الله ﷺ، فامتنع رسول الله ﷺ أن يطعم، أو يشهد عقبة شهادة التوحيد، ففعل، فأتاه أبي أو أمية - وكان خليله - فقال: أصبأت؟ قال: لا، ولكن استحيت أن يخرج الرجل من منزلي أويطعم طعامي. فقال: ما كنت أرضى أويصق في وجهه، ففعل عقبة، وقتل يوم بدر صبرًا كافرًا^(٢). ولقد وردت في القرآن دلائل واضحة على دفعهم الناس للنيل من رسول الله ﷺ. قال - تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الإخلاص (٤٢١/٥) رقم ٣٣٦٤، عن أبي العالية، مرفوعًا ومختصرًا. والحاكم في المستدرک، في تفسير سورة الإخلاص (٥٤٠/٢). قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأحمد في المسند (١٣٣/٥)، عن أبي بن كعب، به مختصرًا. وفي سند هذا الحديث أبو جعفر الرازي - عيسى بن ماهان - وهو مختلف فيه، وثقه ابن معين مرة، وضعفه مرة، وابن المدني وأبو حاتم، وضعفه أحمد وأبو زرعة والنسائي والذهبي، وقال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ. انظر: التقريب (٦٢٩)، والميزان (٥١٠/٤)، والتهذيب (٥٦/١٢).

(٢) الدر المنثور (٦٨/٥)، وفيه محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النضر الكوفي النيسابوري المفسر، متهم بالكذب. انظر: التقريب، لابن حجر (٥٩٠١)، وجامع الأصول (٢٨٥/٢).

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٧ - ٢٩.

ثالثاً: محاولة ثنيه عن دعوته والضغط عليه عن طريق عمه أبي طالب:

ولما رأت قريش أمر الرسول ﷺ ينتشر، ورسول الله ﷺ في حماية عمه أبي طالب، لا يستطيع أحد منهم أن يمسّه بأذى، حاولوا مفاوضة عمه حتى يشدد عليه ويشيه عن الأمر أو أن يخلي بينهم وبين محمد ليروا رأيهم فيه.

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: «أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية». قال: كلمة واحدة؟ قال: «كلمة واحدة»، فقال: «يا عم قولوا: لا إله إلا الله». فقالوا: إلهًا واحدًا؟ ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق^(١). قال: فنزل فيهم القرآن:

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾^(٢).

(١) الاختلاق: هو الكذب. النهاية (٧١/٢).

(٢) سورة ص، الآيات: ١ - ٧.

والحديث أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة ص (٣٦٥/٥)، رقم ٣٢٣٢، عن ابن عباس، به مرفوعاً. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. والحاكم في المستدرک، في التفسير، تفسير سورة ص (٤٣٢/٢)، عن ابن عباس، به مرفوعاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأحمد في المسند (٣١٤/٣) رقم ٢٠٠٨، عن ابن عباس، بمثله مرفوعاً. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، ويحيى بن عمار ثقة، ذكره ابن حبان في الثقات، ولم يذكر فيه البخاري جرْحاً، وقد اختلف الرواة عن الأعمش في اسم هذا الشيخ، فسماه الثوري في روايته عنه =

وهكذا يُرمى الأنبياء وكل من دعا بالحق بعدهم، بأنه ساحر أو كذاب. ولم يحملهم على ذلك إلا الكبر والحسد الذي ملأ قلوبهم وعقولهم.

رابعاً: استنزاف القوة البشرية للدولة الإسلامية الفتية:

ولم يكتف أهل الشرك بالنيل من النبي ﷺ وحده، بل بيتوا الغدر والخديعة والنيل من أصحابه - أيضاً -.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رِعْلًا وَذِكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَدُوِّ فَأَمَدَهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ كُنَّا نَسْمِيهِمُ الْقَرَاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيَصْلُونَ بِاللَّيْلِ حَتَّى كَانُوا يَبِئُرُ مَعُونَةَ قَتْلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَنْتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصَّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ عَلَى رِعْلٍ وَذِكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ. قَالَ أَنَسٌ: فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قِرَانًا ثُمَّ إِنْ ذَلِكَ رَفَعٌ، بَلَّغُوا قَوْمَنَا أَنَا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَا وَأَرْضَانَا»^(١).

لقد كان النبي ﷺ حريص على هداية الناس، وتعليمهم؛ ور دينهم، لذلك كان يسارع في نشر الخير وتعليم الناس، لذا عندما طلبت منه هذه القبائل من يعلمهم بادر إلى تلبية طلبهم؛ لأن طلبهم

(يحيى بن عمار) وهذا هو الذي جزم به البخاري وابن حبان ويعقوب بن شيبة، وسماه أبو أسامة عن الأعمش (عباد) غير منسوب، وسماه الأشجعي عن الأعمش (يحيى بن عباد). انظر: الدر المنثور (٢٩٥/٥).

(١) رواه البخاري في المغازي، باب غزوة الرجيع (٢٣٥/٧) رقم ٤٠٩٠ فتح الباري، وفي الوتر، باب القنوت قبل الركوع، وفي الجهاد، باب من ينكب أو يطعن في سبيل الله. ومسلم في المساجد، ومواضع السجود، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٤٦٨/١) رقم ٦٧٧.

كان بادئ الأمر ادعاء دينيًا، وهي حاجتهم إلى من يقرؤهم القرآن، لكن الغدر كان مطويًا فيها ومبيتًا، مما سبب خسارة فيمن هم الركيزة الأساسية في تعليم المجتمع، إضافة إلى ذلك التنكيل بنفسية القيادة والتعكير على صفو القائد ﷺ.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قنت رسول الله ﷺ شهرًا حين قتل القراء، فمارأيت رسول الله ﷺ حزن حزنًا قط أشد منه^(١).

خامسًا: إحصار النبي ﷺ ومنعه من دخول مكة:

قدم النبي ﷺ للعمرة، لا يريد حربًا مع قريش ولا احتلالاً للحرم، ومع ما كان يلاقي من العناد والشدة منهم فيما مضى، إلا إنه ما طُلب منه في ذلك اليوم شيء إلا أجابهم وأعطاهم إياه؛ احترامًا منه ﷺ لحرمة الحرم.

فعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما، عن المسور بن مخرمة^(٢) ومروان^(٣) يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج النبي

(١) رواه البخاري في الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف منه الحزن رقم (١٣٠٠)، وفي الوتر، وفي الجهاد، باب دعاء الإمام على من نكث عهدًا، وفي المغازي، غزوة الرجيع، ورعل وذكوان وبئر معونة، وفي الدعوات، باب الدعاء على المشركين. ورواه مسلم في المساجد رقم (٦٧٧).

(٢) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري، يكنى أبا عبد الرحمن، وأمه عاتكة بنت عوف، وكان مولده بعد الهجرة بستين. قال الزبير: كان من أهل الفضل والدين، وكان مع ابن الزبير، فلما كان الحصار الأول أصابه حجر من حجارة المنجنيق، وكان ذلك سنة أربع أو خمس وستين. الإصابة (٢٠٤/٩) برقم ٧٩٨٨.

(٣) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، وهو ابن عثمان وكتبه في خلافته، ولد بعد الهجرتين بستين، وفي ذلك خلاف. قال الحافظ: لكن لم أر من جزم بصحبه، فلم يثبت أزيد من الرؤية وكان يعد من الفقهاء، وأنكر بعضهم أن يكون له رؤية. شهد وقعة الجمل وصفين. بايعه أهل الشام بعد يزيد بن معاوية، فكانت مدة =

ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم^(١) في خيل لقريش طليعة» فخذوا ذات اليمين، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بقترة^(٢) الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية^(٣) التي يهبط عليهم منا بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل، فألححت فقالوا: خلأت القصواء خلأت^(٤) القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله، إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها، فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثممد^(٥) قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً^(٦)، فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله مازال يجيش لهم بالرّي حتى صدروا عنه.

= خلافته قدر نصف سنة، مات سنة خمس وستين. الإصابة (٣٢٠/٩) برقم ٨٣١٢.

(١) قال ابن حبيب: الغميم هو قريب من مكان بين رايغ والجحفة. الفتح (٣٣٥/٥).

(٢) قرة الجيش: غبرة الجيش. النهاية (١٢/٤). قال في القاموس: والقترة والقترة: محركتين بالفتح: الغبرة، ص ٥٩٠.

(٣) الثنية في الجبل كالقصة فيه وفيه ثنية المزار، موضع بين مكة والمدينة من طريق الحديبية. النهاية (٢٢٩/١).

(٤) خلأت: الخلاء للنوق كالإيحاء للجمال، والحران للدواب. النهاية (٥٨/٢).

(٥) الثمد: الماء القليل. النهاية (٢٢١/١).

(٦) تبرضاً: الأخذ منه قليلاً قليلاً. الفتح (٣٣٧/٥).

فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بن وَرْقَاءَ الخزاعي^(١) في نفر من قومه من خزاعة - وكان عيبة^(٢) نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة - فقال: إني تركت كعب بن لؤي^(٣)، وعامر بن لؤي^(٤). نزلوا أعداد مياه الحديدية، معهم العوذُ المطافيل^(٥)، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجىء لقتال أحد. ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا مادتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمؤا^(٦). وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده أقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي^(٧)، ولينفذن الله أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو

(١) بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة الخزاعي. قال ابن السكن: له حجة، سكن مكة، ويقال: إنه قتل بصفين، وكان إسلامه قبل الفتح وقيل يوم الفتح. قاله رسول الله ﷺ: «كم سنوك؟» فقال: سبع وتسعون. فقال: «زادك الله جماداً وسواداً». الإصابة (٢٣٢/١) برقم ٦١١.

(٢) العيبة: الخاصة، وموضع السر. النهاية (٣٢٧/٣).

(٣) كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك. سيرة ابن هشام (١/٩٩).

(٤) عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وقريش الذين كانوا بمكة جمع ترجع أنسابهم إلى كعب وأخيه عامر. سيرة ابن هشام (١/٩٩)، وفتح الباري (٥/٣٠٠).

(٥) العوذ المطافيل: جمع عائد وهي الناقة إذا وضعت. النهاية في غريب الحديث (٣١٨/٣).

(٦) جموا: استراحوا وكثروا أو قطعوا. النهاية (٢/٣٩٠).

(٧) السالفة: صحفة العنق، وهما بالفتان من جانبه، وكنى بانفراده عن الموت؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت. النهاية (٢/٣٩٠).

الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا - فحدثهم بما قال النبي ﷺ - فقالم عروة بن مسعود، فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنني استنشرت أهل عكاظ، فلما بلحوا^(١) عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، دعوني آتية. قالوا: آتته. فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل. فقال عُرْوَةُ عند ذلك: أي محمد، رأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشوابًا^(٢) من الناس خليقًا أن يفروا، ويَدْعُوك. فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : امصص بظر اللات^(٣)، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة^(٤) قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المِغْفَر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بِنَعْل^(٥) سيفه وقال له: أخرج يدك عن لحية رسول الله

(١) بلحوا: أي أبوا، كأنهم قد أعيوا عن الخروج معه وإعانتته. النهاية (١/١٥١).

(٢) الأشواب الأخطا. النهاية (٢/٥٠٧).

(٣) امصص بظر اللات: البظر - بفتح الباء - الهنة التي تقطعها الخافضة من فرج المرأة عند الختان. النهاية (١/١٣٨). والمراد غاية السخرية من دعواه هذه.

(٤) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عيسى. قال الطبري: يكنى أبا عبد الله، أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدا ويعة الرضوان، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، وقال الشعبي: كان من دهاء العرب، ويقال له: مغيرة الرأي. ولاء معاوية الكوفة فاستمر على إمرتها. مات سنة خمسين عند الأكثر. الإصابة (٩/٢٧٠) برقم ٨١٧٤.

(٥) نعل السيف: أسفل القراب.

ﷺ. فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي عُذْر، لست أسعى في عُذْرَتِكَ؟ وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»

ثم إن عروة جعل يَرْمُقُ^(١) أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وقعت في كف رجل منهم فَذَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحَدُّون إليه النظر تعظيمًا له. فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، ووالله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتية. قالوا: آتية، فما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدن، فابعثوها له» فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدن قد قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مِكرَز بن حفص^(٢) فقال: دعوني آتية. فقالوا: آتية.

(١) يرمق: ينظر نظرًا طويلًا شزرًا. النهاية (٢/٢٦٤).

(٢) مكرز بن حفص بن الأخيف بن علقمة القرشي العامري، ذكره ابن حبان في الصحابة. =

فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو^(١).

قال معمر: فأخبرني أيوب، عن عكرمة أنه لما جاء سهيل، قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم». قال معمر^(٢): قال الزهري^(٣) في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، قال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله. فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله، وإن كذبتُموني، اكتب محمد بن عبدالله».

قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خطة يعظمون فيها

= وهو الذي أقبل لافتداء سهيل بن عمرو يوم بدر، وله ذكر في صلح الحديبية في البخاري. الإصابة (٢٧٧/٤) برقم ٨١٨٨.

(١) سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود القرشي العامري، خطيب قريش أبوزيد. قال البخاري: سكن ثم المدينة، وهو الذي أمر الصلح بالحديبية، مات بالطاعون سنة ثمان عشرة. الإصابة (٢٨٧/٤) برقم ٣٥٦٦.

(٢) معمر بن راشد الأزدي مولاهم أبوعروة البصري، نزيل اليمن، ثقة ثبت فاضل، إلا أن في روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئًا، وكذا فيما حدث به بالبصرة، من كبار السابعة، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن ثمان وخمسين سنة. التقريب (٥٤١) برقم ٦٨٠٩، ورجال صحيح البخاري (٧٢٢/٢) برقم ١٢٠١.

(٣) الزهري: هو محمد بن مسلم بن عبيد القرشي الزهري، أبوبكر، الفقيه الثقة الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه، وهو من رؤوس الطبقة الرابعة، مات سنة خمس وعشرين وقيل قبل ذلك بسنة أو ستين. التقريب (٥٠٦) برقم ٦٢٩٦، ورجال صحيح البخاري (٦٧٧/٢) برقم ١٠٩٦.

حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال النبي ﷺ: «علي أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به». قال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضَغْطَةً^(١)، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب. فقال سهيل: وعلي أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان علي دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين، وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو^(٢) يزسّف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه، أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». فقال سهيل: فوالله إذا لا أصالحك علي شيء أبدًا، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُرِد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت النبي ﷺ، فقلت: أأست نبي الله حقًا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نُعْطِي الدنية^(٣) في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى»، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: «فإنك آتية ومُطَوَّف به». قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر: أليس نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في

(١) ضغطة: أي قهراً. النهاية (٩٠/٣).

(٢) أبو جندل بن سهيل بن عمرو. تقدم.

(٣) الدنية: أي الخصلة المذمومة، والدني والضعيف والخبيس. النهاية (١٣٧/٢).

ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل: إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، هو ناصره، فاستمسك بـغَزْرِهِ^(١)، فوالله إنه على الحق. قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً^(٢). قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة^(٣)، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وحعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا، ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ . . . - حتى بلغ - بَعْصِمِ الْكُوفِرِ﴾^(٤). فطلق عمر يومئذ امرأتين كانت له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان^(٥)، والأخرى صفوان

(١) بغزوه: الغرز ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب. وقيل: هو الكور مطلقاً، مثل الركاب للسر، والمعنى: أي اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله، ولا تخالفه، كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره. انظر: النهاية (٣/٣٥٩).

(٢) المعنى أن عمر تصدق وعمل أعمالاً صالحة؛ عسى أن يغفر الله له ذلك الكلام.

(٣) أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، القرشية المخزومية، أم المؤمنين، اسمها هند، وقال أبو عمر: يقال اسمها: رملة، وكانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد، فمات عنها، فتزوجها النبي ﷺ سنة أربع، وكانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة. قال أبو نعيم: ماتت سنة ٦٢، وهي من آخر أمهات المؤمنين موتاً، وقيل غير ذلك: الإصابة (٢٢٥/١٣) برقم ١٣٠٤.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

(٥) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، أمير المؤمنين، ولد =

ابن أمية^(١)، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذالحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا دُعراً». فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل - والله - صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يانبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: «ويل أمه، مسعّر حرب لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليه من، فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق أبي بصير، فكان لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمع منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليه فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل

= قبل البعثة بخمس سنين، وأسلم بعد الحديبية وكنتم إسلامه حتى أظهره عام الفتح، وكان كاتب النبي ﷺ فيما بينه وبين العرب، تسمى بالخلافة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن، مات سنة ستين على الصحيح. الإصابة (٢٣٤/٩) برقم ٨٠٦٣.

(١) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب، أبو وهب الجمحي، هرب يوم الفتح وأسلمت امرأته، وأحضر له ابن عمه عمير بن وهيب أماناً من النبي ﷺ فحضر، وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم، ثم أسلم ورد النبي ﷺ امرأته بعد أشهر، مات حين مقتل عثمان، وقيل: عاش إلى أول خلاف معاوية، وقال خليفة: سنة اثنتين وأربعين. الإصابة (١٤٥/٥) برقم ٤٠٦٨.

النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ - حَتَّىٰ بَلَّغَ - الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١).

وكانت حميتهم أنهم لم يقرروا أنه نبي الله، ولم يقرروا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت (٢).

لقد كان هذا الصلح فتحًا على المسلمين رغم أنهم في ذلك الحين رأوا أنه لم يكن لهم فيه مصلحة تذكر. قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخَلِّفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٣).

نعم، لقد كان فتحًا، ولكنه مطويٌّ في علم الغيب عن صحابة المصطفى ﷺ، ليخرج أولئك الرجال بدروس قادوا بها العالم.

وهذا درس للصحابة ولنا من بعدهم أنه إذا تعارض العقل مع النقل قدم النقل؛ لأن الوحي أدري بما يخفى على عقول البشر، فقد تبنى العقول أمورًا يظهر بطلانها مستقبلًا. لكن الوحي أدري بالأمور حاضرًا ومستقبلًا بما لا تدركه العقول كلية أو ابتداءً. فشرط الصلح في ظاهرها لم تكن في صالح المسلمين، لكن بعد مدة من الزمن اتضح للصحابة إيجابيات هذا الصلح وفوائده.

(١) سورة الفتح، الآيات: ٢٤ - ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد مع أهل الحرب (١٧٨/٣)، وفي باب ما لا يجوز من الشروط في الإسلام، وفي الحج، باب من أشعر وقلد بذئ الحليفة ثم أحرم، وباب النحر قبل الحائق في الحصر، وفي المغازي، باب غزوة الحديبية، وفي تفسير سورة الممتحنة. وأبوداود في الجهاد، باب في صلح العدو (١٩٤/٣) رقم ٢٧٦٥، ٢٧٦٦. وأحمد في المسند (٣٢٣/٤).

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

ثم في ذلك - أيضًا - تربية للصحابة - رضوان الله عليهم - في مسألة الطاعة، لا سيما في أحلك الظروف؛ لأنه قد تبدى للقيادة من المصالح الكبيرة ما لا يتبدى لغيرهم من أفراد الناس، لذا وجب طاعة القيادة في الأمر ولو كان عند المخالف مرجوحًا، مادام أنه له دليل وتأويل صحيح، وليس فيه معصية لله - تبارك وتعالى -.

ومن ذلك معرفة الرسول ﷺ لنفسيات الناس والتعامل مع كل نفسية أعطت للصحابة ولنا من بعدهم فائدة، أنه لا بد من معرفة نفسيات المفاوضين من الأعداء، ومحاولة التصرف مع كل نفسية بما يناسبها ضمن الإطار الشرعي، ومن ذلك أمر الرسول ﷺ أن يبعث البدن لأحد رسل قريش.

وكذلك التنبه للخصم عندما يحاول الفت في عضد هذه الأمة، وما أمر الصديق ببعيد عندما قال عروة: وإني لأرى أوشابًا من الناس، لخليق أن يفروا ويدعوك، فقال له أبوبكر - رضي الله عنه -: أمصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فبذلك قطع على الخصم هذه المناورة التي كان يريد الاستفادة منها.

ومما يلفت النظر والحس الحفاوة بالقيادة، وإظهارها أمام العدو بالمظهر اللائق بها، وبيان الاهتمام الكبير بها، والالتفاف حولها مما يؤثر في نفسية العدو لتراجع في كثير مما تطمع فيه ولترضى بأي طرح يطرح.

وكذلك التنزل مع الخصم ولو كان في كثير من القضايا ضمن ضوابط الشرع لتحقيق مصلحة كبيرة، هذا من فقهه ﷺ، فلقد أخذ أبو جندل وهو مسلم وضرب، وسحب والرسول ﷺ والصحابة يرون ذلك الذي يحدث لأخيهم، ولا يملكون إلا الاستسلام والإذعان

لأمر الله - عز وجل -، موقنين بنصره، مذكراً بعضهم بعضاً بذلك، فكان هذا الدرس في ضبط النفس من أصعب الدروس للصحابة، ثم تبين بعد ذلك ما كان في هذا الأمر من خير للمسلمين.

ومن ذلك حلم القيادة - رضوان الله عليهم - ورأفته ﷺ بهم لأنه يعلم أن هذا الأمر غيب، وأن العقول لا تدرك ذلك فكان يوجه ويحجب بكل لطف وهدوء.

وللمرأة المسلمة عملها البارز في كثير من المواقع في التاريخ الإسلامي، ولقد كان لها ذلك في هذا الصلح، وذلك عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه ثلاث مرات بالحلق والنحر، فلم يقم أحد، ودخل على أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها وأرضاها - فذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت إليه بالحل، وقالت: اخرج ولا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. ففعل ذلك فلما رأى الصحابة ذلك تابعوه مباشرة حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً غمًا، لم يأنف الرسول ﷺ من أن يعرض هذا الأمر العظيم على زوجته، وفي نفس الوقت لم يتردد في فعل ما قالته عندما وجد في رأيها الصواب.

وأخيراً عقيدة الولاء والبراء لا بد أن تكون في قلب المؤمن والامتثال لأمر الله - عز وجل - مهما كان ذلك الأمر، فعمر عندما سمع قول الله - عز وجل -: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بَعْضَ الْكُوفِرِ﴾^(١) طلق امرأتين كانتا له في الشرك، فأمر الله فوق كل أمر، وحبه مقدم على جميع ما على البسيطة من النساء والأولاد والأموال والأرواح.

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

المطلب الثاني: الكيد الاقتصادي:

تمهيد:

١ - الاقتصاد في اللغة: هو استقامة الطريق والقصد والتوسط والاعتدال وعدم مجاوزة الحد^(١).

أ - ففي مجال الحكم: تطلق كلمة الاقتصاد ويراد بها العدل، وعدم الجور، واميل إلى ناحية دون أخرى، كما في قوله - تعالى -: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ب - وفي مجال السير: تطلق كلمة الاقتصاد ويراد بها الاعتدال فيه، قال الله - تعالى -: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾^(٣).

ج - وفي مجال الإنفاق: تطلق كلمة الاقتصاد ويراد بها القصد والوسط ما بين الإسراف والتقتير. قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٤). وقد جاء في الأثر: «لا عال من اقتصد»^(٥).

وقد أورد القرآن الكريم عدة آيات تبين صور الإنفاق وعدم الإسراف والتبذير.

(١) ترتيب القاموس المحيط (٣/٦٣٨)، والمصباح المنير (٢/١٦٣)، والصحاح (٢/٥٢٥)، والمعجم الوسيط (٢/٧٧٤).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٩.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٣٥)، رقم ٤٢٦٩. قال الشيخ أحمد شاکر: إسناده ضعيف، وضعفه الهجري. وفي مجمع الزوائد في الزهد، باب الاقتصاد (١٠/٢٥٢)، عن ابن مسعود، به مرفوعاً. قال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، وفي أسانيدهم إبراهيم بن مسلم بن الهجري، وهو ضعيف، وعن ابن عباس، مرفوعاً: «ما عال مقتصد قط». رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله وثقوا، وفي بعضهم خلاف.

قال الله - تعالى - : ﴿ يَبْنِيْ ءَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكَرَّ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوًا وَاشْرَبُوًا وَلَا تُسْرِفُوًا ﴾ (١).

وقال الله - تعالى - : ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٢).

ولم يقتصر النهي في القرآن الكريم في مجال الاقتصاد عن التبذير، بل ورد النهي عما هو ضده من التقدير. قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٣).

فمن ذلك يتبين لنا معنى كلمة الاقتصاد، أي الاعتدال في الإنفاق.

تعريف الاقتصاد اصطلاحًا: هو العلم الذي يبحث في القواعد والأحكام التي تحدد سلوك الإنسان في كسبه وإنفاقه بما يحقق السعادة له ولمجتمعه - أيضًا - (٤).

٢ - أهمية الاقتصاد في الإسلام:

لقد اعتنى الإسلام عناية بالغة بالجانب الاقتصادي، وأوضح أهميته في حياة الأمة وأفرادها، وما تقدير الله - تبارك وتعالى - في جعل موطن الإسلام الأول مكة المكرمة بلدًا تجبى إليه ثمرات كل شيء مع إطعام أهله من الجوع وتأمينهم من الخوف (٥) إلا دليلًا

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٤) انظر: المذهب الاقتصادي في الإسلام ص ١٣ - ٢١، ص ١١٧. د. عدنان التركماني، طبعة مكتبة السوادي سنة ١٤١١هـ.

(٥) قال الله - تعالى - : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْإِسْتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ سورة قريش. وهناك اعتبارات أخرى مقدمة على هذا الجانب، فمكة فيها أول بيت وضع للناس.

واضحًا وبرهانًا ساطعًا على مكانة الجانب الاقتصادي وأهميته في شريعة الإسلام.

وذلك ينبثق من نظرة الإسلام إلى هذا الكائن الحي الإنسان الذي هو محور التكليف ومرتكزه والذي بعث إليه رسل الله تبلغه وتكلفه بأمر الله - عز وجل -.

إن الإنسان يتكون من مادة وروح، فالجانب المادي له متطلبات من غذاء وكساء وسكن ودواء، وهي الأشياء التي تدخل تحت اسم ضروريات الحياة التي تدخل في النطاق الاقتصادي.

أما الجانب الروحي فهو يغذي بدين الله من خلال ما جاء عن الله وعن رسول الله ﷺ.

ومن هنا يتضح أن الإسلام هو دين الله المختار يركز على جانب الروح وأهمية سلامتها بقدر ما يركز على جانب الجسم وسلامته، وذلك يدعو أفرادَه إلى ضرورة توفير المناخ المناسب الذي يتمثل في توفير الغذاء الصالح للجانبين، وليس الإسلام - ما يفهمه كثير من الناس - دينًا يهتم بالآخرة ولا يهتم بالدنيا، ولا دينًا يهتم أتباعه بالفقر ويتوزعون بينهم، وإنما كان هذا الفكر لوثة من لوثات الفكر الصوفي المنحرف الذي أدخل فيه اليهود من الخرافات ما جعل كثيرًا من أبناء المسلمين يتركون عمارة الأرض والسعي فيها. ولو نظرنا إلى كثير من النصوص القرآنية لوجدنا أنها تخالف هذا الفكر المنحرف عن جادة الصواب.

والقرآن الكريم وجه المسلمين إلى مصدر من أهم المصادر الاقتصادية ونزلت آيات تتلى في ذلك. قال الله - تعالى -:

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ... ﴾^(١).

فالقُرآن يقرر أن الغنيمة مورد هام من موارد الدولة المسلمة، وركن من أركان اقتصادها، والإشارة في قوله - تعالى -: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) لها دلالتها وأبعادها؛ فالعلم ليس المقصود الذي يتساوى فيه الناس، وإنما هو أمر تكليفي موجه للدولة المسلمة في شخوص أبنائها المكلفين لكي يحيطوا بهذا الجانب علمًا وفهمًا. وذلك يستوجب انتشار مؤسسات أو وزارات تختص بهذا المورد العظيم.

ولذلك يقول ابن عطية المفسر: «إن العلم هنا متضمن التكليف، فهو موجه لكل مكلف في الأمة»^(٢)، ولا شك أن مورد الغنيمة في الإسلام مورد واسع لا يقع تحت تقدير ولا يمكن أن توضع له توقعات، فما يفتح الله به على عباده المجاهدين من الغنائم شيءٌ عظيم، سواء تمثل في غنيمة أسلحة أو أرض أو مال أو غير ذلك، ثم تقسم هذه الغنائم تقسيمًا دقيقًا عادلاً على نحو ما وردت به الآيات، يشير إلى علم الأمة في هذا الجانب وإدراكها لمسؤوليتها العلمية وفقها لهذا الموضوع مما يوجب عليها إنشاء مؤسسات أو تخصصات علمية وما يتصل بهذا المورد الهام من موارد الدولة الاقتصادية، وهو الغنيمة والتقسيم لها، والصدقات للأصناف الثمانية التي حددها الإسلام دليل على أن الإسلام لا يقر أن يبقى بين المسلمين من يعاني من الحرمان والفاقة ولو كان ابن السبيل.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢/٥٣١).

ومع هذا لم يجعل الإسلام الغنيمة هي المحور الهام والركن الركين من أركان الاقتصاد فقط، بل إن الموارد الاقتصادية تكمن أهميتها في حجمها واستمراريتها وثبوتها.

لذا كان للزكاة التي تؤخذ من الأغنياء وتعطى للفقراء أهمية أكبر. قال الله - تعالى -: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١) فهذا مورد ثابت للأمة المسلمة، أمر الله نبيه ﷺ ومن سار على نهجه أن يقوموا به، وحذر أشد التحذير من تركه؛ ليتحقق لجميع أفراد الأمة السعادة والرفاهية أو على أقل تقدير الحصول على الضروريات.

ومن الموارد الهامة - أيضاً - في الإسلام الجزية، وكيفية جبايتها وفيما تنفق. قال الله - تعالى -: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾^(٢).

كل ذلك وغيره من آيات القرآن يشير إلى أهمية الجانب الاقتصادي في حياة المسلمين، ويضع المسؤولية على كواهلهم لكي يقوموا بهذه المهمة.

وما فرض الزكاة والإشادة بالمنفقين إلا دليلاً واضحاً على أهمية الجانب الاقتصادي في حياة الأمة، وأهمية استثماره وتحريك رأس المال تنمية واستثماراً في الوجوه الحلال.

فالمسلمون مطالبون بالسعي في الأرض للكسب، والسنة النبوية أعطت الجانب الاقتصادي

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

اهتمامًا واسعًا، فجاءت بالحث على الزراعة والصناعة والتجارة واستثمار رأس المال وتنميته في طرقه المشروعة الحلال.

قال رسول الله ﷺ: «إنك إن ترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعم عائلة يتكفون الناس»^(١).

وقوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢).

وبعد هذه الوجازة في تعريف الاقتصاد وبيان أهميته في جميع مناحي الحياة نعود لنبرز نوعًا من أنواع كيد المشركين، وهو الكيد الاقتصادي.

ويقصد بالكيد الاقتصادي أن تتخذ الجوانب الاقتصادية والمالية وسيلة للكيد.

وهو ما يطلق عليه في العصر الحاضر (الحرب الاقتصادية) وإن كان الكيد أشمل من الحرب؛ إذ أن الكيد يشمل المواجهة بكشل أساسي.

والحرب الاقتصادية في عصرنا الحاضر اتخذت أساليب متعددة، منها:

المقاطعة الاقتصادية، والحرب الاقتصادية، والحصار

(١) أخرجه البخاري في الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفون الناس (١٨٦/٣)، عن سعد بن أبي وقاص، به مرفوعًا مطولاً، وأخرجه كذلك في الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، وفي الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوي. ومسلم في الوصية، باب الوصية بالثلث (١٢٥٠/٣) رقم ١٦٢٨، عن سعد، به مرفوعًا بلفظ البخاري.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١١٧/٢)، عن حكيم بن حزام، به مرفوعًا ومطولاً عن ابن عمر، مرفوعًا ومطولاً. ومسلم في الزكاة، باب أفضل صدقة الصحيح الشحيح (٧١٧/٢) رقم ١٠٣٣، عن ابن عمر، مرفوعًا ومطولاً.

الاقتصادي، والتبعية الاقتصادية، وتشمل تدابير الحرب الاقتصادية عناصر متعددة، منها:

١ - تقييد الاستيراد والتصدير ومراقبتهما.

٢ - الحصار البحري.

٣ - التدخل ضد تهريب البضائع.

٤ - مراقبة الاتفاقيات الاقتصادية.

وكل ذلك الهدف منه تخريب الاقتصاد القومي للدولة؛ لإيجاد جو من عدم الاستقرار؛ لتتمكن القوى الخارجية من التحكم فيها. وليس ثمة فاصل بين الحرب السياسية والحرب الاقتصادية؛ فهما عاملان متكاملان يتم كل منهما الآخر.

(والهدف هو إخضاع شعب معين لسيطرة خارجية)^(١). ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بما يعالج هذا الجانب الاقتصادي في جميع مجالاته، مما أدهش العقول وبين للناس جميعاً عظمة هذا الدين في تنظيم هذا الجانب من جوانب الحياة وتربية المسلمين التربية الصحيحة في التعامل به.

وقد وضعت لذلك ضوابط وقيود بحيث يسير المسلم على بينة في جميع معاملاته.

فالقرآن أجمل تلك الأحكام، وأتت السنة وبينت ذلك أوضح بيان تطبيقاً واجتناباً، ويمكننا أن نرد السنة إلى ثلاثة أنواع من البيان^(٢).

(١) انظر: الحرب الاقتصادية في المجتمع الإنساني ص ٣٨، صلاح نصر.

(٢) انظر: أصول الفقه. د. محمد معروف الدواليبي ص ٧١.

أولاً: التفريع على أصل في القرآن كتطبيق له:

كتحريم بيع الثمار على الشجر قبل أن يظهر صلاحها تفريعاً لذلك على الأصل القرآني في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾^(١).

ثانياً: الشرح لأمر كلي مجمل:

كالأحاديث المفصلة لمجمل قوله - تعالى -: ﴿ حُذِّمْنَ أَمْوَالَهُنَّ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٢).

ثالثاً: إقامة قواعد جديدة مستمدة من وقائع جزئية وقواعد كلية في القرآن:

وذلك مثل وضع السنة للقاعدة الكلية في قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»^(٣) المستمدة من آيات كثيرة تنهى عن الإضرار، مثل قوله - تعالى -: ﴿ لَا تَضَارَّ وِلْدَةً بِوَلْدَيْهَا ﴾^(٤)، وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، في الأفضية، باب القضاء في المرافق (٧٤٥/٢) رقم ٣١، عن يحيى المازني، مرفوعاً به. قال مالك: «هذا حديث مرسل، ووصله ابن ماجه عن عبادة بن الصامت. وابن ماجه برقم ٢٣٤١، عن ابن عباس، به مرفوعاً. وقال صاحب مصباح الزجاجة بعد إيراده هذا إسناد فيه جابر وقد اتهم. ورواه أحمد في مسنده (٣١٠/٤) رقم ٢٨٦٨. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف؛ لضعف جابر الجعفي، ومعناه صحيح ثابت بإسناد صحيح عند ابن ماجه. والحاكم في المستدرک، في البيوع (٥٧/٢)، عن أبي سعيد الخدري، به مرفوعاً. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٥١) رقم ٢٥٠: حديث صحيح ورد مرسلًا، وروى موصولًا عن أبي سعيد الخدري، وابن عباس، وعبادة بن الصامت، وعائشة وأبي هريرة، وجابر بن عبدالله، وثعلبة بن مالك. ثم قال: وبالجملة فهذه طرق كثيرة أشار إليها النووي في أربعينته، ويقوي بعضها بعضًا.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ^(١)، وقوله - تعالى - : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ^(٢)(٣) .

٣ - مواقف النبي ﷺ في التربية الاقتصادية:

ولقد ربي النبي ﷺ أتباعه في هذا المجال في عدة مواقف، وساروا على هذا النهج من بعده، ومن تلك المواقف:

أولاً: تحذير العمال من أخذ الهدايا:

لقد وقف النبي ﷺ من هذا الأمر موقفاً حازماً؛ حتى لا يسري في نفوس الأمة الفساد، فكان إذا أرسل عاملاً من عماله لم يجز له أخذ الهدية؛ حتى لا يقع هذا العمل في التفريط في الأمانة وعدم أدائها كما ينبغي.

فمن أبي حميد الساعدي قال: «استعمل رسول ﷺ رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللبية^(٤)، فلما جاء حاسبه قال: هذا مالكم وهذه هدية. فقال رسول الله ﷺ: فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذه هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتیه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢.

(٣) انظر: الأسس الفكرية والعملية للاقتصاد الإسلامي. د. محمد محمود بابلي، منشورات الرفاعي.

(٤) قال الحافظ ابن حجر: وابن اللبية المذكور اسمه عبدالله فيما ذكر ابن سعد، ولم أعرف اسم أمه، واللبية بضم اللام وسكون المثناة بعدها موحدة من بني لثب حي من الأزدي قاله ابن دريد، قيل إنها كانت أمه فعرف بها. فتح الباري (٣/٣٦٦)، والنووي (١٢/٢١٩).

لقي الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تئعر» ثم رفع يده حتى رؤي بياض إبطه يقول: «اللهم هل بلغت؟» بصر عيني وسمع أذني»^(١).

ثانياً: الحض على العمل والتحذير من المسألة:

لقد حرص الإسلام على حث المسلمين على العمل والتكسب حتى لا يقع أحدهم تحت ذل المسألة.

قال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»^(٢). وزاد مسلم: «فإن اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣).

ثالثاً: عدم الغش في التعامل:

أصبح شعار المسلم حديث النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»^(٤) وسبب ورود الحديث أن النبي ﷺ كان يوماً في السوق فوقف

(١) أخرجه البخاري في الحيل، باب احتمال العامل ليهدى له (٦٦/٨)، عن أبي حميد الساعدي، به مرفوعاً، وأخرجه كذلك في الجمعة، وفي الزكاة، وفي الهبة، وفي الإيمان بالقدر. وأخرجه مسلم في الإمارة، باب تحريم هدايا العامل (١٤٦٣/٣) رقم ١٨٣٢ عن أبي حميد الساعدي، به مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٢٩/٢) رقم ١٤٧١، وأطرافه عن الزبير بن العوام، به مرفوعاً. وعن أبي هريرة، مرفوعاً ١٤٧٠ وأطرافه. والمعنى أن من أخذ شيئاً في الصدقات غلالة فإنه يأتي يوم القيامة يحمله على رقبته... عقاباً له على غلوله.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (٧٢١/٢) رقم ١٠٤٢، عن أبي هريرة، به مرفوعاً.

(٤) رواه مسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» (٩٩/١) رقم ١٠٢، عن أبي هريرة، مرفوعاً. والترمذي في البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع (٦٠٦/٣) رقم ١٣١٥، عن أبي هريرة، به.

على بائع طعام ظاهره جيد، فمد أصابعه في الطعام فأصابها بلل، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: يا رسول الله: أصابته السماء. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟! من غشنا فليس منا»

رابعًا: الحث على الادخار والتحذير من الكنز:

لأن القصد من الادخار هو إغناء الورثة، والتحسب للطوارئ مراعاة إخراج الزكاة منه بخلاف الكنز الذي لا يخرج منه الزكاة.

فمن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: يا رسول الله: بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي؟

قال: «لا».

قلت: «فالشطر؟».

قال: «لا».

قلت: «فالثلث».

قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله - عز وجل - إلا أجزت بها، حتى ما تجعلني في فم امرأتك»^(١).

وهذا توجيه صريح بعدم التفريط في المال كله؛ حتى لا يصل الورثة بعد ذلك إلى المسألة التي حذر الإسلام منها.

(١) سبق تخريجه.

خامسًا: الشيء المحرم يكون التعامل به محرماً:

لقد حرم الإسلام كل شيء يضر بالفرد أو المجتمع، ومن ضمن ما حرمه الله: الخمر التي تذهب عقل شاربها فيقع في قول أو عمل لا يحل له، لذا بين الرسول ﷺ حرمتها من خلال ما نزل من آيات تتلى، وأحاديث تروى. قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: «هل علمت أن الله قد حرمها؟».

قال: لا، فسارَّ إنسانًا.

فقال له رسول الله ﷺ: «بم ساررته؟»

فقال: أمرته ببيعها.

فقال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها».

ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها^(١).

والتحريم كما هو معلوم لا يكون إلا لشيء تحقق ضرره^(٢).

بل وقد حث النبي ﷺ على العمل حتى عند قيام الساعة؛ مدلاً على أهمية ذلك الأمر، حيث قال ﷺ: «إذا قامت الساعة وفي

(١) أخرجه مسلم في المساقاة، باب تحريم بيع الخمر (١٢٠٦/٣) رقم ١٥٧٩، عن ابن عباس، به مرفوعاً. والنسائي في البيوع، باب بيع الخمر (٣٠٧/٧)، عن ابن عباس، به. وأحمد في المسند (٣٦/٤) رقم ٢١٩٠، عن ابن عباس، به مرفوعاً ويرقم ٢٩٨٠. وقال الشيخ أحمد شاكر: كلاهما صحيح.

(٢) انظر: الأسس الفكرية والعملية للاقتصاد الإسلامي ص ١٢٤.

يد أحدكم فسيلة ليزرعها»^(١).

بل كان ﷺ يشيد بالتجارة ويبين ما فيها من الكسب، وقد جاء في الأثر: «التجارة تسعة أعشار الرزق»^(٢).

مما سبق يتبين لنا ببياناً واضحاً عناية الإسلام بالجانب الاقتصادي، ولا يمكن لأمة الإسلام أن تكون أمة قادرة على دعوة غيرها لهذا الدين حتى تكون أمة غنية في اقتصادها، فهي حينئذ تُتبع ولا تُتبع، وتقود ولا تُقاد.

وموقف الصحابة إثر حادية الهجرة في اعتمادهم على أنفسهم بعد الله، واستثمار رؤوس أموالهم المتاحة من وقت وعافية وقدرة على التفكير والسوق المتاحة والمال الميسر دليل على أنهم كانوا يدركون أهمية الجانب الاقتصادي، فاستطاعوا تكوين اقتصاد جيد في المدينة وهو ما تمكنوا من خلاله من القضاء على كيان اليهود الاقتصادي وإزالته من أرضهم غير متضررين بذلك، ولا شك أن تلك الجيوش التي كان يرسلها الخلفاء في الفتح إنما كانت تستوجب نفقة وتغطية لحركاتها، فلو لم تكن الدولة الإسلامية قادرة لما استطاعت أن تبعث جنودها شرقاً وغرباً، حاملة راية (لا إله إلا الله).

(١) رواه أحمد في المسند (١٨٣/، ١٩١). والطيايبي في مسنده. والبخاري في الأدب المفرد. وابن عدي في الكامل (٢٢٩٤/٦)، كلهم عن أنس، به مرفوعاً. وذكره الهيثمي في المجمع (٦٣/٤). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩، وفي صحيح الأدب المفرد ١٨١.

(٢) ذكره ابن حجر في المطالب العالية، في البيوع، باب السلم (٤٠٩/١) رقم ١٣٦٨، عن نعيم بن عبد الرحمن يرسله عن النبي ﷺ: «تسعة أعشار الرزق في التجارة». قال البوصيري: رواه مسدد مرسلًا بسند صحيح. وأورده الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣٠/٣) رقم ٢٤٣٣، وأشار إليه بالضعف. وفي الدر المنثور (١٤٤/٢)، قال الشيوطي: أخرجه سعيد بن منصور، عن نعيم بن عبد الرحمن الأزدي، مرفوعاً. انظر: إتحاف السادة المتقين، للزيدي (٤١٦/٥).

٤ - الكيد الاقتصادي في عهد النبي ﷺ:

عدو المسلمين تنبه لهذا الجانب وخطره في قيام الأمم وسقوطها، وما حركة الاستعمار والاستيلاء على الشعوب إلا مؤشراً أكيداً على أن الكافر يدرك أنه بقوته الاقتصادية يستطيع أن يفرض فكره وينشر مبادئه ويستغل غيره، والتسلط على ثروات الأمم، واستضعافها من قبل الأمة الغالبة كان بارزاً في التاريخ، ويكن غالباً من الأمة التي تستمد هديها من عباقتها وساستها فقط^(١).

وسرقة الثروات الهدف منها إضعاف الشعوب في النواحي الاقتصادية؛ لأنها من الوسائل المهمة في حياة كل أمة، سواء كان ذلك في بنائها العلمي أو الاجتماعي أو الحربي أو غير ذلك، فتظل هذه الأمة المسروقة في ضعف دائم أمام الغالب لها، إضافة إلى ازدياد قوة وهيمنة المستعمر.

وكفار قريش أدركوا أهمية الاقتصاد في حياة المسلمين، فلم يغفلوا هذا الجانب، بل كان الاقتصاد من أولويات الأمور التي كانوا يفكرون في حرب النبي ﷺ من خلالها.

١ - المقاطعة الاقتصادية:

اجتمعت قريش في خيف بني كنانة من وادي محصب فتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحهم ولا يبايعهم ولا يجالسهم ولا يخالطهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ لقتله، وكتبوا في ذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق (أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل).

(١) الذين ربطوا مشاعرهم بعقولهم، ولم يربطوا عقولهم بهدي ربهم، فضلوا.

قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نصر بن الحارث.

والصحيح: أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه الرسول ﷺ، فشلت يده^(١)، فانحاز بنوهاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم، إلا أبالهب^(٢) فإنه ظاهر قريشاً على رسول الله ﷺ وبنو هاشم وبنو المطلب، وحبس رسول الله ﷺ ومن معه، في الشعب شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، وبقوا محبوسين ومحصورين مضيقاتاً عليهم جداً مقطوعاً عنهم الميرة^(٣) والمادة، نحو ثلاث سنين، حتى بلغهم الجهد وسمعت أصوات صبيانه بالبكاء من وراء الشعب، وهناك عمل أبوطالب قصيدته المشهورة التي أولها:

جزئ الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلاً غير آجل

هكذا فعل المشركون بالنبي ﷺ وأصحابه؛ حتى يشنوه عن دعوته الحق، فالأذى لم يقتصر عليه وحده فقط أو على من معه من الرجال الأشداء، بل تعداه إلى الضعفاء من النساء والصبيان الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم من الجوع إلا بعض ما يصل إليهم من التزر اليسير الذي يرسل خفية ممن هم غير راضين عن هذه المقاطعة، إضافة إلى ورق الشجر في ذلك الشعب.

ومع ما كان يراه النبي ﷺ من ضنك وجوع ممن هم معه إلا

(١) انظر: زاد المعاد، لابن القيم (٣/٣٠)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، طبعة دار الرسالة.

(٢) أبولهب، عبدالعزيز بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف. كني أبالهب لإشراق وجهه، وأمّه لبنى بنت هاجر الخزاعي، رماه الله بالعدسة فقتلته وهي قرجة قاتلة كالطاعون. سيرة ابن هشام (١/١١٣١، ٢/٣٠٢).

(٣) الميرة: الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. النهاية (٤/٣٧٩).

أنه ظل صابراً محتسباً ثابتاً على ما جاء به من الحق، وظل أصحابه معه ثابتين صابرين موقنين بنصر الله وفرجه. ومع محاولاتهم الكثيرة لشراء ما يحتاجون إليه إلا أن قريشاً كانت تزيد عليهم في السلعة حتى لا يستطيعوا شراءها فيعودون لا يجدون ما يمسون به رمقهم إلا ورق الشجر والجلود وظلوا على هذه الحال ما يقارب ثلاثة أعوام كاملة^(١) حتى أجمع خمسة من المشركين من قريش في الحجون وكان القائم بذلك الأمر هشام بن عمرو^(٢) من بني عامر بن لؤي وكان من الذين يرسلون الطعام سراً إلى رسول الله ﷺ، والمطعم بن عدي^(٣) وزهير بن أمية^(٤)، وأبوالبخترى بن هشام^(٥)، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد^(٦) فلما أصبحوا بعد اجتماعهم في الحجون غدا زهير فطاف بالكعبة، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنوهاشم هلأى لا

(١) انظر: الرحيق المختوم ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث القرشي العامري، كان ابن أخي فضلة بن عبدمناف لأمه، فكان واصلًا لنبي هاشم، وكان ذا شرف في قومه. ذكره ابن إسحاق في المؤلفه ممن أعطاه النبي ﷺ دون المائة من غنائم حنين، وهو الذي قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم في الشعب. الإصابة (٢٥٠/١٠) برقم ٨٩٧٣. وسيرة ابن هشام (١٤/٢).

(٣) المطعم بن عدي بن نوفل بن عبدمناف: وهو الذي شق الصحيفة التي كتبها قريش، وهو الذي أأجر النبي ﷺ لما رجع من الطائف. سيرة ابن هشام (١٥/٢، ٢٠).

(٤) زهير بن أمية بن المغيرة بن عبدالله المخزومي أخو أم سلمة أم المؤمنين، وذكره هشام ابن الكلبي في المؤلفه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم. الإصابة (١٩/٤) برقم ٢٨١٦.

(٥) أبوالبخترى بن هشام: اسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبدالعزيز. وكان ممن أظهر العداوة للرسول ﷺ، وممن قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم. سيرة ابن هشام (٣٨٢/١، ١٥/٢).

(٦) زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي، وكان ممن أظهر العداوة لرسول الله ﷺ، وممن قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم. السيرة لابن هشام (٣٨٢/١، ١٥/٢).

يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة، وبعد أن دار الكلام بينهم وبين أبي جهل في عدم شقها، قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) وما كان فيها من اسم الله، ومع رؤية قريش لهذه الآية إلا أنهم ظلوا على عنادهم وكيدهم بالرسول ﷺ وفسروا هذا الأمر بأنه من فعل السحر الذي فعله النبي ﷺ (١).

٢ - استغلال الضعفاء من المهاجرين وابتزاز أموالهم:

وبعد أن هاجر الصحابة إلى المدينة استغلت قريش هذا الموقف لأخذ أموالهم والاستيلاء عليها. بل كانوا يتعقبون البعض منهم حتى يدلهم على ماله فإن فعل تركوه، ومن أولئك الرجال صهيب بن سنان بن مالك (٢).

روى ابن عدي (٣) من طريق يوسف بن محمد بن يزيد بن صفي بن صهيب (٤) عن آبائه عن صهيب، قال: صحبت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث ويقال أنه لما هاجر تبعه نفر من المشركين، فسئل

(١) ابن هشام (٣٧٥/١). وله أصل في البخاري كتاب مناقب الأنصار، باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ (١٩٢/٧) رقم ٣٨٨٢.

(٢) صهيب بن سنان بن مالك، ويقال: خالد بن عمرو بن عقيل النمري، أبو يحيى، وهو الرومي؛ لأن الروم سبوه صغيراً، عذب في الله، ثم هاجر مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، ومات سنة ثمان وثلاثين، وقيل سنة تسع. الإصابة (١٦٠/٥) برقم ٤٠٩٩.

(٣) هو الحافظ الكبير أبو أحمد، عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد، ويعرف بابن القطان الجرجاني، مصنف الكامل في الجرح والتعديل. قال ابن عساكر: ثقة على لحن فيه، توفي سنة ٣٦٥هـ. العبر (١٢١/٢)، والبداية والنهاية (٣٠٢/١١).

(٤) يوسف بن محمد بن صفي، ويقال ابن يزيد بن صفي بن صهيب بن سنان التميمي مولى ابن جدعان، مقبول، من الثامنة. تهذيب التهذيب (٣٧١/١١)، والتقريب (٣٤٦/٢) برقم ٧٩٠٩.

فقال: يامعشر قريش، إني من أركامكم ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه فرضوا فعاهدهم، ودلهم فرجعوا، فأخذوا ماله، فلما جاء إلى النبي ﷺ قال له: «ريح البيع»^(١) فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٢).

ولم تقم قريش بهذا الأمر إلا بسبب أن هذا الصحابي الجليل أراد أن يهاجر إلى الله ورسوله، ولم يكن هو فحسب الذي أخذ ماله. بل لقد ترك الصحابة دورهم وأموالهم في مكة نصرة لدين الله، لذا وجه النبي ﷺ صحابته وعلى وجه الخصوص المهاجرين منهم إلى اعتراض قوافل قريش والاستيلاء عليها، وكان في ذلك التعرض فوائد للمسلمين من أبرزها:

أ - استعادة أموالهم التي تركوها في مكة كما ذكرنا سابقاً، فالدافع هنا ليس ظلم أحد، وإنما هو استرداد الحق، حتى لا يقول قائل إن الصحابة رضي الله عنهم مرتزقة حاشاهم.

ب - هز اقتصاد قريش لإضعاف شوكة الكفر وهيمنته.

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١٦٠/٥). وأخرجه الحاكم في المستدرک في معرفة الصحابة، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه (٢٩٨/٣)، عن عكرمة قال: لما خرجه صهيب... الخ بمعناه. انظر: المطالب العالیة في تفسیر سورة البقرة (٣٠٩/٣)، عن سعید بن المسیب بمثله. قال ابن حجر: رواه ابن أبي حاتم في التفسیر (للحارث)، وابن كثير في تفسیر سورة البقرة (٣٨٠/١)، عن صهيب بمثله بمجمع الزوائد في التفسیر، سورة البقرة (٣١٨/٦، ٣١٩)، عن ابن جریج في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. قال: نزلت في صهيب بن سنان، وأبي ذر، والذي أدرك صهيبيًا بطريق المدينة. رواه الطبراني، ورجاله ثقات إلى ابن جريج. الدر المنثور (٢٣٩/١، ٢٤٠). أخرجه ابن مردويه عن صهيب بمثله. وأخرجه كذلك ابن سعد والحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساکر، عن سعید بن المسیب، وذكر القصة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

ج - تنبيه الصحابة إلى أهمية الحرب الاقتصادية .

٣ - تعدي المشركين على مصدر اقتصادي من مصادر الدولة المسلمة :

ولما رأت بعض القبائل أن النبي ﷺ - سيما بعد الهجرة - قد رمته العرب عن قوس واحدة، تجرأوا على بعض موارده الاقتصادية، حيث كانت له بعض الإبل ترعى بأحد الأودية فحاولوا أخذها. وكان الذين قاموا بذلك الأمر هم غطفان من مشركي العرب.

فعن سلمة بن الأكوع^(١) : قال : خرجت قبل أن يؤذَنَ بالأولى وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد^(٢) قال : فلقيني غلام لعبدالرحمن بن عوف قال : أُخَذَت لقاح^(٣) رسول الله ﷺ . فقلت : من أخذها؟ قال : غطفان، قال : فصرخت ثلاث صرخات : يا صباحاه، قال : فأسمعت ما بين لابتي المدينة^(٤) ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم وقد أخذوا يسقون من الماء فجعلت أرميهم بنبلي وكنت رامياً وأقول :

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع^(٥)

(١) سلمة بن الأكوع بن عمرو بن سنان الأنصاري الأسلمي، وكان ممن بايع رسول الله ﷺ على الموت يوم الحديبية، وكان بطلاً شجاعاً رامياً، وله مواقف مشهورة، العبر (٦٢/١)، والبداية والنهاية (٧/٩).

(٢) ذي قرد: بفتح القاف والراء، وحكي الضم فيهما، وحكي ضم أوله وفتح ثانيه. قال البلاذري: والصواب الأول. وهو ماء على نحو بريد مما يلي غطفان، وقيل على مسافة يوم. فتح الباري (٧/٥٢٦).

(٣) اللقاح ذوات اللبن من النوق، والواحدة لقوح. النهاية (٤/٢٦٢).

(٤) قال في القاموس: «اللابة: الحرة، وحرم رسول الله ﷺ ما بين لابتي المدينة، وهما حرتان تكتنفانها...» ص ١٧٣، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ، بيروت.

(٥) الرضع: قالوا معناها يوم هلاك اللثام. النهاية (٢/٢٣٠).

وأرتجز حتى استنقذت اللقاح منهم واستلبت منهم ثلاثين بردة^(١) قال: وجاء النبي ﷺ والناس، فقلت: يا نبي الله إني حميت القوم^(٢) الماء وهم عطاش فأبعث إليهم الساعة فقال: «يا ابن الأكوح ملكت فأسجج»^(٣) قال: ثم رجعنا ويردني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة^(٤).

هكذا كانت تعامل المشركين ومايزال، لكن عندما ظفر النبي ﷺ باللقاح وطلب سلمة رضي الله عنه اللحوق بالقوم أمره النبي ﷺ بالرفق في ذلك، لأنه قد حصل لهم من النكاية بسبب صنيعهم ما هو كافٍ لردعهم؛ لأن من مقاصد هذا الدين ردع المعتدي ومحاولة إرجاعه إلى الجادة، وليس القصد هو استئصال فئة من الناس قد حصل منها خطأ ربما ترجع عنه بعد ذلك.

٤ - الديون وأثرها في التبعية الاقتصادية :

ويستمر الكيد بالمسلمين، وتتخذ التدابير من أجل النيل من أهل الإسلام، ومحاولة النكاية بهم واستعبادهم من هذا الجانب.

فعن عبدالله الهوزني^(٥) - قال: لقيت بلالاً مؤذن رسول الله ﷺ بحلب^(٦) - فقلت: يا بلال كيف كانت نفقة

(١) بردة: كساء أسود مربع فيه صفرة تلبسه الأعراب، والجمع بُرد بفتح الراء. مختار الصحاح ص ٤٧، في مادة (برد)، والمصباح المنير (٤٣/١).

(٢) حميت القوم: أين منعتهم إياه. النهاية (٤٤٧/١).

(٣) فأسجج: أي قدرت فسهل وأحسن العفو النهاية (٣٤٢/٢).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة ذي قرد (٧١/٥) رقم ٤١٩٤، واللفظ له، عن سلمة، به. ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها (١٤٣٢/٣) رقم ١٨٠٦، عن سلمة، به.

(٥) عبدالله بن لحي الحمصي، أبوعامر الهوزني، ثقة مخضرم، من الثانية. التقريب (٥٢٦/٢) برقم ٣٥٧٣.

(٦) حلب: بالتحريك، مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة المواد صحيحة الأديم =

رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله تعالى إلى أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً، يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه حتى اعترضني رجل من المشركين، فقال: يا بلال إن عندي سعة، فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت، فلما أن كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار، فلما رأيته قال: يا حبشي، قلت: يالباه، فتجهمني^(١) وقال لي قولاً غليظاً، وقال: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قلت: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع فأخذك بالذي عليك، فأردك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك. قال بلال: فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس حتى إذا صليت العتمة، رجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إن المشرك الذي كنت أتدين منه قال كذا وكذا وليس عندك ما تقضي عني، ولا عندي، وهو فاضحي فأذن لي أن آبق^(٢) إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا، حتى يرزق الله رسول الله ﷺ ما يقضي عني.

قال: فخرجت، حتى أتيت منزلي، فجعلت سيفي وجرابي^(٣) ونعلي ومجني^(٤) عند رأسي حتى إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال، أجب رسول الله

والماء، وهي من مدن الشام. معجم البلدان (٢/٢٨٢).

(١) يالباه: يريد ليك، فتجهمني: جهمه كمنعه، استقبله بوجه كربه، ورجل جهم الوجه أي كالح الوجه. القاموس المحيط ص ٤٠٩، في مادة (جهم)، ومختار الصحاح ١١٥.

(٢) آبق: إذا هرب. النهاية (١/١٥).

(٣) جرابي: الجراب لا يُفتح أو لفيه فيما حكاه عياض وغيره، المزود أو الوعاء. القاموس المحيط ص ٨٥، في مادة (جرب).

(٤) مجني: المجن: الترس. القاموس المحيط ص ١٥٩١، في مادة (مجن).

هذا الموقف الاقتصادي، حاول المشرك الاستفادة منه في

ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: الانتقاص من الشخصية الإسلامية.

الجانب الثاني: محاولة استبعادها وإذلالها.

الجانب الثالث: إثقال كاهل القيادة بالمشاكل.

لكن الله عز وجل رد كيده في نحره، وستر الله عبده وأعزه

وأغناه.

المطلب الثالث: الكيد الإعلامي

تمهيد:

نود أن نشير إلى أن المتتبع لآيات الكتاب الكريم يدرك أن القرآن الكريم دافع عن رسول الله ﷺ منذ بعثته ﷺ إلى أن توفاه الله، وهو دفاع عن الرسول يستمر صداه وأثره إلى قيام الساعة.

فما من آية وردت فيها مقولة للمشركين تتهجم على النبي ﷺ أو تحط من قدره أو تنتقص من شأن الدين الذي جاء به النبي ﷺ إلا وتلت هذه الآية آية تتولى بالرد المباشر المفحم والحاسم ما ينقض افتراء المشركين على النبي ﷺ وتحبط ذلك الكيد المقصود من وراء هذا الافتراء، وأحياناً تأتي بعض الآيات التي تتناول الدفاع عن الرسول ﷺ بنقض وتحطيم مقولة المشركين وإبطال كيدهم دون ذكر لآيات سابقة تحكي كيد المشركين ولعل الآيات في سورة الكوثر وفي سورة (تَبَّتْ) تشير إلى هذا.

وفي ذلك دلالة على علم الله الواسع المحيط، وعلى أن محمداً رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً، ولكن لماذا عني القرآن بتسجيل تلك الصور من صور الكيد الشركي في مظاهره المختلفة سياسياً واقتصادياً أو إعلامياً لعل من وراء ذلك مقاصد تربوية هامة منها تربية من سار ويسير على طريق النبي ﷺ وتأكيد للسنن الإلهية في أنه لا ينجو داعية إلى الله يسير على طريق رسول الله ﷺ من الأذى والكيد قولاً وفعلاً فلم يسلم من ذلك خير خلق الله وخاتم الأنبياء ﷺ.

وذلك عين ما استدل به ورقة بن نوفل^(١) رحمه الله الذي عنده

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد، وكان =

علم الكتب السابقة وأحوال الأنبياء مع قومهم لما علم وسمع من رسول الله ﷺ قصة الوحي فأعلمه أن قومه سيخرجونه مؤكداً ذلك بقوله: «إنه ما بعث نبي قط إلا أخرجته قومه».

فقال له النبي ﷺ: «أومخرجي هم؟» قال ورقة: نعم^(١).

كان النبي ﷺ يستخدم كل وسيلة صحيحة من أجل إيصال هذا الدين ولقد استخدم الوسائل الإعلامية المتوفرة في ذلك الوقت لتكون منابر هداية وإرشاد للأمة، ومع ذلك حاول الأعداء الوقوف ضدها وتشويهها وتمثل ذلك في عدة جوانب:

١ - المعارضة :

ففي بداية دعوته في مكة كما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢) صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عدي» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ﴾^(٣).

= ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والأنجيل. سيرة ابن هشام (١/٢٦٩).

(١) أخرجه البخاري في التعبير، باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة (١٢/٣٥٢) رقم ٦٩٨٢، عن عائشة، مرفوعاً به مطولاً. ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/١٣٩) رقم ١٦٠، عن عائشة، به مطولاً.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة المسد، والحديث أخرجه البخاري في التفسير، في سورة الشعراء، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٨/٥٠١) رقم ٤٧٧٠، عن ابن عباس، به.

ووجه قول الحق بنفس الوسيلة وهو التنقص والاستهزاء والازدراء مباشرة وعلى مسامح الجميع، حتى لا يتأثر أحد بقول أبي لهب عندما زجر النبي ﷺ.

٢ - تشويه شخصه ﷺ :

لقد كان النبي ﷺ يعرف في مكة بالصادق الأمين ولم يجد أهل الشرك منفذاً كي ينالوا منه في هذا الجانب ولكن حاولوا أن يلصقوا به أي شيء ويذيعوه بين الناس لكي ينفصوا من حوله، وأيضاً لكي لا يفكر الآخرون في الاستجابة له فأشاعوا أنه ليس له ولد (أي ذكر) وأنه سوف يموت وينقطع أثره. فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليس له ولد، وسيموت وينقطع أثره فأنزل الله تعالى سورة الكوثر، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١) يعني شاني محمد ﷺ هو الأبتَر^(١) بل إنهم تواصلوا بالتمادي في الغي والكفر.

فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن قريشاً تواصلت بالتمادي في الغي والكفر، فقال بعضهم: الذي نحن عليه أحق مما عليه الصنبور، والمنبر^(٢) فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١) ومن شدة كراهيتهم للرسول ﷺ وإظهار ذلك للناس من أجل إبعادهم عنه، كانوا لا يذكروا اسمه حتى عند شتمهم إياه وإنما يقولون مذمماً استخفافاً وتحقيراً.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون

(١) انظر في جامع الأصول (٢/٤٣٩).

(٢) الصنبور: أي أبتَر لا عقب له، ويقصدون لم يعش له الذكور. النهاية (٣/٥٥).

مذمماً ويلعنون مذمماً، وأنا محمد»^(١)، ويصرف الله كيدهم عنه، ولعنهم إياه إلى اسم غير اسمه. ولقد حمى الله نبيه منذ أن اختار له هذا الاسم.

٣ - تشكيك الناس فيما يدعو إليه :

كثير من الناس يستهويهم الشيطان لسماع الباطل أكثر من سماع الحق، ولسماع القدح أكثر من سماع التعديل. بل نجد عند الناس قوةً ونشاطاً لتقبل الأمر الأول ومحاولة الاستزادة منه، ولكنها في نفس الوقت فيها من الضعف والكسل الشيء الكبير للتعرف إلى الحق وفهمه.

وأول من قام بالتشكيك فيما جاء به النبي ﷺ أقرب الناس إليه، عمه أبولهب. فالإنسان إذا عاداه الناس وشككوا في أمره يكون ذلك ثقيلاً على نفسيته فكيف إذا صدر هذا الأمر من أقرب الناس إليه. قال الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند^(٢)

(١) رواه البخاري في الأنبياء، باب ما جاء في أسماء رسول الله ت (٤/١٢٦).

(٢) من معلقة طرفة بن العبد - ديوان طرفة بن العبد - تحقيق المحامي فوزي عطوي ص ٥١، دار صعب، بيروت ١٩٨٠.

يقول ابن سعد^(١): كان رسول الله ﷺ يوافي المواسم كل عام ويتبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعُكَاظ^(٢) ومَجِنَّة^(٣) وذِي الْمَجَازِ^(٤).

يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ويقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم، وإذا آمتتم كتمتم ملوكاً في الجنة»^(٥). وأبولهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب. فيردون على رسول الله أقبح الرد ويؤذونه.

٤ - التهوين من شأن المسلمين :

قد يستخدم العدو هذا الأمر فيكون له الأثر البالغ في أفراد من تشجيع، ودفع لهم على المضي لتحقيق أكبر قدر ممكن من النجاح في النيل من الخصم.

كما له في الوقت نفسه الأثر البالغ في تخذيل أفراد المواجهة لذلك العدو وإرهابه وإضعاف الروح المعنوية لديهم، ولقد قام بهذا العمل أبوجهل، فبعد أن وافاهم خبر تفلت العير من يد

(١) ابن سعد: هو محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، مولاها البصري، نزيل بغداد، كاتب الواقدي صاحب الطبقات، صدوق فاضل من العاشرة، مات سنة ثلاثين، وهو ابن ٦٢ سنة. التقريب (٧٩/٢) برقم ٥٩٢٢، والتهذيب (١٦١/٩).

(٢) عكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وقال الأصمعي: عكاظ نخل في وادي بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. معجم البلدان (١٤٢/٤).

(٣) مجنة: اسم سوق للعرب كان في الجاهلية. قال الأصمعي: وكانت مجنة بمر الظهران قرب جبل يقال له أصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها. معجم البلدان (٥٨/٥).

(٤) ذي المجاز: موضع سوق بعرفة على ناحية كبكب عن يمين الإمام على بعد فرسخ من عرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان (٥٥/٥).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک، الإيمان (١٥/١)، عن ربيعة بن عباد الدؤلي بمثله. قال الحاكم: وإنما استشهد بعبدالرحمن بن أبي الزناد اقتداءً بهما؛ فقد استشهدا جميعاً به.

المسلمين قال في كبرياء وغطرسة: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ، فتقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعامونسقي الخمر وتعزف القيان^(١) وتسمع بنا العرب وبمسيرنا. وجمعنا فلايزالون يهابوننا أبداً^(٢)، ولم يقل ذلك إلا وهو في خيلائه وصلفه وبطره وجيشه فرد الله كيده في نحره.

- استخدام أسلوب الإثارة :

لقد تمثل هذا الأمر فيما فعله ضمضم بن عمرو الغفاري قبل غزوة بدر عندما استأجره أبوسفیان مستصرخاً قريشاً بالنفير إلى مكة حيث صرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، وقد جدد أنفه، وحول رحله، وشق قميصه وهو يقول: يامعشر قريش: اللطيمة اللطيمة. أموالكم مع أبي سفیان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث^(٣).

هكذا كان لهذه الوسيلة الأثر البالغ في إثارة قريش وخروجها في أسرع وقت إلى بدر ليس فقط لإنقاذ العير وإنما تعدى ذلك الأمر للقاء بالمسلمين ومحاولة استئصالهم. ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٦ - استخدام الدعاية الإعلامية :

وبالرغم مما رآه المشركون من الآيات على صدق الرسول ﷺ وبالأخص ما رآه أبوجهل نفسه عندما حاول عدة مرات أن يؤدي

(١) القيان: واحدها قينة وهي الأمة غنت أو لم تُغن، والماشطة، وكثيراً ما تطلق على المغنية من الإماء، وجمعها قينات وتجمع على قيان. النهاية (١٣٥/٤)، طبعة أنصار السنة المحمدية، والمصباح المنير (٥٢١/٢).

(٢) انظر: السيرة، لابن هشام (٢٧٠/٢). وقد تقدم.

(٣) السيرة لابن هشام (٢٦٠/٢). قال في القاموس: «واللطيمة وعاء المسك، أو سوقه أو غير تحمله». ص ١٤٩٥، الطبعة الثانية. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٧هـ.

النبي ﷺ وكان فحلاً من الإبل سوف يأكله، ورأى هولاء، وأجنحةً، وناراً. رغم كل ما مر من آيات ومعجزات إلا أنهم لم يتأثروا ولم يرجعوا ويقبلوا الحق الذي جاء به حتى إن قريشاً وعلى رأسهم أبو جهل أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا وقالوا: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة. فنزل قول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يزيد^(٣) يعني ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق حدثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبة^(٤) أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة. فكان المستفتح^(٥).

قال السدي: كاد المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٩.

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، نزيل بغداد، أبو عبدالله، أحد الأئمة، ثقة حافظ، فقيه حجة، وهو رأس الطبقة العاشرة، مات سنة ٢٤١ وله ٧٧ سنة. التقريب (٤٤/١) برقم ٩٦.

(٣) يزيد بن هارون بن زاذان السلمي، مولاهم أبو خالد الواسطي، ثقة متقن عابد، من التاسعة، مات سنة ٢٠٦ وقد قارب التسعين. التقريب (٣٣٣/٢) برقم ٧٨١٧، والتهذيب (٣٢١/١١).

(٤) عبدالله بن ثعلبة بن صعير، ويقال ابن أبي صعير. مسح رسول الله ﷺ وجهه ورأسه زمن الفتح، ودعا له. قال الحافظ في التقريب: له رؤية ولم يثبت له السماع، مات سنة سبع أو تسع وثمانين وقد قارب التسعين. التهذيب (١٤٥/٥).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/٥). وابن كثير (٤٦٧/٢). والنسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان، عن الزهري، به. والحاكم في مستدركه (٣٢٨/٢) من طريق الزهري، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. وروى نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة وغير واحد. الطبري في التفسير (٤٥٤/١٣)، تحقيق الشيخ أحمد شاکر - رحمه الله تعالى - . انظر: صحيح السيرة (٣٦٠/٢).

الجندين، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فنزلت الآية.

ولعل قول أبي جهل هذا فيه من الدعاية والتشجيع لأفراد الجيش ما فيه؛ ليبين لهم أن خروجهم ذلك إنما يريدون به مرضاة الله، مع علم أبي جهل بأن النبي ﷺ على الحق، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ولكن حب الرئاسة، والفخر، والخيلاء، جعلته يتعمى عن الهداية والرشد. والكبرياء والغطرسة تمادت به حتى لا يتنازل لما جاء به الرسول ﷺ من الحق. وهذا شأن بعض النفسيات لذا ينبغي التعامل معها بحكمة وروية وعدم الجدل معها على رؤوس الملائم لاسيما إذا طمع الداعية في هدايتها، وأن يعرض الحق لها بطريقة غير مباشرة، وأن يصاحب ذلك التواضع، والاحترام.

ولقد كان النبي ﷺ يتعامل بحكمة مع كثير من طواغيت قريش، ومع مثل هذه الشخصيات فهدى الله على يديه جمعاً غفيراً، ولكن تظل بعضها ممن كتب الله عليها الشقاوة معاندة، معادية له ﷺ، لتظل تعزية لكل من يدعو بدعوته لمثل هذه النفسيات إذا فشل في هدايتها فهو مأمور بتبليغ الدعوة والإنذار لها وليس مأموراً بهدايتها فإن ذلك بيد الله إذا أراد أمراً هياً له الأسباب. والعمل والتضحية، والإخلاص لا يضيع أجرها عند الله.